# المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١ أغسطس سنة ١٩٤٧ — ٢٨ رمضان سنة ١٣٦٦


## بين التصحيح والتوضيح

### حول نقد كتاب « الله »

نظر الأستاذ عباس محمود العقاد في النقد الذي تناولنا فيه كتابه « الله » في العدد الماضي من المقتطف ، [1] ومضى يناقش فيه مناقشة العالم الذي يحاول ، كما ينبغي ان يحاول العلماء الوصول الى الحق من طريق التساجل المنطقي الصِّرف ، فسلَّم معنا بكثير مما خالفناه فيه ، وخالفنا في أشياء مضى يعرضها ويوضحها بما عهدناه فيه دائماً من بيان المعارة وجاءة الفكر ونحن إذ نحمد للأستاذ هذا النهج ، نجدنا أكثر حمداً إذ يلتحي أديب مفكر مثله هذا المنحى وينزع هذه النزعة ، كما نود أن يصبح ضمير الناس أكثر يقظة ، نرى نابهون منهم أن في مجال التأمل الفلسفي شيئاً أو أشياء جديرة بأن تكون موضعاً للاستغراق في الفكر أو للموازنات المنطقية .

والحق أني أخالف الأستاذ العقاد في كثير مما ذهب اليه في ملاحظاته ورُدُوده ، بل أعتقد أنه قد جانب الصواب في كثير منها ، فلنأخذ من ثمت في النظر في كلٍّ مما عرض له الأستاذ في مقاله [2] .

### ١ — الاستحياء

صرف الأستاذ هذا اللفظ ليقابل مصطلح animism في اللغات الأعجمية ، وذهبت الى أن حقيقتها الفكرة الروحانية ولا أزال عند رأيي ، كما استشهدت على ذلك بتعريف معجمي ثبت .

---

(١) عدد يوليه سنة ١٩٤٧ (٢) الرسالة العدد ٧٣٥ الصادر في ٤ من أغسطس سنة ١٩٤٧

يقول : الأستاذ « إن كلمة « أنيميزم » لها معانٍ كثيرة تختلف باختلاف العلوم التي تدخل فيها ، وهي في علم وظائف الأعضاء غيرها فيما وراء الطبيعة وغيرها في علم أصول الانسان » اه .

ولست أعرف حتى الآن ان هذا المصطلح قد جرى بأي معنى في علم الوظائف أو علم وظائف الأعضاء كما يقولون ، ولو ان الأستاذ يدلنا على شاهد واحد يؤيد ما ذهب اليه ، حمدنا له ذلك حمداً كثيراً .

والحق أن هذا اللفظ لا يدخل في استعمال شيء من العلوم البحتة ، وإنما هو كثير الدوران في علوم نظرية أو علوم عملية، وهو فيها جميعاً يدل على الروحانية أو القول بالروح . جاء في المعجم الفلسفي الذي طبع باشراف « داجوبرت روز » Dagobert D. Runes وهو من أحدث المعاجم ما يلي :

Animism : (Lat. anima = soul) . The doctrine of the reality of souls.

(1) Anthropology (a) the view that souls are attached to all things either as their inner principle of spontaneity or activity, or as their dwellers. (b) The doctrine that Nature is inhabited by various grades of spirits (spiritism).

(2) Biology, Psychology : the view that the ground of life is immaterial soul rather than the material body.

(3) Metaphysics : the theory that Being is animate, living, ensouled.

(4) Cosmology : the view that the world and the astronomical bodies possess souls. See pp. 12-13.

ومن هذا نرى أنّ المصطلح في علم الإنسان إمّا أن يدل على اعتقاد في أن الأرواح لها علاقة بالاحياء ، وإمّا على أن الطبيعة مأهولة بطبقات متفرقة من الأرواح ( وهذا ما بحث فيه تايلور) . وهو في علم الأحياء وعلم النفس يدل على القول بأن أساس الحياة روح غير مادّي فضلاً عن الجسم المادّي . وفي فلسفة الكون يدل على أن العالم والأجرام السماوية لها أرواح . فهو في جميع مدارجه يدل على الرّوحانية ، وفي جميع استعمالاته يدل على الروح أو الفكرة فيها مطابقة على مختلف هذه العلوم .

وكذلك نرى المعنى في معجم بولدوين الفلسفي وفي المعجم الانسيكلوبيدي وفي معجم ستنفوري وهي من أمهات المظانّ العلمية والأدبية ، فاذا لم نأخذ عنها فعن أي شيء نأخذ ؟ أما القول بأن مثل هذا المصطلح لا يرجع فيه الى المعجمات ، وإنما يرجع فيها الى معنى المذهب الذي تدل عليه كما يقول الأستاذ العقاد ، فقول لا حقيقة له من جهات عديدة . منها أنه ليس هناك شيء يقال له « معنى المذهب » فالمذاهب لا تقوم على معانٍ وإنما تقوم على نظريات أو فكرات ، والطريق السليم الى تبيانها هي المصطلحات المصورة المعنى المحدودة

الدلالة . ومنها أن المصطلحات اذا رجع في فهمها إلى ما ينقل مذهب من المذاهب الى فكر كل قارىء أو باحث من غير تقيد بالمعنى المحدود للمصطلحات ، أصبح الأمر فوضى ، بل أصبح عماء ، بل تعذر أن يقوم مذهب عقلي على أساس ثابت . ذلك بأن المصطلح المحدود الدلالة هو الأداة الثابتة في تكييف المذاهب ، ولم يخرج عن ذلك مذهب واحد من المذاهب على مدار العصور .

من هنا يقول الأستاذ العقاد — « إن المعنى المقصود في مذهب تيلور أن الهمجي كان يؤلّه الأشياء والظواهر الطبيعية ( يقصد الظاهرات الطبيعية ) لأنه كان كالطفل الذي يضرب الباب اذا اصطدم به لأنه يحسبه في حكم الاحياء ( يقصد أنه من ذوات الأرواح التي تبعث الحياة ) . ونحن لا نقول ( الأستاذ العقاد ) إن الطفل يضرب الباب لأنه يؤمن بالفكرة الروحية وإنما نقول إنه يضربه لأنه يؤمن بالاستحياء ، أو لأنه يستحيي الأشياء التي ليست لها حياة » . اه

وفي هذه العبارة ناحيتان : الأولى رأي الأستاذ « تيلور » ، والثانية وجهة نظر الأستاذ العقاد . فرأي تيلور على أن الهمجي يضرب الباب لأنه يحسبه حيًّا أي أن فيه روحاً : وتلك هي الروحانية بعينها . أمّا رأي الأستاذ العقاد فلا يقول بأن الطفل ( ويقصد الهمجي الذي هو كالطفل بحسب منطوق العبارة الأولى ) يضرب الباب لأنه يؤمن بالفكرة الروحانية ، بل يضربه لأنه يؤمن بالاستحياء أي أنه يستحيي الأشياء التي ليست لها حياة . وإذن يكون رأي تيلور هو في نطاق «الانيميزم» حقًّا ، أي في نطاق الفكرة الروحانية . أما رأي الأستاذ العقاد فخارج عن ذلك النطاق ولا يدخل في باب الانيميزم ، وبذلك يصبح اطلاق معنى الانيميزم عليه خرق لنطاق المعنى المحدد لهذا المصطلح في العلوم النظرية . وللأستاذ العقاد رأيه ، ولكنه ليس حرًّا في أن يقول إن الانيميزم دالٌّ عليه . واذن فليبحث له عن مصطلح جديد يضعه له ، وقد تكون أقرب كلمة للتعبير عنه في الانجليزية هي : Encauling

ولا يخفاء أن مذهب تيلور وهو مذهب معروف منذ زمان طويل ، يختلف عن المعنى الذي أراده الأستاذ العقاد اختلافاً مبيناً . فالهمجي على مذهب تيلور يعتقد بأن للاشياء أرواحاً تسخرها ، لا انه يستحييها كما يريد الأستاذ العقاد أن يقول . ومن ناحية اللغة نعرف أن الألف والسين والتاء تفيد إضافتها إمّا الطلب وإما الصيرورة . وكل من المعنيين بعيد عما يعني بالروحانية : Animism ، فان الهمجي وفقاً لهذا المذهب لا يطلب من الأشياء أن تصبح حية ، ولا هو ينتظر أن تصير حية . وانما هو يعتقد أن أرواحاً تلابسها فتسخرها لمشيئتها.

فاذا انتقم منها أو صبّ عليها غضبه ، فانما يفعل ذلك وهذا المعنى قائم في مخيلته . ولكنه لا يستحيبها : أي انه لا يطلب منها أن تحيا ولا ينتظر أن تصير حية .

## ٢ — تعديد الآلهة

سلّم الاستاذ العقاد معنا بأن لفظة Polytheism ترجمتها الشرك ، ثم عقب على ذلك بقوله : —

« ولكنك لا تقول إن القبائل العبرية كانت تؤمن بالشرك لأن الايمان بالشرك يقتضي الايمان قبل ذلك بوحدانية الله . ولا معنى لأن تصف انساناً بأنه مشرك ، قبل أن يظهر على الكرة الأرضية دين يدعو الى التوحيد ، أو يدعو الى الاله الواحد الذي يدعو الى غيره أولئك المشركون » . اه .

وفي هذه العبارة جهات من النقد .

أولاً — إن القول بأن الشرك حالة لا توصف بأنها كذلك قبل ظهور دين يقول بالتوحيد ، أمرٌ ينطوي على مغالطة صريحة . فاذا فرضنا أن دين التوحيد لم يظهر في هذا الوجود ولا عرف الناس في هذه الكرة شيئاً يقال له « وحدانية الله » ، أيمنع ذلك لغة أن نسمي الحالة الأولى حالة شرك أو اشراك ؟ وهل نحتاج الى تحديد معنى « التوحيد » و « الوحدانية » ليكون صرفنا كلمة شرك على حالة تكثير الآلهة أمراً مستقيماً مع منطق اللغة ؟

ثانياً — لم يكن هناك دين يقال له الشرك أو الاشراك ، وانما كانت هناك أديان كثيرة لكل دين منها آلهته وطقوسه وعباداته ومتدساته ومحرماته (أي طواطمه وطاباته) ، وانما يجمع هذه الأديان جميعاً حالة واحدة تشملها هي حالة الشرك أو الاشراك . وعلى هذا ينتفي أيضاً القول بأن هناك إيماناً يقال له « إيمان الشرك » . وإنما الايمان يكون بدين ، حالته المكيفة له هي الشرك . كما نقول ان الاسلام دين حالته المكيفة له هي التوحيد .

ثالثاً — ان ظهور أديان تقول بالتوحيد أمرٌ لم ينقص من حالة الشرك ولم يزد إليها شيئاً . وكل ما في الأمر أنّ « التوحيد » جعل معنى « الشرك » أكثر تحديداً لا غير .

رابعاً — يقول الأستاذ العقاد :

« فلو قال لنا مؤرخ إن الهمج اشركوا قبل أن يؤرخ لنا ديانات التوحيد لكان كلامه هذا خطأ في التاريخ وخطأ في التعبير » اه .

ولست أرى في القول بأنّ الهمج أشركوا بمعنى انهم نشئوا ومضوا مشركين أي خطأ لا في التاريخ ولا في التعبير . ذلك بأنهم أشركوا بالفعل ، بمعنى أنهم أشركوا مع إلٰه كبير

آلهة صغيرة ، أو انهم جعلوا لكل ظاهرة أو حالة إلاهاً . أو بمعنى أنهم أشركوا آلهة كثيرة في تدبير الطبيعة والحياة أمّا القول بأن إنساناً كان موحداً ثم أشرك ، أو جماعة كانت موحدة ثم أشركت ، فذلك معنى آخر بالمرة ، بعيدٌ عن المعنى الأول بُعد الأرض عن السماء .

وقوله تعالى : « ولأمةٌ مؤمنة خيرٌ من مشركة ولو أعجبتكم » : يقتضي وجهين : الأول أن تكون موحدة ثم أشركت ، والثاني ان تكون مشركة لم تعرف التوحيد . « ففي الأمر الذي فيه تستفتيان » .

## ٣ — أسماء وحروف يونانية ولاطينية

يحتاج الكلام في هذه المسألة الرجوع بعض الشيء الى مسألة تاريخية .

ففي دور الانعقاد الرابع ألّف مجمع فؤاد الأول للغة العربية لجنة من بعض حضرات أعضائه لتنظر في شأن كتابة الأعلام اليونانية واللاطينية بحروف عربية . وقد اشتركت في هذه اللجنة موظفاً ، فأعددت لها البحوث واتخذت على ضوئها القرارات ، بعد ان بحثت اللجنة ذلك الأمر بحثاً دقيقاً مستفيضاً ، وانتهت عند قرارات تسهل على المعرّبين تعريب تلك الأعلام بما يقرب جرسها في اللغة العربية ، من نطقها في تينكما اللغتين .

أما الذي حفز المجمع على أن يفكّر في ذلك ان كل مترجم من اللغات الأوربية يرسم الأعلام في العربية منطوقة بحسب اللغة التي يترجم منها فالمترجم من الانجليزية ينقل الأعلام كما ينطق بها الانجليز ، والمترجم من الفرنسية ينقلها كما ينطق بها الفرنسيون وهكذا في حين أن الواجب ان يوحد النطق بهذه الأعلام فترسم في العربية رسماً يقرّب جرسها من النطق بها في لغتها الأصلية .

ولقد قرأت في كتاب مطالعة للمدارس الثانوية أقرته وزارة معارفنا الموقرة ، ويحمل غلافه أسماء خمسة من أعلام أدبائنا ، مقالاً رسم فيه اسم قائد يوناني بأربعة رسوم مختلفة . وكفى بذلك بلبلة لطالب ثانوي لم يشب بعد عن الطوق لهذا شرعت في وضع معجم في الأعلام القديمة استهديت في وضعه بالقواعد التي أقرّها المجمع وزدت اليها قواعد أخرى ، وربما شرعت في طبعه قريباً . فان العربية في حاجة قصوى إليه .

فاذا كنت قد نبهت الى هنات درج عليها صديقي الأستاذ العقاد ، فذلك سببها ، وهذا منشؤها .

ولقد نسي الأستاذ أنه استعمل في كتابه لفظين يرسم أحدهما في الانجمية المدينة

Krouds والثاني : Chronos قال في ملاحظاته : « أو كقولنا كرونوس بدلاً من إخرونوس » اهـ.

واذا رجعت الى صلب كتابه رأيت الأمر على عكس ذلك. جاء في ص ١٣١ من الكتاب :

« فلما قال الأقدمون إن أورانوس إله السماء خصاه ابنه كرونوس إله زحل — كانوا يفهمون من ذلك ان كوكب زحل هو مناط النظام في السيارات ، وأنه قادر بذلك على تقسيم دورات الفلك وتقسيم الفصول والسنين . ومن هنا التقابه بين كلمة Krones كرونوس إله زحل وكلمة كرونوس : Chrone أي إله الزمان ، كأنهم يقولون إن الزمن قد حدّ من حركات الأفلاك والسيارات » اهـ .

والحقيقة ان اللفظ الأول يجب ان يعرّب « إثرونوس » ، والثاني « إخرونوس » . وذلك يبدأ في اليونانية بحرف « كپّا » ، وهذا يبدأ بحرف « خي ».

واذا رجعت الى معجم لاطيني في الاعلام القديمة لما عثرت فيه على أسماء تبدأ بحرف « K » الحديث لأنه لم يعرف في تلك اللغة ، وانما عرف حرف « C » وكان ينطق « كافا » فرسم « كرونوس » عند المتبتين هو Cronos في اللاطينية ( Kronos في اليونانية ) . كذلك لم أقف فيما بين يديّ من المراجع على إله اسمه « إخرونوس » هو إله الزمان ، وإنما في اللغة اليونانية أصل هو : chronos ومعناه « زمن » ، دخل في تركيب كثير من الألفاظ المستحدثة مثل chronometer و chronology وغير ذلك . فلو هدانا الأستاذ الى الأصل الذي أخذ منه هذا القول ، لبكرنا له ذلك كل الفكر .

أمّا أن يأخذ عليّ الأستاذ أني رسمت اسم « أوغست كرنت » بالغين لا بالجيم ، فغالب ظني أنّ رسمي هو الصحيح وان لم يكن في الفرنسية حرف « الغين » . فمن قبل قال جميع الكتاب أوغسطوس قيصر وشهر اوغسطس والقديس أوغسطين ، ولا أتذكر أني رأيت كاتباً عربيّاً رسمه أوجسطين إلاّ لماماً وعلى خطأ

## ٤ — الثنائية والجدلية

يقول الأستاذ المفاد :

« ويعيب الأستاذ مظهر ترجمة الديالكتيك Dialectic بالثنائية ، ويفضل ترجمتها بالجدلية . وهو في ذلك على خطأ عظيم من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، لأننا رددنا « دیا : Dia » الى معناها الأصيل وهو التثنية ، ومنها الآن كلمة Deux بالفرنسية Two بالانجليزية » اهـ .

أقول : ولست مخطئاً لامن جهة اللفظ ولا من جهة المعنى ، وإن الخطأ كل الخطأ هو في ما يقول به الاستاذ العقاد . فان في اليونانية أصلين : أحدهما dia والآخر duo والأصل الثاني هو الذي أخذ منه deux الفرنسية و Two الانجليزية ، وليس لهذين اللفظين أية علاقة بالأصل الأول dia الذي دخل في تركيب : dialect ; إن لفظ dia معناه في العربية « بين » أمّا لفظ duo فمعناه « اثنان » ، وهذا لم يدخل في تركيب : dialect ، بل ولا تمت إليه بأية صلة . وإليك الشواهد القاطعة .

(1) Two : Century Dictionary p. 6558-Vol. VI.

Lat : duo : old French : doi, dus, deus, deux; new French : deux. Greek : duo.

ومن هذا الأصل duo أخذ لفظ dual أي ثنوي أو ثنائي : وإليك الشاهد :

(2) Dual : Century Dictionary, p. 1780, Vol. II

L. dualis; Greek : duikos : dúo = two

أما لفظ ديالكت dialect فيدخله الأصل dia ومعناه « بين » وهو الذي يخيّل للاستاذ العقاد إن معناه « اثنان » حيث تشابه عليه الاصلان dia و duo : وإليك الشاهد :

(3) Dialect : Century Dictionary, p. 1590, Vol. II

L. dialectos, dialectus : Greek : dialegein = distinguish, choose between : from Greek : dia = between + legein = choose, speak

Greek : dialectós = discourse, discuss, argue, use a dialect or language.

إذن فلفظ « ديالكت » — dialect لا يدخله أصل يوناني أو لاتيني فيه معنى «الاثنين» ولا « الثنوية » ولا « الثنائية » ، بل يدخله أصل فيه معنى « البَينيّة » . فلفظ «ديالكت» مركب من الهجاء ديا « dia » : ومعناه « بين » ، والحرف ليجين legein ومعناه يختار أو يتحدث ، وتخريجه « التّخيّر أو التحادث » فأين معنى الثنائية في ذلك ؟ وإذن يكون تعليل الأستاذ العقاد من الجهة اللغوية لا أصل له ولا يستند إلى أي أصل أعجمي على إطلاق القول ، ولم يبق إلاّ التخريج الفلسفي الذي يقول فيه الأستاذ العقاد ما يلي :

« ولأن مذهب كارل ماركس وهو « الديالكتك » يقوم على ان المادة ثنائية الخصائص تشتمل على الخاصة ونقيضها ، ولا يقوم على أن المادة جدلية أو مجادل بعضها بعضاً في أطوارها المتتابعة » . اهـ .

ونقول بأن الذهاب إلى أنّ مذهب كارل ماركس هو « الديالكتك » أمرٌ لم يقل به

غير الأستاذ العقاد على ما أذكر وبقدر ما يتسع له علمي . على اني أكاد أجزم به . ذلك بأن مذهب ماركس هو « المادية الجدلية » — « ديالكتيك ماتيريالزم » ، وهنالك ما بين المذهبين .

بدأ مذهب الجدل أو المذهب الجدلي بأرسطوطاليس ، وقد فرّق بين التعقل الجدلي Dialectical Reasoning الذي ينشأ بالقياس المنطقي من آراء مسلّم بها عموماً ، والتعقل الاثباتي Demonstrative Reasoring الذي يبدأ بمقدمات أولية صحيحة . ولم يدّع ارسطوطاليس انه أول قائل بالمذهب ، بل ردّه الى زينون الإلياويّ . وان كان الواقع ان مذهب الجدل بطريق المحاورة قد نشأ مع سقراط وتلميذه أفلاطون . ثم تحيز في فلسفة « كانت » ومن بعد « كانت » في فلسفة « هيجل » ، ومن « هيجل » أخذ ماركس وانجلز ، ومعنى أخذا انهما استندا الى جدليات « هيجل » في وضع مذهب ماديّ ، طبقاد على التاريخ باعتباره من خلق العوامل الاقتصادية . ويطول بنا البحث اذا نحن أردنا أن نبيّن وجه العلاقة بين هيجل وماركس ، فكفانا بأن نبين المعنى الحقيقي الذي تنطوي عليه « المادية الجدلية » وهي مذهب ماركس . ذلك بأنك اذا قلت الجدلية وحسب ، أخرجت من ذلك المجال ماركس ومذهبه .

يتألف مذهب ماركس من شقين : الأول « المادية » والثاني « الجدلية » ، ومن تضايفهما تخرج باسم المذهب كاملاً . فما المقصود بالمعنى من الشقّين ؟

يقصد ماركس « بالمادية » من ناحية وجودية صرفة ان المادّة والطبيعة والدنيا المنظورة هي في جوهرها حقيقة واقعة قائمة بذاتها ، ولا تستمد حقيقتها من أية قوة كانت سواء أكانت هذه القوة فوقطبيعيّة أم استشرافية ، كما لا يتوقف وجودها على عقل الانسان ، وانه من المسلم عليه أن المادة وجدت قبل نشوء العقل البشري ، سواء أمن ناحية الزمان أم من ناحية المنطق ، بمعنى أن العقل لم يظهر إلاّ بحكم تطوّر مادي ، وإن المادّة ينبغي أن تفسر بمقتضى ذلك . وان المكان والزمان يجب أن ينظر فيهما باعتبارهما صورتين تتوقفان على وجود المادّة (١) .

( البقية في باب الاخبار العلمية ص ٢١٠ )

---

(1) The Dictionary of Philosophy ، Dagobert D. Runes, 1945, p. 79.

# ابن جنّي

## ابو الفتح عثمان

كان أبوه جنّي روميًّا ويقول بعض العلماء إنّ جني معرب من أحد لفظين روميين فإن كان بكسر النون وبدون تشديد فهو معرب لفظ كِنبي وإن كان بكسرها وتشديدها فهو معرب لفظ جنايس . وكان جني مملوكاً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي . وإلى هذا أشار أبو الفتح عثمان بقوله :

فإن أصبح بلا نسب فعلمي في الورى نسبي
على أنّي أؤول الى قروم سادة نُجب
نياصرة اذا نطقوا أرمّ (١) الدهرُ ذو الخُطَب
أولاك دعا النبي لهم كفى شرفاً دعاء نبي

وولد أبو الفتح عثمان بن جني في الموصل موطن والده ومولاه سليمان قبل سنة ٣٣٠ هـ ومات في بغداد ليلة السبت لليلتين بقيتا من صفر سنة ٣٩٢ هـ عن أكثر من اثنتين وستين سنة . وبغداد هو البلد الذي ألِف فيه كشيخه عصا القياد واختاره مستقرًّا له .

وكان مولده إبّان انحلال الدولة العباسية في أواخر العصر العباسيّ الأوّل الذي انتهى بأن استولى بنو بويه سنة ٣٣٤ هـ على بغداد وأزالوا سلطان الخلفاء العباسيين المدني إزالة تامّة وصيّروا الخليفة العباسي رئيساً دينيًّا لا أمر له ولا نهي ولم يتركوا له من الأموال إلاّ كاتباً واحداً يدير أملاكه ويضبط دخله وخرجه وصارت الوزارة لملوك الدولة البويهية يستوزرون من يشاءون ، وتمّ بذلك انفصال بقية الأقطار الإسلامية من الدولة العباسية وصيرورتها دولاً مستقلة استقلالاً تامًّا لا يشوبه اعترافها بسلطان الخلفاء العباسيين الديني أقل شائبة .

وهذه الدول المستقلة من قبل ومن بعد هي الدولة الأموية في الأندلس ( ١٣٨ — ٤٢٢ ) والدولة السامانية فيما وراء النهر ( ٢٦١ — ٣٨٩ ) والدولة الزيارية في جرجان ( ٣١٦ — ٤٣٤ ) والدولة الحمدانية بين النهرين وحلب ( ٣١٧ — ٣٩٤ ) والدولة البويهيّة في العراق

(١) أرم : سكت

وفارس وغيرها ( ٣٢٠ — ٤٤٧ ) والدولة الغزنوية في أفغانستان والهند ( ٣٥١ — ٥٨٢ ) والدولة الفاطمية في شمالي إفريقية ومصر ( ٣٥٧ — ٥٦٧ ) .

وكان لهذه الدول بعد زوال سلطان الخلفاء العباسيين المدني عنها أعظم شأن في تقدم العلوم والآداب والفنون بما نبغ من ملوكها وأمرائها ووزرائها فيها وبما كان من حبهم تقريب العلماء والأدباء ورجال الفن وتنافسهم في ذلك ، وبما كان من اقبال الناس على الدرس والبحث والتدريس وتنافسهم هم كذلك في ذلك ، فاجتمع بهذا وذاك للنهضة العقلية أعظم أركانها وهي تضافر الرعاة والرعية وتعاونهم تعاوناً صادقاً .

فكأن الفن والثورات الدينية والسياسية والحربية التي حملت جراثيمها الدولة العباسية منذ نشأتها الأولى وما زالت تتناسل وتتكاثر وتنمي وتقوى وتقتُّ في عضد الدولة حتى زعزعت أركانها وقوَّضت بنيانها كانت على شدة ضارتها وفداحة ويلاتها وسوء مظاهرها عاملاً قوياً من عوامل النهوض والارتقاء لهؤلاء الدول المستقلة إذ أصبحت كل دولة منها كالدولة العباسية حضارة وعلماً وصبغة عربية إسلامية . فلم يكن تحوُّل الدولة العباسية الى هذه الدول قاضياً على خصائصها وميزاتها العامة وهي الحضارة العربية الاسلامية ولغتها وعلومها وآدابها وفنونها ومظاهر حياتها كما كان تحوُّل الدولة العثمانية أخيراً مثلاً الى دول لا تمت إليها بصلة قاضياً على خصائصها وميزاتها العامة ووحدتها .

وقد نبغ في هؤلاء الدول أعلام في العلم والأدب والفن عاصروا ابن جني منهم أبو بكر الخُوارزمي ( المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ) وأبو اسحاق الصابي ( ٣٨٤ ) والصاحب بن عباد ( ٣٨٥ ) وبديع الزمان الهمذاني ( ٣٩٨ ) وأبو الفضل بن العميد ( ٣٦٠ ) وأبو هلال العسكري ( ٣٩٥ ) والأزهري صاحب التهذيب ( ٣٧٠ ) وابن فارس صاحب المجمل ( ٣٩٠ ) وأبو علي القالي صاحب الأمالي ( ٣٥٦ ) والجوهري صاحب الصحاح ( ٣٩٨ ) وابن النديم صاحب الفهرست ( ٣٨٥ ) وابن خالويه ( ٣٧٠ ) والأصبهاني صاحب الأغاني ( ٣٥٦ ) والسيرافي ( ٣٦٨ ) والمتنبي ( ٣٥٤ ) وأبو فراس الحمداني ( ٣٥٧ ) وكشاجم ( ٣٦٠ ) والسري الرفاء ( ٣٦٢ ) والشريف الرضي ( ٤٠٦ ) والسلامي ( ٣٩٣ ) والوأواء الدمشقي ( ٣٩٠ ) وغيرهم .

نشأ أبو الفتح عثمان بن جني في هذا الانقلاب السياسي الخطير وفي إبان هذه النهضة العقلية العظمى وبين هؤلاء الأفذاذ المبرزين في العلوم والآداب والفنون وقد رُزق حظاً عظيماً جداً من الذكاء والحذق والبراعة والجدّ في التحصيل والصبر عليه والدقة في البحث والاستقصاء والرغبة الجامحة فكان لذلك كله أعظم تأثير في تكوينه حتى أصبح

إمام عصره في اللغة والأدب والنحو والصرف والرئيس الذي انتهت اليه الرياسة فيها .

وكان أكبر العوامل في تكوينه تأثيراً معرفته شيخه أبا عليّ الحسن ابن احمد الفارسيّ امام الأئمة في علم العربية في عصره الذي لم يكن أحدٌ أعلم بالنحو بعد سيبويه منه . وذلك أن الامام أبا علي الفارسيّ سافر الى الموصل بلد ابن جني ودخل مسجده فوجد ابن جني يقرأ النحو وهو شاب وكان يتكلم في مسألة صرفية وهي قلب الواو ألفا في نحو قام وقال فاعترض عليه أبو علي ووجده مقصّراً فقال له تربيت وأنت جعشرم : والصرف ولم يكن ابن جني يعرفه فسأل عنه فقيل له : إنه أبو علي الفارسيّ النحويّ : فطوى كتبه وأوراقه وشمّر عن ساقيه وجدّ في طلبه حتى أدرك ولازمه ملازمة ظله له وتنقّل معه في أسفاره وانفرد به وأخذ عنه العلم واستملاه ايّاه وصنف في زمانه ووقف أبو علي على تصانيفه واستجادها وأقام معه في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب حيناً وفي بلاط عضد الدولة في فارس حيناً آخر حتى مات أبو علي الفارسي في بغداد سنة ٣٧٧هـ فخلفه أبو الفتح عثمان بن جني فيها وحل محله في التدريس وقد وعى كل علمه وزاده .

ويقول القفطي المصري المتوفي سنة ٦٤٦ هـ في كتابه أنباه الرواة في طبقات اللغويين والنحاة في ترجمة ابن جني : وخدم أبو الفتح عثمان بن جني بيت آل بويه في عهد عضد الدولة وولده صمصام الدولة وولده شرف الدولة وولده بهاء الدولة الذي مات في عهده وكان ملازمهم في دورهم .

ولا شك أن بلاط هؤلاء الأمراء ودورهم منتديات يؤمّها أفذاذ العلماء والادباء ورجال الفن والحرب والسياسة من جميع الممالك والأقطار وتتلاقى فيه أفكارهم ومعارفهم وأن لذلك أكبر الأثر في نضج أبي الفتح وتمرّسه .

من ذلك أنه كان يلتقي بأبي الطيب المتنبي في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب وفي بلاط عضد الدولة وولده صمصام الدولة في فارس فتآلفا وتحابا وكانا يتناظران في النحو كثيراً واختلف الرواة فمنهم من يقول انه قرأ ديوانه عليه ومنهم من يقول انه لم يقرأه عليه أنفةً منه واكباراً لنفسه . والصواب أنه قرأه عليه كما يقول ابن خلكان وكما قال هو نفسه في شرحه ديوان المتنبي وإن ابن جني في علمه وحرصه لا يفوته مثل ذلك ولا تأخذه العزة فيقع في مثل هذا التقصير .

قال أبو الفتح كنت قرأت ديوان أبي الطيب عليه فقرأت عليه قوله في كافور القصيدة التي أولها :

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلبُ وأعجَب من ذا الهجر والوصل أعجب

حتى بلغت الى قوله :

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة ولا أشتكي فيها ولا أتعتّبُ

وبي ما يذودُ الشعر عنّي أقلّه ولكنّ قلبي يا ابنة القوم قُلّبُ

فقلت له يمزح عليّ كيف يكونُ هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة فقال : حذرناه وأنذرناه فما نفع ألست القائل فيه :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطينّ الناس ما أنا قائلُ

فهو الذي أعطاني كافور بسوء تدبيره وقلّة تمييزه .

وقال في موضع آخر وهو يردّ على من يعيبون أبا الطيب : على أنني سأذكر ذلك منثوراً في أماكنه بحسب ما يوفق الله جلت عظمته له وأذكر ما شجر بيني وبينه من المباحثة وقت قراءتي ديوانه عليه الى سوى ذلك :

وكان أبو الطيب المتنبي وقد خبر ابن جني أعظم خبرة يقول : إنّ ابن جني رجل لا يعرف قدره كثير من الناس : ويقول : إنّ ابن جني أعلم بشعري مني : وكان اذا سُئِلَ عن مسألة غامضة في شعره أحال السائل على ابن جني من ذلك أنه مدح أبا شجاع مرّة فقال في ولدين له :

فلا ملكا سوى تلك الأعادي ولا ورثا سوى من يقتلان

وكانا ابني عدو كأنّاه له يأبى حروف انيسان

فسئل في شيراز عن معنى البيت الأخير فقال : لو كان صديقنا أبو الفتح حاضراً لفسّره وتفسيره أن لفظ انسان خمسة أحرف اذا كان مكبراً فاذا صُغّر صار سبعة أحرف فازداد عدد حروفه وصغر معناه : فهو يقول لأبي شجاع : إن عدوّك الذي له ابنان يكأنك بهما كانا زائدين في عدده ناقصين من فضله وقدره لأنهما ساقطان خسيسان فهما كأني انيسان تزيدان عدد الحروف وتنقصان من المعنى .

ومنه أنّ سائلاً سأل أبا الطيب عن قوله : باد هواك صبرت أم لم تصبرا : فقال : كيف أثبتّ الألف في تصبرا مع وجود لم الجازمة ؟ وكان من حقه أن تقول : لم تصبرْ : فقال المتنبي : لو كان أبو الفتح هنا لأجابك . والجواب أن هذه الألف بدل نون التوكيد الخفيفة كان في الأصل : لم تصبرنْ : ونون التوكيد الخفيفة تبدل عند الوقف ألفاً قال الأعشى : ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا : وكان في الأصل فاعبُدَنْ فلما وقف أتى بالألف بدل النون .

وقد نبغ ابن جني في علم التصريف نبوغاً منقطع النظير لأن السبب في صحبته أبا عليّ الفارسيّ واغترابه عن وطنه ومفارقته أهله مسألة تعريضية فحمله ذلك على التبحر والتدقيق فيه فقرأ كتاب التصريف لأبي عثمان المازني وهو أول كتاب ألف في هذا العلم وحده وخير كتاب فيه على أستاذه الإمام أبي عليّ الفارسيّ قال أبو الفتح في كتابه سر الصناعة: وهذا ما خرج لي بعد التفتيش والمباحثة مع أبي علي وقتُ قراءتي كتاب أبي عثمان عليه[1] وقال في كتابه الخصائص: قال أبو علي وقتَ القراءة عليه كتابَ أبي عثمان كذا وكذا[2]. ثم شرح هذا الكتاب شرحاً وافياً يدل على غزارة علمه بالتصريف وباللغة وبراعته فيهما وقد سمى هذا الشرح (المنصف) وبقي هذا العلم شغله الشاغل يسأل فيه فيجيب أجوبة شافية ويطرح مسائله على الناس ويبصرهم بأجوبتها السديدة.

ونبغ ابن جني في اللغة نبوغاً تسامى به على المتقدمين والمتأخرين فقد قال منذ ألف سنة بما وصل اليه علماء اللغات حديثاً من أن أسماء الأصوات هي أصول اللغة تشتق منها جميع الأفعال والمصادر والأسماء، وان أسماء الأعيان تشتق منها كما يشتق من أسماء الأصوات. قال في الخصائص:

وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وصهيل الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس وزئير الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل[3]:

وقال في شرحه تصريف المازني الذي سماه المنصف: ذوات الخمسة وإن لم يكن فيها فعل فان دخول التحقير والتكسير فيها كالعوض من منع الفعلية فيها ألا ترى أنك تقول في تحقير سفرجل وتكسيره سُفَيْرِج وسفارج فجرى هذا مجرى قولك سَفْرَجَ يُسَفْرِجُ سَفْرَجَةً فهو مُسَفْرِجٌ وإن كان هذا لا يقال فانه لو اشتق منه فعل لكانت هذه طريقته[4]:

فالقول الأول صريح كل الصراحة في اشتقاق الأفعال والمصادر وجمع الأسماء من اسماء الأصوات. والقول الثاني يدل على جواز اشتقاق الأفعال وما يتفرع منها من مصادر وأسماء من أسماء الأعيان ويُسَنُّ أنها لا تشتق من أسماء الأعيان الخماسية وأنها لو اشتقت منها لكان طريق اشتقاقها كما ذكر أي بحذف الخامس كالتصغير والتكسير.

(١) منقولة عن نسخة من سر الصناعة بالتصوير الشمسي بدار الكتب لغة ٧٣٩ ص ٤٠
(٢) منقولة عن نسخة الخصائص المطبوعة بمطبعة الهلال بالنجالة بمصر سنة ١٩١٣ م ص ٤٤
(٣) الخصائص ١ ص ٤٩ س ١ من تحت
(٤) المنصف ص ٣٤ س ١٨ — من نسخة بمكتبة تيمور ٦٥ صرف

فهو بهذا وذاك يقرر منذ الف سنة تقريباً ما وصل اليه علماء اللغات في هذا العصر من أن أصل اللغة حين نشأتها الاولى أسماء أصوات فلما تقدمت وارتقت واستطاعت أن ترتجل اسماء للاعيان أصبحت اسماء الاعيان هذه أصلاً للاشتقاق

وكان لابن جني عناية فائقة بالقياس كاستاذه الامام أبي علي الفارسي فأما عناية ابن جني به فتتجلى في كل مؤلفاته وأما عناية أستاذه به فقد روى عنه قوله : أخطىء في مائة مسألة لغوية ولا أخطىء في واحدة قياسية . وكانا مع ذلك متوسعين في القياس

قال ابن جني في كتابه الخصائص : قال أبو علي وقت القراءة عليه كتاب أبي عثمان : لو سماه شاعر أو ساجع أو متسع أن يبني بإلحاق اللام اسماً وفعلاً وصفة لجاز له ولكان ذلك من كلام العرب وذلك نحو خَرْجَجٍ أكرِمْ من دَحْلَلٍ وضَرْبَبَ زيدٌ عمراً ومررت برجل ضَرْبَبٍ وكَرْمَمٍ ونحو ذلك : قلت له : افترتجل اللغة ارتجالاً ؟ قال : ليس بارتجال لكنه مقيس على كلامهم فهو إذاً من كلامهم [1] وقال في الخصائص أيضاً .

ومما يدلك على أن ما قيس من كلام العرب فانه من كلامهم أنك لو مررت على قوم يتلاقون بينهم أبنية التصريف نحو قولهم في مثال ( صمحمح ) من الضرب ( ضَرَبْرَب ) ومن القتل ( قتلتل ) ومن الاكل ( أكلكل ) ومن الشرب (شربرب) ومن الخروج (خرجرج) ومن الدخول ( دخلخل ) وفي مثل صفرجل من جعفر ( جعفر ) ومن صقعب (صَقَعْبَب) ومن زبرج ( زبرجج ) ومن ترثم ( ترثم ) ونحو ذلك فقال لك قائل بأي لغة كان هؤلاء يتكلمون لم تجد بداً من أن تقول : بالعربية . وإن كانت العرب لم تنطق بواحد من هذه الحروف [2] .

كان أستاذه إمام الأئمة يستجيد مؤلفاته كما تقدم وهذه شهادة كبيرة له بالفضل وقد شهد له بذلك أعداؤه من ذلك أن أبا اسحاق ابراهيم بن سعيد الرقاعي وهو من أئمة العربية المتازين رأي يوماً بعضهم يتردد على ابن جني في واسط ويتلقى عنه العلم فقال له : قد انكفت على هذا المجنون ( يريد ابن جني ) : فقال له : إنه يحكى عن أبي علي النحو كما أنزل قال : صدقت . [3] وقد كان أبو اسحاق هذا محفوظاً معقوراً لتشيعه .

أما شهادات المنصفين فكثيرة منها ما ورد في كتاب : نزهة الالبا في طبقات الادبا لابن الانباري .

---

(١) ٣٦٣ خصائص (٢) ٣٦٥ خصائص

(٣) ص ٥٠٦ القسم الخامس من أنباه الرواة المقتطى من نسخه بالتصوير الشمسي بدار الكتب تحت عنوان تاريخ ٢٥٧٩

أمّا أبو الفتح عثمان بن جني النحوي فإنه كان من حُذاق أهل الأدب وأعلمهم بعلم النحو والتصريف : وقال : ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف فإنه لم يصنف أحدٌ في التصريف ولا تكلم فيه أحسن ولا أدق كلاماً منه .

وما ورد في معجم الأدباء لياقوت قال فيه .

من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف وصنّف في ذلك كتباً أبرّ بها على المتقدمين وأعجز المتأخرين ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف ولم يتكلم أحدٌ في التصريف أدقّ كلاماً منه :

وما ورد في دُمْية القصر وعُصرة أهل العصر : لأبي الحسن الباخرزي قال :

هو أبو الفتح عثمان بن جني ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات مثاله ولا سيما في علم الاعراب فقد وقع عليها من تمرق الغراب [1] ومن تأمل مصنفاته وقف على بعض صفاته .

وأعظم من أولئك جميعاً أنه لعلو كعبه في اللغة والأدب أصبح ثقة وحجّة فيهما وأكثر أعتمادهما في النقل عنه والاحتجاج بأقواله وقد أوتي من ذلك حظّاً عظيماً لا يقل عن حظ أكبر الأئمة كالخليل وسيبويه وغيرهما فالرواية عنه والاحتجاج بأقواله كالرواية عن هؤلاء الأئمة والاحتجاج بأقوالهم .

وكأن أبا الفتح كان بما أوتي من مواهب وملكات وما كان من أستاذه الإمام أبي علي الفارسي من غناء قد اقتصر عليه وعلى جهوده فلم يذكر له من الشيوخ غيره . أمّا الذين أخذوا عنه فكثيرون منهم أبو القاسم الهاشمي وأبو احمد عبد السلام بن الحسين البصري وأبو الحسن علي بن عبدالله وأولاد ابن جني نفسه الثلاثة عليّ وعالم والعلاء وقد تفقهم أحسن تثقيف وعلمهم الخط الحسن فصاروا أدباء فضلاء معدودين فيمن ضبطه وحسن خطه

ويقول بعض المؤلفين أن ابن جني لازم شيخه أبا علي الفارسي أربعين سنة . وهذا غير معقول لأن ابن جني لم يعش إلا اثنتين وستين سنة قضى منها قبل ملازمة شيخه نحو عشرين سنة على الأقل لأنّ الروايات متضافرة على أنه لازمه بعد أن تصدر للتدريس في

(١) تمرة الغراب . يضرب المثل بالغراب في أشياء كثيرة فيقولون أبعر من غراب : وأحذر من غراب : و أمشى عيشاً من غراب : وغير ذلك مما يقولونه : وحد تمرة الغراب : وذلك إذا تتبع أجود التمر وانتقى أجوده يضرب مثلا لمن ينتقي أجود المتاع .

جامع الموصل ولا يمكن أن يتصدَّر للتدريس في مسجد جامع قبل سن العشرين ثم لم يعش بعد شيخه إلا نحو عشرة سنة فإنَّ الشيخ مات سنة ٣٧٧ هـ والتلميذ مات سنة ٣٩٢ هـ فيكون قضى من عمره كله نحو خمس وثلاثين سنة قبل معرفته شيخه وبعد افتراقهما بوفاة هذا الشيخ بدون ملازمة له والباقي من عمره بعد طرح خمس وثلاثين سنة وهو خمس وعشرون سنة هو الذي يمكن أن يقال إنه لازمه فيه.

وأي شيخ لا ينفد ما عنده في أقل من نصف هذه المدة وأي طالب يبقى في حاجة الى ملازمة شيخه أكثر من نصف هذه المدة يخيل إليَّ أن حاجة أخرى هي التي أطالت هذه الملازمة حتى بلغت ما بلغت هي حاجة الأستاذ الى خدمة تلميذه ليستعين بهذه الخدمة على تأدية رسالته وحاجة التلميذ الى العيش الرغيد الذي كان شيخه يتمتع به في بلاط هؤلاء الأمراء

ولابن جني مع بعض الأعراب نوادر طريفة تدل على حذقه وعلمه وعلى بقاء السليقة العربية سليمة الى عهده بعض السلامة وقد روى كثيراً منها في كتبه وأذكر منها مسألتين مما ذكره في الخصائص على سبيل التمثيل قال:

سألت مرَّةً أبا عبد الله محمد بن العبَّاف المُقَيْلي الجُوثي التميمي الهجري وصحبه ابن عم له دونه فصاحة وكان اسمه غُصْناً فقلت لهما: كيف تحقِّران حمراء فقالا: حميراء: قلت. فسوداء: قالا: سويداء: ووالَيت من ذلك أحرفاً وهما يجيبان بالصواب ثم دسست في ذلك علباء: فقال غُصْنٌ: علبياء: وتبعه الهجري فلذا هم بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال: آه عليي[1] ووام الضمة في الياء فكانت تلك عادة له[2] وقال:

سألت هذا الاعرابي مرَّةً: كيف تجمع سرحاناً: فقال: سراحين: قلت: فذكاناً: قال: ذكاكين: قلت وقرطاناً[3]: قال: قراطين: قلت: فعثمان: قال: عثامين: قلت. هلاَّ قلت عثامين كما قلت: سراحين وقراطين: فأباها البتة وقال: إيش ذا أرأيت انساناً يتكلم بما ليس من لغته والله لا أقولها أبداً: استوحش من تكسير العلم إكثاراً له لا سيما وفيه الألف والنون اللتان بإزائهما فعلان الذي لا يجوز فيه فعالين نحو سكران وغضبان.

(١) العلباء عصب في عنق البعير يلزم به مقبض السيف العلابة وجمعه علاب ويقصر على علب بكسر ما بعد باء التصغير وهو الباء لانه أكثر من ثلاثة أحرف وليست الهمزة التأنيث كالف حمراء وإنما هي للالحاق واذا كسرت الباء لم يبق حاجة الى الالف الزائدة لما تتمتها فتحذف وتقلب الهمزة واصلها الف ياء لمناسبة الكسرة قبلها فتصير عليبي وبعد قلب الهمزة ياء تحذف بحذفها فتجتمع ياء وتنوين وكلاهما ساكن فتحذف الياء للاعلال كياء قاضٍ تقدير عليب

(٢) الخصائص ص ٤٢٥ (٣) القرطان: النوب البيز والقاهية

ومما يروى من أخباره مع غير الاعراب أنه كان يوماً في زيزب [١] مع الرضي والمرتضى العلويين وكان علي بن عيسى الربعي يمشي حينئذ على شاطىء النهر فلما رآهم قال للعلويين : من أعجب أحوال الشريفين أن يكون عثمان جالساً معهما في الزيزب وعلي يمشي على الشط بعيداً منهما : وعلي هذا من أئمة النحو الممتازين بجودة الفهم والنظر واقتياس أخذ عن السيرافي ولازم الفارسي شيخ ابن جني عشر سنين حتى قال له شيخه : ما بقي شيء تحتاج اليه ولو سرت من المشرق الى المغرب لم تجد أعرف منك بالنحو : غير أنه كان مبتلى بشيء من الجنون ولك حوادث غريبة فليس بكثير أن يقول للشريفين مثل هذا المقال في ابن جني

ومنها أنه زار يوماً أبا اسحاق الصابي في ديوان الانشاء وكان بين يديه كاتب من المعروفين بالنحو واللغة والأدب في أيام عضد الدولة وابنه صمصام الدولة اسمه أبو الحسين اسماعيل بن محمد التميمي وأخذ ابن جني يتحدث مع ابي اسحاق تارة ومع حفيده — وكان حاضراً إذا اشتغل أبو اسحاق — تارة أخرى وكانت لابن جني عادة في حديثه أن يميل بشفته السفلى ويشير بيده فبقي أبو الحسين التميمي ساخطاً بسره يتعجب منه فقال له ابن جني : ما بك يا أبا الحسين تحدق اليّ النظر وتكثر مني التعجب ! : قال شيء طريف : قال : ما هو ؟ : قال : شبهتُ مولاي الشيخ وهو يتحدث ويقول بيوزه [٢] كذا وبيده كذا بقرد رأيته اليوم عند صعودي الى دار المملكة وهو على شاطىء دجلة يفعل مثل ما يفعل مولاي الشيخ : فامتعض أبو الفتح وقال : ما هذا القول يا أبا الحسين — أعزك الله — ومتى رأيتني أبرحُ فتمزحَ معي أو أجنُ فتمجنَ بي ! : فلما رآه أبو الحسين قد حرد [٣] واستفاظ [٣] وغضب قال : المعذرة أيها الشيخ اليك والى الله تعالى عن أن اشبهك بالقرد وإنما شبهتُ القرد بك : فضحك أبو الفتح وقال : ما أحسن ما اعتذرت ! : وعلم أبو الفتح أنها نادرة تفيض فكان يتحدث بها هو داعماً . إن صحت هذه القصة دلت على أن أبا الحسين هذا كان من الجبان المستهترين وقد ذكرتها لما فيها من بيان عادة لابن جني .

وقيل ان ابن جني كان متهماً بإحدى عينيه فلذلك قال في صديق له :

صدودك عني ولا ذنب لي دليل على نية فاسده
فقد وجناتك مما بكيتُ خفيت على عيني الواحده
ولولا مخافةُ ألاّ أراكِ لما كان في تركها فائده

وقيل إنه لم يكن متهماً بإحدى عينيه وإن هذه الأبيات ليست له إنما هي لأبي منصور الديلمي

(١) الزيزب ضرب من السفن (٢) البوز ثم الخنزير (٣) حرد غضب وتأفف (٣) استفاظ القرب غضب

وكان ابن جني مع غزارة علمه ومهارته فيه شاعراً جيّد الشعر ناثراً جيّد النثر. فمن جيد شعره قوله:

غزالٌ غيرُ وحشيّ حكى الوحشيَّ مقلتُه
رآه الوردُ يجني الورْ دَ فاستكساه حُلّتُه
وشمّ بأنفه الريحا نَ فاستهداه زهرتَه
وذاقت ريحه الصهبا[1] فاختلسته[2] نكهتُه[3]

ومنه مرثيته للمتنبي ومنها.

قاض القريض وأذوت نضرة الأدب وصوحت[4] بعد ري دوحة الأدب
عليتَ ثوب بهاء كنت تلبسه كما تخطّفُ بالخطّية السَّلَبُ
ما زلت تصعب في الجلى اذا انصعبت قلباً جميماً[5] وهو ماغير منصعب[6]

ومنه

ومنه تحبّبْ أو تذرّع أو تأبّ فلا والله لا أزداد حبّا
أخذت ببعض حبك كل قلبي فان رمت المزيد فهات قلبا

ومن جيد نثره خطبة نكاح طويلة منها:

الحمد لله فاطر السماء والأرض، ومالك الابرام والنقض، ذي العزة والعلاء، والعظمة والكبرياء، مبتدع الخلق على غير مثال، والمعبود بحقيقته في كل حال، الذي ملأت حكمته القلوب نوراً، فاستودع علمَ الاحياء كتاباً مسطوراً: وكل الخطبة على هذا النسق وأمثال هذا الاسلوب البليغ كثيرة جدًّا في مصنفاته العلمية.

ولابن جني مصنفات كثيرة كلها جيد بالغ الحدّ في الجودة. وقد ذكر هو بعضها في إجازة بروايتها فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم: قد أجزت للشيخ أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن نصر — أدام الله عزه — أن يروي عنّي مصنفاتي وكتبي مما صححه وضبطه عليه أبو أحمد عبد السلام ابن الحسين البصري — أيّد الله عزه — عنه منها:

١ — كتابي الموسوم بالخصائص وهو ١٠٠٠ ورقة (وقد طبع الجزء الأول منه في مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة (١٣٣١ هـ) وسنة (١٩١٣ م). قال الإمام السيوطي في خطبة كتابه (الاقتراح في علم أصول النحو) ما يأتي:

واعلم أني استمددت في هذا الكتاب كثيراً من كتاب الخصائص لابن جني فانه وضعه

(١) الصهباء اسم من أسماء الخمر (٢) اختلست اختطفته (٣) نكهته رائحته وهي بدل من ضمير اختلسته (٤) صوحت يبس فنانها (٥) قلبا جميعا غير متفرق نزعا (٦) غير منتصب غير منتدع قوي

في هذا المعنى وسماه « أصول النحو » لكن أكثره خارج عن هذا المعنى وليس مرتباً وفيه الغث والسمين والاستطرادات فلخصت منه جميع ما يتعلق بهذا المعنى بأوجز عبارة وأرشقها وأوضحها معزواً اليه : ص ٢ الاقتراح .

٢ — كتاب التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري رحمه الله وهو ٥٠٠ ورقة ذكره في ص ١٥٦ من الخصائص .

٣ — كتابي سر الصناعة وهو ٦٠٠ ورقة ( في دار الكتب منه نسخ منها نسخة برقم ١٦ ش لغة ونسخة برقم ١٢٠ لغة ) .

٤ — كتابي في تفسير تصريف أبي عثمان بكر بن محمد بن بقية المازني وهو ٥٠٠ ورقة ( منه نسخة بمكتبة الشنقيطي ٢ ش صرف وأخرى في مكتبة تيمور ) .

٥ — كتابي في شرح مستغلق أبيات الحماسة واستغلاق أسماء شعرائها وهو ٥٠٠ ورقة ( ولعله التنبيه في شرح مشكلات أبيات الحماسة وهو في دار الكتب رقم ٤٤ أدب والتنبيه في إعراب الحماسة

٦ — كتابي في شرح المقصور والممدود ليعقوب بن إسحاق السكيت وهو ٤٠٠ ورقة

٧ — كتابي تعاقب العربية وأطرق به وهو ٢٠٠ ورقة

٨ — » تفسير ديوان المتنبي الكبير وهو ١٠٠٠ ورقة ونيف .

٩ — » تفسير معاني هذا الديوان وهو ١٥٠ ورقة .

١٠ — » اللمع في العربية .

١١ — » مختصر التصريف على اجتماعه ( وهو بدار الكتب برقمي ١٨١ و ٢٢٠ صرف ولعله التصريف الملوكي المطبوع بمطبعة شركة التمدن بمصر

١٢ — » مختصر القوافي .

١٣ — كتاب الألفاظ المهموزة

١٤ — كتابي في اسم المفعول المعتل العين من اللائي على إعرابه في معناه وهو المقتضب من كلام العرب . ( وقد طبع في ليبزج سنة ١٩٠٤ وهو في دار الكتب برقم ٢٢٦ صرف )

١٥ — وما بدأت بعمله من كتاب تفسير المذكر والمؤنث ليعقوب أيضاً أعان الله على إتمامه

١٦ — وكتاب ما خرج مني من تأييد التذكرة من القبيح أبي علي — أدام الله ستره

١٧ — كتاب في الخاطر في العربية وإذكان ما جرى أزال يبدي عنه حتى شذ مني وهو ٦٠٠ ورقة .

١٨ — كتاب النوادر المشتمة في العربية زهاء ١٠٠٠ ورقة وقد سلف أيضاً عني ذكر وقعا كلاما أو شيء منهما غير لاحق بما أجوت روايته هنا

١٩ — وكتاب ما أحضرنيه الخاطر من المسائل المنثورة مما أملاته أو حصل في آخر تعاليقي عن نفسي وغير ذلك مما هذه ماله وصورته .

فليرو — أدام الله عزه — ذلك عني أجمع إذا أصبح عنده وآنس بتلقينه وتسديده وما صح عنده — أيده الله — وقرأته عليهم بالعراق والموصل والشام وغير هذه البلاد التي أتيتها وأقمت بها مباركاً له فيه منفوعاً به بإذن الله .

وله غير ما ورد في هذه الإجازة من الكتب ما يأتي :

٢٠ — المحتسب في تعليل شواذ القراءات ( وهو كتاب منجم جيد جداً في دار الكتب منه نسخه برقم ٧٨ قراءات )

٢١ — شرح ديوان المتنبي الصغير ( ومنه نسخة في دار الكتب برقم ٢٣ أدب ) .

٢٢ — مفردات القراء السبعة ( في دار الكتب بعنوان ١٠ م قراءات )

٢٣ — المبهج في تفسير حماسة الخالدين ( في دار الكتب برقم ٧٢١٠ و ٧٣٢١ أدب .

٢٤ — المغرب في تفسير قوافي أبي الحسن (ذكره في الخصائص ص ٨٦ )

٢٥ — كتاب في الزجر ذكر فيه كثيراً من الأفعال المشتقة من أسماء الأصوات التي يصوت بها للبهائم — ذكره في صفحتي ٤٣٨ و٤٣٩ من الخصائص المطبوعة .

٢٦ — الفرق — ٢٧ المعاني المحررة — ٢٨ — الفائق — ٢٩ مختار الأراجيز — ٣٠ — شرح الفصيح — ٣١ العافي في القوافي — ٣٢ — المهذب — ٣٣ — التبصرة — ٣٤ — علل التثنية — ٣٥ التلقين في النحو — ٣٦ — المفيد في النحو — ٣٧ — المسائل الخاطريات — ٣٨ — المسائل الواسطية التي أملاها في واسط — ٣٩ — التذكرة الأصبهانية — ٤٠ — تفسير أرجوزة أبي نواس — ٤١ — تفسير العلويات وهي أربع قصائد للشريف الرضي — ٤٢ — رسالة في مدد الأصوات ومقاديرها — ٤٣ — النقض على ابن وكيع في شرح المتنبي وتخطئته — ٤٤ — الوقف والابتداء — ٤٥ — الفصل بين الكلام الخاص والكلام العام — ٤٦ — التصريف الملوكي المطبوع بمطبعة شركة التمدن الصناعية بالفريبة بمصر حوالي سنة ١٩١٣ فيما أظن ولعله السابق ذكره بعنوان ( مختصر التصريف على اجماعه )

عبد الله أمين

# لحن الخلود

ارتفعي يا نفسي فوق نفسك
فها هي تجربة إيمانك
فلا تجعلي الزنديق يقول في محنتك الأخيرة « إنها ترتعد مثلنا »
فها هي الساعة التي تحاكم الحياة وتعلن الخلود !

* * *

نعم إنك ستموتين
ولسوف يطبق التراب تابوته القاسي على رمتك
وعندئذ لن تعمري بثقل الرحل الذي كان يدنسك
لأن الاحساس بوطأة هذا الرحل القذر كان معناه الحياة !

* * *

ماذا كانت حياتك . . . . ؟
منقى ضجر وعذاب
وضحية الأمل
كانت ترنيمة إيمان طويلة تُتلى كل يوم
وحين كان المعتوه يصب من كأسه المترعة
كنت تكبين قدحك على قدميك مغضبة
وتصرخين قائلة « إنني ظمأى . . . ولكن للخلود »
لا تحزني فستشربين من النبع الخالد
الذي نيل منه الأحقاب والدهور
ذلك المحيط بلا صخب ولا شاطئ
الملوء دائماً . . الزاخر ابداً

* * *

سوف ترين المحافل السماوية
وهي تمهد ذلك الفضاء اللانهائي
كغبار تحركه نفحة إلاهية

اما النفوس الخاوية
التي كانت جفونك تقتنأ بنورها البعيد
فستتفتّح أمام عينيك
وستحييك كل واحدة منها وهي مارة بك
بالاسم العظيم الذي تهزجه السموات كلها . . .

* * *

في هذا المحيط النقي من المياة
الزاخر بالسعادة والحب
سيدفعك الموت
ثم يذهب بك مدّه
وانت ما زلت مظلمة . . . الى الفجر المرمدي
حيث الكوكب الساطع ابداً

* * *

ألا ترين في الظلام قول الشر المتموّج ؟
أوَلا تسمعين اصطفاق أجنحة الروح التي سوف تتلقاك ؟
بعد هنيهة ستسبحين من غيمة الى أخرى
وستحسّين نفسك مكسوةً بشعاع مقامك الاطهر
كوردية تتبختر مُنْتشيةً وهي منجذبة نحو الفجر
عن دفء اليوم الذي سيولد وضيائه . . .

* * *

ضاعة أخرى من الالم
ووداع آخر لاعج
ثم تهجعين آملة لتستيقظي في إلآهك
كالبحّار المعتمد على نجمه
يطوي شراعه وقد أحسّ البابسة دون انظارها
فينام وهو يحلم بالضفاف
ثم يستيقظ فيجد نفسه على
شطآن أكثر صفاء مما كان يصبو . . .

# أنيوشا

## لانطون تشيكوف

في حجرة هبط إيجارها إلى الحدّ الأدنى في بناء أعدّ لإيجار غرفة مؤثثة ، كان ستيان كولتفكوف ، وهو طالب طب في السنة الثالثة يذرع أرض الحجرة رواحاً وجيئة ليستذكر دروسه في علم التشريح في حماس . وقد جفّ فمه وتندّى جبينه بالعرق لجهده المتواصل في استظهار الدروس .

وعند نافذة غشاها الجليد ، جلست أنيوشا ، الفتاة التي تعايشه ، على مقعد ، نحيلة الجسم ضامرة ، وقد بلغت الحادية والعشرين من عمرها ، شاحبة فاض دم وجهها ، ولها عينان وسنانتان دعجاوان ، جلست منحنية على قطعة رمل مشغلة بتطريز بليقته بخيوط حمر . . . تجالد الحياة ... أعلنت الساعة التي في الممر الثانية ، في تراخ ، ولما تعد الحجرة الصغيرة أو يصلح من هأنهما منذ الصباح . فلابس النوم ملقاة في غير نظام والوسائد والكتب والثياب مبعثرة هنا وهناك ، والدلو المعد للقاذورات قد امتلأ بماء الصابون فيه تسبح أعقاب لفائف التبغ ، والمجرفة ملقاة على أرض الحجرة — كل هذه الأشياء بدت كأنها قد اختلط بعضها بالبعض الآخر قصداً في اضطراب واحد ...

تتركب الرئة اليمنى من ثلاثة أجزاء — « ردد كولتفكوف » — حدودها الجزء العلوي على الجدار الأمامي للقفص الصدري ويمتد حتى يصل الضلع الرابع أو الخامس على السطح الخلفي ، والضلع الرابع ... يمتد الى خلف حتى النتوء الشوكي .

شخص كولتفكوف بصره الى سقف الحجرة وهو يحاول أن يتمثل أمام ناظريه ما قد فرغ من قراءته . ولما لم يعد قادراً على تكوين صورة واضحة له بدأ يتحسس أضلعه العليا من خلال صدريه وقال :

إن هذه الأضلع تشبه مفاتيح المعزف ( البيانو ) يجب أن يتعرّفها الإنسان جيداً بأية

حال من الأحوال وإنما اختلط عليه أمرها يجب على الطالب استذكارها على الهيكل العظمي والجسم الحي ... إني أريد أن أنيوشا ذهبي أميزها الواحدة عن الأخرى ، فرمت أنيوشا ما تخيطه وخلعت عنها البلوزة وقومت مو شأن جسمها ، وجاس كولتشكوف إليها وجهاً لوجه مقلب الجبين وبدأ يعد أضلعها .

هم ! ... ليس من المستطاع أن تتحسس الضلع الأول فهو يقع خلف لوح الكتف .. وهذا يجب أن يكون الضلع الثاني ... نعم ... وهذا هو الثالث ... وهذا هو الرابع .

هم ! ... نعم ... لماذا ترتعدين ؟

إن أصابعك باردة .

هيا هيا ... فلن تقتلك أصابعي . لا تركي جسمك . وهذا لابد أن يكون الضلع الثالث . وحينئذٍ ... يكون هذا الرابع ... إن جسمك يبدو كثير العظام ومع هذا فإن من العسير العثور على أضلاعك . ذلك الضلع الثاني .. وذلك الثالث ... أوه إن هذا يدعو الى الارتباك ولا يمكنني أن أتبينه جليًّا ... يجب أن أحدده فأين القلم الرصاص ؟

أولاً ذلك يمتد في خط مستقيم لا ينحني ولا يلتوي ... حسناً الآن يمكنني أن أخمنك في ! فرفعت أنيوشا ورفعت ذقنها الى أعلا وبدأ كولتشكوف يفحصها . ولقد كان منهمكاً في عمله الى حدٍّ لم يلحظ فيه كيف أصبحت هفتا أنيوشا وأصابعها زرقاً من البرد . ارتعشت أنيوشا وخشيت أن يلحظ الطالب هذا فيترك التحديد بالقلم الرصاص على صدرها وفحص جسمها . وحينئذٍ تكون الطامة فشله في الامتحان .

لقد أصبح كل شيء الآن واضحاً هكذا قال كولتشكوف عندما أنجز مهمته . ثم قال اجلسي على هذه الحال ولا تزيلي أثر القلم الرصاص فإني في أثناء ذلك أستوضح أكثر مما أستذكر ، بدأ الطالب ثانية يذرع أرض الحجرة روحةً وجيئةً ، وهو يكرر ما وعى في نفسه وقد بدت الخطوط السود على صدر أنيوشا وكأنها الوشم وقد جلست مفكرة مهملة الأوصال ترتعش من البرد وكان من عادتها ألا تسرف في الحديث ، فهي دائماً صموت مستغرقة في تفكيرها .

وفي السنوات الست أو السبع التي قضتها متنقلة من غرفة مفروشة الى أخرى ، عرفت

خمسة طلاب من طراز كولنفكوف « والآن وقد أتموا دراستهم جميعاً فقد انطلقوا في رحاب الحياة ، يسعون في مناكبها . وهم كغيرهم ممن هم جديرون بالاحترام ، فقدناهم منذ زمن طويل .

كان أحدهم يقيم في باريس واثنان امتهنا الطب وغدا الرابع قنانياً. أما الخامس فقد تراءت الأقوال على أنه أصبح أستاذاً في الجامعة ... وكان كولنفكوف صادسهم ... ومرحان ما يتم هو الآخر دراسته ويضرب في هماب الأرض . كان مستقبلاً جميلاً ينتظره لامراء ، وقد يغدو كولنفكوف رجلاً بارزاً . ولكن حاضره لم يكن براقاً . لم يكن لدى كولنفكوف نبذاً ولا هايا ولم يبق له سوى أربع قطع من السكر ويجب على أنيورها أن تسرع وتنجز التطريز الذي بيدها وتحمله الى المرأة التي قد أوصت بعمله وتشتري هايا وتبغاً بربع الروبل الذي ستتقاضاه أجراً عليه.

سأل سائل بالباب هل يمكنني الدخول ؟

ألقت أنيورها في سرعة هالاً صوفياً على كتفيها ودخل فستوف الفنان المحترة وبدأ حديثه مخاطباً كولنفكوف : لقد جئتك لتسدي إليّ صنيعاً ، قال كوهن ضار وهو يحملق من تحت غدائر شعره الطويلة المنهدلة على حاجبيه . إصنع جميلاً وأعرني فتاتك لبضع ساعات! إني أرسم صورة وكما ترى لا يمكنني الاستمرار فيها دون أنموذج .

نزل كولنفكوف عند إرادته وقال : أوه . بكل سرور . انطلق معه يا أنيورها . فهمت انيورها في هدوء ورقة ! ما الأشياء التي ينبغي أن أقوم بها هناك ؟ هراء ! إن الرجل يرجوك خدمة الفن وليس من أجل أمر تافه آخر فلماذا لا تعدين له يد المساعدة ؟ ما دام ذلك في استطاعتك ؟

بدأت أنيورها ترتدي ملابسها .

سأل كولنفكوف « وماذا ترسم ؟ »

إن صبكي « موضوع جميل ولكن لا يمكن الاستمرار فيه بحال إذ يجب عليّ أن أرسم من نماذج مختلفة ، فبالأمس كنت أرسم فتاة ساقاها زرقاوان فسألتها لماذا ساقاك زرقاوان ؟

فأجابت « إن جواربي قد صبغت ساقي باللون الأزرق ولا زلت أنت يا كولنفكوف

كيف تكدح . فيالك من فتى حسن الحظ أوتيت الصبر والمثابرة !! »

إن الطب عمل لا يمكن الإنسان الاستمرار فيه دون هذا الكدح .

هم .... اصفح عني يا كولنكوف إذا قلت لك إنك تعيش كالخنزير وتحيا حياة كريهة ماذا تعني ؟ لا مهرب لي من هذه الحال — .... فإني أحصل على اثنى عشر روبيل من أبي في الشهر ومن العسير أن يعيش الإنسان عيشة محترمة بمثل هذا المبلغ .

فقال الفنان « نعم ... نعم » وهو يقطب حاجبيه متحمساً مهتزاً ، « ولكن مع هذا يجب عليك أن تحيا حياة أحسن . فإن الرجل المثقف يجب أن يكون ذواقة . أليس من الواجب أن يكون كذلك ؟ والسماوات تعرف ماذا تعنيه الحال هنا ! فالفراش الزري والماء القذر والاوساخ .... وعميدة الأمس لا زالت في الأطباق ... اتدو .

قال الطالب في اضطراب ... « هذا حق ولكن لم يكن لدى أنيرها الوقت الكافي لترتيب شئون الحجرة . فقد كانت مشغولة طوال الوقت .

ولما غادرت أنيرها والفنان الحجرة إرتمى كولنكوف على الأريكة وأخذ يستذكر دروسه وهو مستلق في الفراش وفجأة استغرق في نوم عميق . فلما استيقظ من نومه بعد ساعة أسند رأسه براحتيه وغرق في تفكير مظلم عميق ، وتذكر كلام الفنان بأن الرجل المثقف يجب أن يكون ذواقة ، وقد صدمته البيئة التي يعيش فيها . وأحس أنها كريهة تمافها النفس وتدعو للتمرد والعصيان ، ورأى وكأنه يبصر مستقبله بعقله لا بعينيه عندما يقابل مرضاه في غرفة « الكشف » ويتناول الشاي برفقة زوجه وهي سيدة محترمة في غرفة الطعام الرحبة . أما الآن فالدور المعد للقاذورات حيث تسبح أعقاب اللفائف التبغ ، وتبدو كريهة لحد لا يتصوره العقل ومرت أنيرها أيضاً بخياله وهي فتاة بسيطة دمثة تستدعي حماية العفة .. فعقد العزم على ان يفترق عنها حالاً مهما كلفه هذا من مشقة وثمن .

فلما عادت من منزل الفنان وخلعت معطفها استقام واقفاً وقال لها في لهجة الجد .

أعيريني سمعك يا فتاتي الطيبة ، اجلسي واصغي ، يجب أن نفترق ! فإن الحقيقة أني زهدت في الحياة معك .

كانت أنيرها قد عادت من عند الفنان محملة منهوكة القوى فزل وتوثبها فوذجاً وفتاً

طويلاً جعل وجهها يبدو وقيقاً بارز العظام غائر العينين ، وأن ذقنها قد دقت واستدقت فلم تجب على كلمة مما فاه به الطالب ولكن بدأت شفتاها ترتعشان .

وقال الطالب أنت تعرفين أننا سوف نفترق إن عاجلاً أو آجلاً بأية حال من الأحوال أنت فتاة فريدة المعشر طيبة القلب ولست حمقاء وسوف تتفهمين ما أقول .

إرتدت أنيوها معطفها ثانيـة في صمت ولفت شعل الابرة في الورق وجمعت في حزمة الإبر والخيوط ووجدت قصاصة الورق وبها قطع السكر الأربع في النافذة فوضعتها على النضد بجوار الكتب .

وقالت في رقة « أفكرك ، هـذا هو .... وأدارت وجهها لتخفي دموعاً ترقرقت في مآقيها .

فسألها كولنفكوف : لماذا تبكين ؟

ثم تجول في الحجرة في اضطراب وحيرة وقال :

أنك فتاة غريبة الأطوار حقاً .... لماذا هـذا وأنت تعرفين أننا لا بدَّ وأن نفترق فلا يمكن أن نبقى معاً إلى الأبد .

جمعت كل ما تعلق بها وامتدارت لتودع كولنفكوف فأحسَّ بالأسف والأسى لفراقها .

وتفكر الأمر مـائلاً نفسه « هل أدعها تبقى أسبوعاً آخر ؟ فلا غضاضة عليَّ من بقائها وسوف آمرها بالرحيل في غضون أسبوع » فتضايق من ضعفه فصاح بها في خشونة وجفاء .

عودي لماذا تقفين هنالك ؟ إذا كنت مزمعة الرحيل فهيا وإذا كنت راغبة عنه فاخلعي عنك معطفك وأمكثي ! إذ يمكنك المكث !

لفت أنيوها عنها معطفها خلسة وفي صمت ثم تخطت خفيـة أيضاً وتنهدت وعادت دون حركة إلى مكانها الذي لا يتغير على مقعدها بجوار النافذة .

جذب الطالب إليه الكتاب المقرر وبدأ يقطع أرض الحجرة ثانيـة من ركن إلى ركن وردد قائلاً : تترك الرئة اليمنى من ثلاثة أجزاء — الجزء العلوي على الجـدار الأمامي للقفص الصدري ، ويصل حتى الضلع الرابع أو الخامس ....

وفي المر صاح شخص بأعلى صوته : امدد الصـنور ياجريجوري !

سليم الاسبرطي

# الأمل الخالد

دنا الليل واجتاحت فؤادي المظاهرُ ... وهزني الشوق القديم المساور

تراجعني الذكرى وجفنيَ مسهدٌ ... وتعرض لي الأحلام والطرف ساهر !

دعا في الصبا داعي الهوى فأجابه ... فؤادٌ غريرٌ يرهف الحسَّ حائرُ

ولست لما يجتاح قلبي بمنكرٍ ... وكيف يدارَى الحبُّ والحب قاهرُ !

تفجر قلبي أدمعاً فتفضحته ... وكم يفضح الدمع الهوى ويجاهر !

تموتُ بروحي العلا ، فسما بها ... غرامٌ نقي الأصل والفرع طاهر

ولولا الهوى لم يذرف الورد دمعةً ... ولا مالت الأغصان أو ناح طائر

ولولا الهوى ما أرسل الريم شجوه ... ورجعَ هادٍ أو ترنم شاعر !

لي الله ! ماذا أنت ( يادهر ) صانعٌ ... بقلبي ! وماذا خبأت لي المقادر !

أراني غريقاً في خضمٍّ شطوطه ... على أبعد الآفاق والموج ثائرُ

أرى مهجةً حيرى ونفساً حزينة ... وقلباً كسيراً حطمته الأعاصر

أهيم على وجهي النهار بطوله ... وتنتابني الأشجان والليل ساكر

رأى الدهر أني مطلق النفس حرُّها ... فقيدها بالحب والحب آسر !

شقيت بحبي دون أن أبلغ المنى ... أما لعذابي فيه يا رب آخر ؟ !

ويا ليتني أقضي فأبلغ راحةً ... وكأس الردى حتمٌ على الناس دائر

فكم من حياة أسعد الموتُ أهلها ... وكم من هموم بددتها المقابرُ

وأعلم أني بعد موتيَ في غدٍ ... لأهل الهوى ذكرٌ وان عزَّ ذاكر !

كلية اللوم — عفيفي محمد عفيفي

# نظرة في شعر المنشئين

## والعلماء

### تنبيه على وهم وسوء حكم

جاء في الأقوال العربية المأثورة : « من أكثر من شيء عرف به » وهي نظرية أيد الاختبار صحتها وينبغي أن تتلوها هذه « ومن عُرف بشيء فقد جانبا كبيراً من حقه في شيء آخر يحسنه » وكلتا النظريتين تنطبقان انطباقاً عجيباً على المنشئين والعلماء في لغتنا العربية قديماً وحديثاً .

مما لا شك فيه ان المنشئين الذين يقضون معظم أوقاتهم ويبذلون معظم جهودهم في تدبيج مقالات وخطب ومحاضرات ومباحث ومواعظ قلما يتفرغون لغير هذا الميدان من السعي والعمل . وفي جملة الميادين التي يفنونها ميدان الشعر ، وان العلماء الذين يقضون همهم وثمرات أذهانهم على التصنيف والتأليف والتحقيق والتدقيق والتدريس والارشاد قلما يلتفتون الى الشعر لقلة ما يبقى لديهم من فضلة وقت وفضلة جلد على مزاولته . ولكن ليس معنى ذلك — خلافاً لما يتوهمه العامة وفريق كبير من الخاصة — انه ليس من شاعر مطبوع ملهم بين هؤلاء المنشئين وهؤلاء العلماء . فهو استنتاج مخطىء ملؤه المبالغة والشطط . فكثيراً ما يوجد بين هؤلاء الفضلاء من رجال القلم أولو شاعرية صحيحة مدهشة كما قد يوجد بينهم أصحاب مواهب سامية في سياسة أو ادارة أو صناعة أو تجارة أو غير ذلك ولكن ناحية الانشاء والتحقيق العلمي عندهم طغت على غيرها من النواحي فأصبح يظن الفاضل الذي يتعجل الحكم ويرضى به معتسفاً سطحياً ان سائر تلك النواحي معدومة فيهم . واما المنصف المتأمل فلا يجهل أن تلك النواحي عندهم ذات حيوية وكيان محسوس وان حجبتها ناحيتهم الواسع نطاقها في الانشاء والعالمة .

قد يكون هذا المنشىء أو هذا العالم شاعراً مجيداً في أوائل نشأته الأدبية . ثم تخصص بالانشاء أو بتحقيقات علمية في ما لا يبعد عن الشعر والانشاء ولديه بذلك قواعد العربية وأحكامها وفنون بيانها وما يكتنف هذه الألوان من تعليلات وتخريجات . فهل من المعقول أن يفقده طوره الجديد في صناعة العلم مزيته الأولى الأصلية في الشعر ؟ هيهات هيهات .

ولكن من المعقول المنتظر حدوثه ان يزداد شعره متانةً ورونقاً وتتسع آفاقه في ذهنه بفضل ما أفضى اليه اجتهاده من غزارة عرفان وسداد رأي . ان شعره بالصراف قلبه الى سبدان جديد قد فلّ كثيراً في كميته ولكنه زاد قليلاً أو كثيراً في قيمته.

ان غرور المرء بنفسه قد يجد له سبيلاً الى كل فرد وكل جماعة على تفاوت في درجاته وتفاوت العواري، والعوامل من مكان وزمان وبيئة . ولكن حظ هذا الغرور من نفوس العلماء ونفوس المنشئين الفضلاء هو حظ ضئيل ضعيف الخطر بالنسبة الى حظه من نفوس غيرهم من البشر . لأن للعلماء والمنشئين من حذقهم ولضوج مداركهم عاصماً لهم من الغرور والانخداع في أكثر أحوالهم ولا أقول فيها كلها . فان العصمة المطلقة هي لله وحده عز وجل . وبناءً على ذلك نرى في تاريخ أدبنا العربي ان جماعة من أولي العلم وأئمة الانشاء المنثور لم يتطلعوا الى الشعر ولم يفكروا في نظمه لانهم لم يألفوا من أنفسهم مقدرة عليه واضطلاعاً بجيده فعدلوا عنه ضنًّا بعقابهم ومحتهم ولو غلبهم فيه الغرور لراولوه وأتوا به متوسطاً وان الحط عن درجة التوسط كان على كل حال أقل رداءة وتفاهة من شعر جمهور عظيم مولعين بوصال الشعر وهو غير مولع بوصالهم ولا بأن يلمح لهم وجهاً ... ومن الأعلام الأفاضل الذين تكسوا طريق الشعر لشعورهم بابتعاد غرائزهم عنه الجاحظ وابن المقفع وسيبويه والكسائي والسيرافي والأشعري والقاضي الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والفارابي وابن رشد وابو الفداء وأبو حنيفة ومالك بن أنس وابن حنبل وجمال الدين الافغاني وطاهر الجزائري والشيخ محمد عبده ويعقوب صروف وفارس نمر وجرجي زيدان واسماعيل عاصم وكثيرون غيرهم يتعذر احصاؤهم .

وهؤلاء أعلام من جهابذة القول أحسوا بأن لهم من الشاعرية نصيباً ولكنه نصيب صغير لا يلائم مكانتهم العلمية فتنكبوا عنه هيناً يسيراً على سبيل التجريب . ثم أمسكوا عنه . ومن هذه الفئة الخليل بن احمد الفراهيدي واضع علم العروض وعبد الملك الأصمعي العلامة الراوية المشهور .

* * *

وقد يتفق ان فاضلاً من أرباب الاقلام تتوق نفسه الى قول الشعر وهو يحس من نفسه ان ملكته فيه ضعيفة وانه عاجز عن نظم ساطع ناجع ولكنه يشتهي أن يشيع منه نبهته فينظم منه الشيء اليسير لأجل نفسه وارضاء نفسه فلا ينشره ولا يذيعه بين الناس ولكنه ينشده في خلواته مستطلاً به راضياً عنه غير نافر منه لأنه خير ترجمان لوجدانه على طريقة ذوقه فيتذوقها وتشفي حزازة من صدره وان أنكره العلم والفن ، هذه الطريقة

وأمثال هذا الفاضل يعذرون ولا يقام عليهم النكير في ما يفعلون . وما أشبه الواحد منهم برجل يحب الغناء وهو ليس بذي صوت رخيم ولا يعرف من أصول الغناء وشروطه شيئاً يستحق الذكر . ولكنه يريد أن يطرب نفسه وينعش مقدار ما لحنجرته من قوة وفن فلا يكاد يصل الى مكان مقفر أو فلاة واسعة تضمه على انفراد حتى يرفع عقيرته ويتغنى وينشد ويرتل راتعاً متمتعاً بنوع يختص به من الطرب كيفما شاء وبقدر ما يشاء .

* * *

ولنعد الآن الى ما كنا فيه من حكم الناس قاطبة على ضعف شاعرية فلان أو فلان من الناس وهما من ذوي النصيب العظيم في الشعر . ولكن الناس لم يوازنوا بينهما هذه الموازنة أو تناسوها لأن الرجلين أصبحا مشهورين في زمرة العلماء والمنشئين . جاءني يوماً صديق له فطنة ونظرات دقيقة وليس هو من الأدباء ولكنه يتذوق الأدب ويرفع قدره ويقدر أصحابه . قال لي ذلك الصديق :

— لا شك انك تعرف فلاناً .

— كل المعرفة ، ما شأنك معه ؟ .

— اخبرني عن رأيك فيه .

— انه من الممتازين من رجال القلم في منثوره ومنظومه وخطابته ومؤلفاته النفيسة .

— اذن أنت على رأيي في انه شاعر فضلاً عن مقدرته العلمية وكتاباته الناصعة .

— نعم . لا شك عندي في انه شاعر لا من طبقة عالية وكفى ، بل من الطبقة العليا ومن أسهل الأمور اثبات رأيي بالاطلاع على ما هئت من نماذج شعره .

— ولكن حوالينا من ينكرون تفرقه في الشعر ويكتفون بالاعتراف له بمكانة عالية في اللغة وأصولها وآدابها ونوادرها وشواردها .

فتبسم محدثي وقال : — وأزيدك علماً أن الناس لم يكونوا يحكمون له إلا بقوة الشاعرية وحدها وهو في أوائل نشأته ثم لما ظهرت مقدرته في كتابات مختلفة قال فيه بعضهم إنه كاتب خير منه شاعراً . وقال آخرون إنه كاتب لا شاعر . ثم لما انصرف الرجل الى التصنيف والتحقيقات اللغوية والأدبية قالوا إنه أستاذ أو انه عالم وسلخوا عنه الشاعرية وكادوا يسلخون عنه أيضاً ما عهدوه فيه مراراً من مقدرة كتابية في الأخلاق والاجتماع والوطنية والادارة .

— هذا هو الواقع بعينه ؛ فما الذي يدعوهم إلى هذه الأحكام الجائرة .

— الدواعي كثيرة تختلف باختلاف الأحوال فهي الحسد عند هذا . والجهل عند ذاك .

ورعونة الطبع في سرعة عند ذلك ، وتقليد اللاحقين للسابقين في آرائهم عند فريق كبير .

— أليس من علاج لهذا الجور وهذا الخطأ ؟

— إن الحسني النية من هؤلاء المخطئين الجائرة أحكامهم هم الذين لا يدفعهم حسد ولا كبرياء ولا عناد يسهل علاجهم وشفاؤهم لأول وهلة بحسن تنبيههم وباطلاعهم على انتقاد غيرهم لهم . وأمّا السيئو النية فدواؤهم يرافقهم الى قبورهم .

***

وصلنا الآن الى ما يجدر بنا إيراده من نماذج الشعر الجيد لجماعة من المنشئين والعلماء تأييداً لما نحن في صدده من أن رجال هذا السلك فيهم شعراء مطبوعون كما ان فيهم من لم يحسنوا قول الشعر ، ولم يخطر لهم على بال . وقد أجلنا النظر فاستصوبنا أن نكتفي بذكر طائفة من هؤلاء الأعلام ورواية نتف من شعرهم مرتبة أسماؤهم ترتيباً تاريخيًّا

***

( الشافعي ) هو أحد الائمة الأربعة المقدمين عند أهل السنة على سواهم أبو حنيفة ومالك بن أنس والشافعي وابن حنبل . واسم الشافعي متمماً هو ابو عبد الله محمد بن ادريس العربي المدني القرشي عرف بالشافعي نسبة الى جده جده . كان من عجائب الدهر في الذكاء والحفظ وقوة العارضة . ولد في غزة وتوفي سنة ٢٠٤ هجرية . ومن تلاميذه الامام الرابع احمد بن حنبل . اشتهر الشافعي بالتقوى والنزاهة وعزة النفس . وقد أجاد نظم الشعر وهو القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

وإنما حكم على الشعر بعدم النيل لا بحد ذاته بل بالنسبة الى كثيرين من الشعراء الذين اطلقوا شعرهم بالاسترفاد أو الترفّع أو الهجاء المقذع والافتراء . ومن شعره قوله :

علىَّ ثياب لو تباع جميعها ... بفلس لكان الفلس منهنَّ أكثرا

وفيهنَّ نفس لو تقاس بفضلها ... نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

وقوله في الاعتزاز الى تأثير الجد أي الحظ :

الجدُّ يدني كل أمر شاسع ... والجد يفتح كل باب مغلق

فاذا سمعت بأن مجدوداً حوى ... عوداً فأورق في يديه فصدق

واذا سمعت بأن محروماً أتى ... ماءً ليشربه فغاض فحقق

ومن الدليل على القضاء وكونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وقوله : خذوا بيدي هذا الغزال فانه ... رماني بسهمي مقلتيه على عمد

ولا تقتلوه انني أنا عبده وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد

* * *

(ابن السكيت) هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق المعروف بابن السكيت. وقد لقب أبوه سكيتاً لكثرة سكوته مع ما له من صلاح وتقوى وسعة علم. وقرأ ابنه عليه في أول أمره. واشتهر يعقوب بن السكيت بمعلوماته اللغوية وغزارة ما يرويه عن العرب والعلماء الذين تقدموه. ولد في دورق وهي بلدة صغيرة من أعمال خوزستان وتوفي سنة ٢٤٤ هجرية ومن شعره قوله:

اذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واستقرت وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهاً ولا أغنى بحيلته الاريب
أتاك على قنوط منه غوث يمن به اللطيف المستجيب
فكل الحادثات اذا تناهت فموصول بها فرج قريب

* * *

(أبو الفرج الاصبهاني) هو أبو الفرج علي بن الحسين الاموي ولد بأصبهان ونشأ في بغداد وتوفي سنة ٣٥٦ هجرية. وكان من فحول الادباء والمصنفين وخير مؤلفاته كتاب الاغاني الطائر الصيت وهو مؤلف ضخم يقع في واحد وعشرين جزءاً يروى له شعر حسن منه قوله مادحاً الوزير المهلبي.

ولما انتجعنا لائذين بظله أمان وما منّى ومنّ وما منّا
وردنا عليه مقترين فراشنا وردنا نداه مجدبين فأخصبنا

وكان بين الاصبهاني وبين القاضي أبي سعيد الحسن السيرافي منافسة وخصومة فهجاه الاصبهاني بقوله:

لست صدراً ولا قرأت على صدر ولا ملك البكيّ بشافي
لعن الله كل نحو وشعر وعروض يجيء من سيرافِ

* * *

(الصابىء) هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الحرّاني المعروف بالصابي لأنه كان صابئياً نسبة الى الصابئة الذين يعبدون الأجرام السماوية ويتوجون بها عبادة الخالق سبحانه وتعالى. وفي العربية صبأ فلان عن دينه أي خرج وخرج منه فالصابىء معناه أيضاً الخارج عن دينه وهو غير المعنى المقصود باسم صاحب الترجمة. وقد ولد في حران وتوفي سنة ٣٨٤

هجرية . وكان يعد في الرعيل الأول من كبار المنشئين والبلغاء . وله شعر جيد وقد حاز حظوة عظيمة لدى متبوعه الوزير المهلبي. ولما توفي الوزير اعتقل عماله وفي جملتهم الصابيء ثم أطلق سبيله وأعيد الى عمله . وفي أثناء اعتقاله نظم قصيدة يستعطف بها رؤساؤه . ومنها قوله :

يا أيها الرؤساء دعوة خادم أوقت رسائله على التعديد
أيجوز في حكم المروءة عندكم حبسي وطول تهددي ووعيدي
أنسيتم كتباً شحنت فصولها بفصول در عندكم منضود
ورسائلاً نفذت الى أطرافكم عبد الحميد بهنّ غير عميد
أنا بين اخوان لنا قد أوثقوا بسلاسل وجوامع وقيود
وموكلين بنا نذل بعزهم فكأننا لهم عبيد عبيد
والله ما سمع الأنام ولا رأوا نقداً توكّل قبلها بأسود

* * *

( الصاحب بن عبّاد ) يعد من طبقة الصابيء في البلاغة ومحاسن الانشاء ولد في الطالقان من أعمال قزوين وتوفي سنة ٣٨٥ هجرية . وكان في الدولة السلجوقية وزيراً للسلطان مؤيد الدولة ثم لأخيه السلطان ظهر الدولة . وكانت له حضرة عامرة برجال الفضل والعلم لا يقل فأنها عما عهد في مجالس أكابر الملوك والخلفاء. وقد اشتهر بالسخاء واسعاف الضعفاء وأولع بجيد الشعر وجمعه ورواية منتخبات منه . ولم يحرم شاعرية طيبة يستخدمها حيناً بعد حين . ومن شعره قوله :

رقّ الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنها خمرٌ ولا قدحٌ وكأنه قدحٌ ولا خمر

وفي جملة الذين قصدوه أبو بكر الخوارزمي فأكرمه الصاحب ولاطفه وأنعم عليه بصلات سنية ، وبعد افتراقهما هجا الخوارزمي الصاحب وتنقصه فانقلبت مودة الصاحب له الى كراهية والتحزاز . ولما توفي الخوارزمي قال فيه الصاحب :

سألت بريداً من خراسان آتياً أمات خوارزمكم قال نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الديان من كفر النعم

* * *

( ابن فارس ) هو أبو الحسن احمد بن فارس الرازي نسبة الى الري المدينة في أيامنا المعاصرة طهران وهي قاعدة ايران . توفي في سنة ٣٧٧ هجرية قرأ عليه جماعة من

رجال البلاغة بينهم بديع الزمان الهمذاني والصاحب بن عباد . وكان على قلة ماله جواداً متلافاً وهو على أصله الفارسي مولعاً بحب العرب متعصباً لهم على غيرهم وهو معدود من علمائهم المبرزين وكلما أراد النظم كان شعره جيداً رشيقاً . ومنه قوله : وفيه اشارة واضحة الى كرم طبعه واتباعه مذهب التفاؤل وحسن الظن .

وقالوا كيف حالك قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج
اذا ازدحمت هموم الصدر قلنا عسى يوماً يكون لها انفراج
نديمي هرتي ومسرور قلبي دفاتر لي ومعشوقي السراج

وأدبنا العربي فيه زوايا، وهاج نورها، مسكي عبيرها، تشتمل على هذه النفثات العلية في مبدإ التفاؤل وحسن الظن والحث على الجلد وسعة الصدر . ومنها الأبيات التي روينا ها آنفاً لابن السكيت ومطلعها:

اذا امتلأت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب

فيجدر بنا ولا سيما ناشئتنا المدرسية ان ننتبه الى هذه الزاوية الشعرية ونروي جانباً منها ونتخذها فلسفة عملية في معيشتنا وسيرتنا فتفيد ومنا وتقوي عزائمنا .

ومن شعر ابن فارس مخاطباً الكسول المتهاون في طلب العلم موبخاً له متهكماً عليه :

اذا كان يؤذيك حر المصيف وكرب الخريف وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيع فأخذك للعلم قل لي متى

وقال في صديق قاطعه ثم عاوده . وهذا القول أيضاً ينم عما ذكرناه من كرم طبعه ، ولا يتأتى نضج العقل إلا من وراء كرم الطبع :

عتبت عليه حين ساء صنيعه وآليت لا أمسيت طوع يديه
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أر خيراً منه عدت اليه

٥٥٥

(عبد العزيز) وهذا أيضاً من طبقة الصاحب والصابي . تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة من سلاطين آل بويه ثم تولى الوزارة مراراً بعد وفاته لدى أولاده وامته أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف توفي سنة ٤٠٥ هجرية ومما كتبه نظماً في مراسلاته الى الصاحب ابن عباد قوله :

سقى الله ذاك العهد عهداً من الحيا وتلك الصبايا الخرد الكعائب
تذكرت أيامي بقربك والمنى تقابلني بالعز من كل جانب

وقد لحظت عيناي من شخصك العلي ومن فرحك الغيثان أعلى المناسب
فقاضت على خدي سوابق عبرة كما أسعفت عقداً أنامل كاعب
سلامٌ على تلك المكارم والعلى تحيـة خل عن جنابك غائب
يكابد ما لو كان بالسيف ما مضى وبالبرق لم تبلغ لظاه لشارب
وما أنا بالنابي صنائعك التي كتبنَ عليَّ البرق ضربة لازب

***

(ابن سينا) هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين امام الأطباء في عصره مع تضلع من الأدب والفلسفة. أصله من بخارى وقد طاف في كثير من الأقطار وتوفي سنة ٤٢٩ هجرية وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتاباه الطبيان «القانون» و«الشفاء» وكلاهما ضخم يقع في عدة أجزاء. وقد اختصر الشفاء بكتاب آخر سماه «النجاة» ومن شعره قوله:

اجعل طعامك كل يوم مرةً واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيَّك ما استطعت فانه ماء الحياة يراق في الأرحام

وله قصيدة في وصف النفس مما يتعلق بفلسفة ما وراء المادة. يقول فيها مستعملاً الاستعارات والتلميحات:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
وصلت على كرهٍ إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنع
وهي التي قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برقٌ تألق في الحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

***

(الثعالبي) هو ابن منصور عبد الملك الثعالبي نسبة الى خياطة جلود الثعالب وعملها قيل له ذلك لأنه كان فرّاء. ولد في نيسابور وتوفي سنة ٤٣٩ هجرية كان في زمانه زعيم علوم العربية وخير مؤلفاته «يتيمة الدهر» في ثلاثة أجزاء ذكر فيها أدباء العربية وسيرهم ونماذج من شعرهم. ومن شعره يمدح الأمير أبا الفضل الميكالي:

لك في المفاخر معجزات جمة أبداً لغيرك في الورى لم يجمع
بحران: بحر في البلاغة هابه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي
ورسائل الصابي يزين علوه خط ابن مقلة ذو المحل الأرفع

كالنور أو كالبحر أو كالدر أو كالوشي في برد عليه موشّع

* * *

( ابن التلميذ ) هو أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن صاعد بن ابراهيم بن التلميذ الطبيب النصراني اشتهر بسعة علمه وسخاء كفه ومكارم أخلاقه فوق خدمته في الطب وكان رئيساً لأطباء بغداد توفي سنة ٥٦١ هجرية . وله شعر قليل وكله جيد ومنه قوله :

العلم للرجل اللبيب زيادة ونقيصة للأحمق الطيّاش
مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً ويعشي أعين الخفاش

وقوله في وجوب التواضع ، وكان على رفعة مقامه متواضعاً بغير تكلف :

اذا كنتَ محموداً فإنك مرمد عيون الورى فاكحلهمُ بالتواضع

* * *

( ابن جُبير ) : هو أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكتاني الرحالة الشهير . ولد في بلنسية من أعمال الأندلس وتوفي سنة ٦١٤ هجرية وله كتاب رحلة مشهور وانما رحلة ابن جبير . وكان عظيم المروءة والهمة يجد لذة في نفع الناس وقضاء حاجات من يقصدونه وفي ذلك يقول :

يحسب الناس بأني متعب في الشفاعات وتكليف الورى
والذي يتعبهم من ذاك لي راحة في غيرها لن أفكرا

ويحكى عنه أنه لما دخل بغداد اقتطع غصناً لضيراً من أحد بساتينها فدوى فقال فيه :

لا تغترب عن وطن واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن اذا ما فارق الأصل ذوى

وقال منذداً يضعف تدين جماعة يدّعون الفلسفة :

يا وحفة الاسلام من فرقة هاذلة أنفسها بالسّفه
قد نبذت دين الهدى خلفها وادعت الحكمة والفلسفه

* * *

( أبو بكر بن زهر ) : أشهر أبناء زهر وهم من أطباء الأندلس . ولد ونشأ في اشبيلية وامتاز في طبه وعلمه . وكان له حسّاد يشون به عند رؤسائه فلما لم ينالوا منه منالاً تناوله غدراً بسم دسوه في طعام له . وكانت وفاته سنة ٥٩٦ هجرية . ومن شعره قوله يتشوق الى ولده :

ولي واحد مثل فرخ القطا صغيرٌ تخلف قلبي لديه

نأت عنه داري فباوحشتي لذاك الشخيص وذاك الوجيه
وقد تعب الشوق ما بيننا فنحه الي ومني إليه

ونظر يوماً في مرآة وهو في أواخر عمره فرأى آثار الكبرة على وجهه فأنشد : —

اني نظرت الى المرآة اذ جُليت فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا
رأيت فيها شيخاً لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي بالامس كان هنا متى ترحل من هذا المكان متى
فاستجهلتني وقالت لي وما لطقت قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى
كانت سليمى تنادي يا أخيّ وقد صارت سليمى تنادي اليوم يا أبتا

* * *

هؤلاء جماعة من علماء العربية ومنشئيها الذين تثبت لنا منظوماتهم انهم فضلاً عما عرفوا به من ناسع منثورهم ونفائس مباحثهم ومؤلفاتهم لا يحرمون نصيباً حسناً من الشاعرية فبعضهم يحسبون من شعراء الطبقة الأولى وبعضهم الآخر يحسبون من الطبقة الثانية . ولو أردنا ان نضم الى هؤلاء الاعلام عشرة أضعافهم عدداً لامكننا ذلك بغير مشقة عظيمة ولا تفتيش طويل . ولكننا لا نرى وجهاً لهذه الافاضة ونحن الساعة ننشىء مقالة لا نصنف كتاباً .

ومما يجدر بنا الاشارة اليه في هذا المقال ان بعض المدققين من أعيان الادباء زعموا زعماً لا يخلو من صواب وحسن ذوق في بعض أحواله ومن مبالغة واستبداد حكم في بعضها الآخر . ولا يعسر على المتوسط العلم والفهم ان يميز بين الحالتين . زعموا أن بعض المفردات والمركبات التي هي فصيحة بحد ذاتها لا يليق استعمالها في الشعر حتى نعدها ألفاظاً غير شعرية ومعظم هذه الالفاظ ينحصر في عبارات اصطلاحية فنية لعلم أو فن أو صناعة أو سلك سياسي او سلك اداري والصحيح أن هذه الالفاظ يقبح وقعها اذا استعملها الشاعر مراراً في المنظومة الواحدة أو اذا استعملها ولو مرة واحدة ولكن في غير سياق يمهد السبيل إليها ويجهز المعد لهضمها وتمثيلها فاذا روعي هذا الشرط فلا بأس من التعريج عليها.

ذكروا أن شاعراً روى جليسه قصيدة أمامه فلما سمع مطلعها وهو :

لم أدر حين مررت بالاطلال ما الفرق بين جديدها والبالي

صاح هذا شعر رجل فقيه . فقال له محدثه : نعم فالقصيدة هي لنظم فلان فكيف عرفته. قال : كشفته في عبارته ما الفرق . فهي كثيرة الدوران على ألسنة الفقهاء، وقلما تجري على لسان شاعر .

ولكن هذه الدهشة المزعجة يزول موضعها — لذا لم نقل هذا الاستنكار يزول بوصفه — حين يكون البيت قد سبق بجملته الى ناحية فنية فيصلح له لفظ فني ولو لم يكن من الألفاظ الشعرية . ومن ذلك ما قلته في مطلع قصيدة لي عنوانها « على مدخل الخمسين من العمر » .

حساب الليالي الجاريات اقتضى منّا رصيداً وهذا الديب ينقله عنّا

فان الحساب الجاري لليالي ورصيد الحساب ونقل الرصيد كل ذلك ألفاظ تجارية لا شأن فيها للشعر ولكن موقعها في هذا البيت لم يقبح لأنه سبق بجملته إليها فأعدت الأذهان والأذواق لقبوله : والطريق التي سلكها هنا هي ما يسميه البيانيون استعارة تمثيلية وما يسميه البديعيون مراعاة نظير .

ومن الألفاظ التي هي غير شعرية ولم نألفها إلاّ في مباحث الكتاب لفظة « جدّا » ولفظة « أيضاً » ولكني رأيت بعض الشعراء استعملوها في سياق موافق لها فجاءتا مستعذبتين . قال المقنع الكندي أحد شعراء الجاهلية :

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدّا
إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هم هَوَوا غيي هويت لهم رشدا

وقال غيره من الشعراء المولدين :

ولما دنت والستر مرخي ودونها غيارى غدت تغلي صدورهم حقدا
تقدمت أبغي أن أبيع بنظرة إلى وجهها روحي لقد رخصت جدّا

بهذا الذي أتذكره من حسن استعمال « جدّا » ورصوفها في موضعها . والذي اتذكره من حسن استعمال « أيضاً » قول بعضهم وأظنه القاضي ناصح الدين الارجاني :

رأتني وقد نال مني النحول وفاضت دموعي على الخد فيضا
فقالت بصبيٍّ هذا السقام فقلت صدقت وبالخصر أيضا

ومحصل القول ان الحكم العقلي والشواهد العيانية تؤيدان اجتماع الكاتبية والشاعرية في قلم واحد لا يعد أمراً مستغرباً ولا نادراً . فالصناعتان مزجهما عنصر واحد ولهما أغراض متقاربة ووسائل متشابهة فليس الكاتب حارس غاية مثلاً والشاعر نوتي مركب لكيلا ينسى الواحد منهما تأدية العملين معاً .

اللاذقية ( سورية ) الدكتور مرقص

# موج البحر

سَلُوا وثبات الموج : هل رُوِّعَ الموجُ
فأسرع نحو الشط ، أم جاءه يرجو ؟

أم استاء من « عُمْرِي الغواني » أمامه
فأقبل يبدي الإمتياء ويحتجُّ ؟

أم الملح مكتوب على الموج مثلنا
وزوْرته للشط يُقضَى بها الحجُّ ؟

أم البحر سجنٌ ملَّه الموج فارتمى
على الشط ، وثّاباً يحاول أن ينجو ؟

أم « الحوت » قد أفضى بأسرار « يونس »
فأقبل يلقيها إلى الشاطئ الموج ؟

أم الموج — لمّا لم يجد « عرش ربه »
على الماء — وافى الشطَّ يبكي ويرتجُّ ؟

أم الموج ظنَّ الشط صدراً فأمَّه
كفرج من الآمال يتبعه فوج ؟

ألا أيهذا الموج ما ذلك الذي
وثبت له ؟ وضّحْ : فكلٌّ له نهج

إذا كنت يابن البحر تطلب منتأى
إلى البر فاعلمْ أنّ نهجك مسْوَجُّ

صلصكنا فجاج الأرض قبلك بالمُنى
فعدنا بفج ثم ضاق بنا فج

وفي الأرض ما فيها ، فلا تمترج بها
فكم خالس يا موج قد ساءه المزج

وإن كنت ترجو في السموات منزلاً
يقيك فلا الراجي يُوَقَّى ولا المرجو

سواءٌ على الأيام : مَن هو في الثرى
ومَن جارُه نجمٌ ، ومنزله برج

شاعر البرازى

# نظرات في النفس والحياة

—

لاروشفوكولد — لبوباردي — فوبنهور

— ١ —

ان علم النفس من العلوم الحديثة ولكن وصف النفس الإنسانية ومعاولة كشف مجاهلها ومخبآتها أمرٌ قديم عالجه الشعراء والكتّاب في كل قوم ولكن لعلهم لم يبلغوا من الصراحة مبلغ النظريات والنظرات التي بلغها سيجموند فرود وأمثاله وإن كان لكل مفكر نصيب وطابع خاص في الصراحة. ولا نظن أن أديباً أو مفكراً أعنى النفس الإنسانية من تطلعه الى غرائب أمورها أو الأمور المألوفة التي هي في منزلة الغرائب لازوائها في ظلمات النسيان كلما رأت النفس في ذلك النسيان مأرباً لها. ولكن نفسها بتذكيرها علم وفهم. ولعلّ بعض ذوي الفهم والزكانة، يرى في فهم النفس، زهاتها وخواطرها، سبيل رقيها وتخلصها من هوانيها وربما غالوا في أثر الفهم في العاطفة والنزعة والطبع وأملوا منه أكثر مما يستطاع جنيه من ثمرات أثر لطف الفهم في لطافة الحس والنفس ورقتهما. ولكن مما لاريب فيه أنّ جعل النفس صفاتها وطبائعها هو العمى الروحاني وهو مصدر شر في ذاته بما يؤدي إليه من بلادة الطبع والامعان في قسوته والاسترسال في حمقه. ومن الأدباء المفكرين الذين لهم نصيب من بحث النفس — على سبيل التفكير والتأمل لا على طريقة القصص في التصوير — لاروشفوكولد النبيل الفرنسي وليو باردي النبيل الإيطالي وهو بنهور الفيلسوف الألماني ولكل منهم نظرات صائبة وكانت في حياة كل منهم عوامل أدت الى التفكير في النفس والصراحة في القول والى الالمام بمكنونات النفوس ومحروضاتها من غرائز ونزعات وصفات. فقد سخط الأول على حكومة أمته وضرب بسهم في حرب الفروند وجرح في حصار باريس ونفي الى الريف. فكان عائشاً بين المؤثرين، وخالط أناساً من طبائع مختلفة ودرس أطباعهم وأطلع نفسه ولعلّ نفيه الى الريف أعطاه فرصة وفراغاً كي يعيد على فكره ما وعاه من طبائع الناس في حياته العملية وما وصل الى علمه من خبايا رجال القصر الملكي ونسائه ودسائسهم وحبهم وبغضهم وحبهن وبغضهن وكل ذلك كان مادة يستمد منها نظراته. أمّا الثاني وهو

ليوباردي فقد كان معاصراً لشوبنهور ومات قبله ولو أنه كان أصغر منه سنًّا وكان من أسرة نبيلة فقيرة . وقد أنهك نفسه وجنى على صحته بالاسراف في القراءة والاطلاع حتى صار بعد حجة في الأدب على حداثة سنه. وقد منع له أبوه بعد تمنع شديد وتأبٍ كثير أن يرحل الى المدن الايطالية الكبيرة وأن يعاشر الناس ولم تكن إيطاليا قد وحّدت بعد بل كانت تتحكم في دويلاتها حكومات رجعية تفجع التجسس والدسائس والتلفيق فبدا له ما يبدو للرجل المفرط في الفطانة من طبائع الناس لانه درس نفوس الناس في كتب الأدب حتى امتلأ وصار لا يستطيع لاعتلاله أن يجاريهم ، ولا أن يعاشيهم لأنه لم يتعوّد من صغره أن يألف تلك الطبائع كي يهوّن عليه بعض المكروه منها اذ أنه كان كالمحجوز في بيت أبيه. وكل هذه الأسباب مهدت وسائل كشفه مكاره النفس وصفاتها التي تغالط فيها .

وامّا شوبنهور فقد رحل أجداده من هولانده الى ألمانيا وصاروا من أهلها وكان أبوه من التجار وقد أراد أن يكون ابنه تاجراً مثله وأرسله في رحلة الى فرنسا ثم الى انجلترة. وقد قارن الفتى بين حرية الفرنسيين في حياتهم الاجتماعية ومغالاة الانجليز في ذلك الزمن في مراعاة العرف والتقاليد. ولعلّ هذه المقارنة هيأت الفتى دراسة طبائع النفوس في حالي تبلطها واستقامها. وقد ورث عن أبيه حدّة في الطبع كما ورث عن أمه الميل الى دراسة النفوس اذ كانت أمه أديبة قصصية مفكرة . وهذا بالرغم من أنه لم يكن على وفاق معها وقد شجعه جرته كبير شعراء وأدباء الألمان كما شجعه فاجنر الموسيقي وغيرهما. وكان غزير الاطلاع لم يكتف بالآداب الأوربية بل درس الفلسفة الشرقية ولا سيما الهندية كما درس عقائد الهنود . وكان لا يحجم عن البحث في دخائل نفسه كما يبحث دخائل نفوس الناس . وفيما يلي بعض نظرات هؤلاء المفكرين مع التعقيب عليها .

## من نظرات لاروشفوكولد

(١) بعض الناس اذا مات كان احساس الناس بافتقاده أعظم من احساسهم بالحزن عليه ، وبعضهم اذا مات كان إحساس الناس بالحزن عليه أعظم من احساسهم بافتقاده. ويريد افتقاده للانتفاع به . والحزن على حالك لا يكون على قدر الانتفاع به بل على قدر الائتناس به والراحة في مخالطته. وفي هذا الباب استثناء ولا كالاستثناء . مثل ذلك حزن من لا عائل له غير المفقود ومن انقطعت عنه الاسباب والحيل ووسائل كسب الرزق ، وحزن أمثال هذا إنما يكون حزناً على أنفسهم لا على المفقود إلا اذا كان مما يرجى للائتناس بعشرته ولطف أساليبه في الحياة .

(٢) أكثر الناس لهم فضائل خفية لا تظهر الا بالتجربة وفي حالات مرتبة لتلك الفضائل فهم مثل الأعشاب الطبية التي تظهر فضائل طبها بالتجربة وفي حالات خاصة — وهذا صحيح، ويجوز أن يقال في كل إنسان فإنك قد تعرف إنساناً لا خير فيه ولا فضل له فاذا عرضت له حالات غير منظورة رأيت له شيئاً من الفضل يدهمك فتلج في انكاره لأنه لا يتفق وما تعرف من طباعه التي جبل عليها وما ذلك الانكار إلا لأن المفكر ينسى أن النفس الانسانية مستقر كل فضل وان غاب، وقرارة كل نقص وان رسب، وانما يليها من هذا وذاك في أكثر الأحايين ما اعتادته وسهل عليها إيراده وعمله.

(٣) قد يفخر الناس بعيوبهم ويجهرون بالمباهاة بها كما يفخر شارب الخمر بقدرته على شرب الكثير منها أو كما قد يفخر مرتكب الشهوات بقدرته عليها وبما اقتدر منها، أو كما قد يفخر الآخذ بالثأر أو الذي يدفع الشر بشر أعظم. وقد يفخر غير هؤلاء بعيوبهم إلا الحسود فانه يخجل أن يفتخر بلؤم الحسد فاذا افتخر حمل ما ظهر منه على سبب آخر غير الحسد فيحمله على الغضب للحق والغيرة على الصدق والصواب أو الانتصار للعدل الخ.

(٤) الاعتراف بالجميل المصنوع معك هو الدين الذي تدفعه كي تعود فتستدين فتجد من يقرضك. وليس ذلك الاعتراف من أجل أنك تراه فرضاً واجب الأداء وفضيلة تحبها لذاتها من غير مأرب آخر. وهذا من السحر الكثير الذي نجده في نظرات هذا المفكر. ولك ان ترفض هذا الرأي في حالات. ولكن ينبغي لك الاعتراف بأنه يصدق في أكثر الناس لأن النفس طبعت على الأثرة وهي تتخلى عن أثرتها اذا تخلت، لأنها تجد أو تأمل ان تجد مسرة ونفعاً والمسرة نفع أيضاً. ولعله يعني أداء ما يتطلبه الاعتراف بالجميل إذ ان بعض الناس قد يعترف بجميل لم يُصنَع معه رغبة في الحث عليه واستجلابه وتصيُّداً لأوجه الخير من الناس

(٥) بعض فضل أهل الفضل محجوج بقبيل كما ان عيوب بعض الناس ونقائصهم قد تستملح وتستلطف فتغتفر وما ذلك إلا لأن ظاهر المرء مفضَّل لدى الناس على حقيقته وأسلوبه في ملاطفتهم ومعاشرتهم مُقدَّم على فضله.

(٦) لولا مخادعة الناس بعضهم بعضاً ما استطاع الناس ان يعاشر بعضهم بعضاً. وهذا صحيح. ومن أجل ذلك قد يكره الناس من لا ينخدع لهم بلباقة أو يدعي الانخداع في أمور كثيرة. هذا إلا اذا كان انخداعه دليلاً على البلاهة فيرون انه لا فضل له في ذلك الانخداع وإنه خليق بالهزء والاحتقار.

(٧) بعض الناس لا تظهر مهارتهم ولا يظهر فضلهم إلا إذا اقتصروا على قول الأقوال التافهة بأسلوب لبق وإلا إذا اقتصروا على عمل من الأعمال الهينة بإتقان محبوب تُعنى في من

مطالبهم بما هو فوق ذلك . ومن أجل صحة هذا الرأي قد تتعجب لنجاح أناس في الحياة نجاحاً لا يتفق مع عظم قدره وقلة ما يعرفون . أما قول الناس إن الخيبة في الأمر العظيم أعظم من النجاح في الأمر الهين، فقد يكون صحيحاً مشجعاً على محاولة عظائم الأمور ولكن أكثر الناس يهمهم النجاح في الحياة ولا يستطيعون ان يسيغوا الخيبة .

( ٨ ) قد يفعل الناس الخير رغبة في الستر وراءه كي يعملوا الشر آمنين. فليس عملهم الخير في هذه الحالات من حبهم للخير . وهذا سخر لاذع ولكنه حقيقة مشهودة .

( ٩ ) الكمل والكبتر يحملان أكثر الناس على الميل الى اعتقاد النقص في غيرهم من غير بحث أو دليل — وهناك أسباب أخرى لهذا الميل منها ان الناس ترى إن ماينقص من قدر غيرهم يزيد في قدرهم . ومنها معرفتهم ان النقص شامل للنفوس البشرية كلها محتمل فيها ، وبين الاحتمال والحقيقة وبين الجواز والوقوع خطوة في نظرهم لا تكلفهم تعباً ولا نصباً . ومن الأسباب أيضاً إن الناس من قديم الزمن كانت خطتهم نقل نقصهم إلى نفوس غيرهم بل الى حيوان أو جماد إذا لم يكن انساناً وكانت لهذا النقل شعائر ورسوم عند البدائيين وقد وصفها سيجموند فرود في كتاب الطوطم والطابو أو المقدّس والمحرّم .

( ١٠ ) إذا اعترف انسان بخطئه فكثيراً ما يكون ذلك رغبة في إصلاح ضرر أصابه من ذلك الخطأ ونيل اعجاب الناس لا حبًّا للصواب واقتناعاً به أو قد تقنعه المنفعة المرجوة . وإلاّ بقي على عماه لا يدرك وجه الخطأ ولا يستطيع أن يقتنع دليل منطقي . ومما يسهل هذه الغفلة عن الخطأ النفسي ان النفس كما قال سيجموند فرود في كتاب العلل النفسية في الحياة اليومية تستطيع ان تنسى ما ترى نسيانه من أمرها زيناً، فاذا لم يكن سبيل الى ذلك النسيان ورأت في الاعتراف بالخطأ فضلاً ونفعاً لدى الناس وإعجاباً ، أقدمت على الاعتراف بالخطأ مطمئنة .

( ١١ ) بعض العظماء ليس من المستطاع الاعجاب بعظمتهم إلاّ على بعد كالصور الفنية قد لا يستطاع ادراك جمالها الفني إلاّ إذا ابتعدت عنها . وهذا تشبيه بديع لأن دقائق الألوان والخطوط وتفاصيلها قد تعوق عن إدراك القدرة الفنية التي بها استطاع الرسام رسمها . ومن جهة أخرى يستطاع تشبيه جمال هذه العظمة على بعد بجمال المناظر الطبيعية. فانك قد ترى وأنت على ظهر سفينة جزيرة كأنها جنة غناء فيحاء فاذا نزلت الى البر وجدت اللباب والأقذار والوحل وما هو أشد على النفس من ذلك . والظاهر ان مؤلفي كتب سير العظماء والمشهورين في هذا العصر يخالفون هذا الرأي ويرون انه يستعصى إدراك عمل العظيم وتمام فهمه إلاّ إذا عرض في مباذله أو نقائصه عرضاً تامًّا . فهم يحاولون الوصول الى أعماق

نفسه ووعيه الباطن . متناسين وصف سيجموند فرود للوعي الباطن ولعلّ في عملهم هذا أيضاً شيئاً من الحسد والانتقام من غير ان يشعروا به كحسد القبائل البدائية التي في كتاب الطوطم والطابو والاقوام الذين كانوا في محفل تقديس ملكهم الجديد يرأون به ان يمسّ بأيديهم لأنه مقدس فكانوا يمسونه بأطراف تضبان . لكن هذا المسّ المقدس كان يتحول من غير ان يفطنوا الى ضرب قد يؤدي بحياة الملك حسداً له على منزلته وما بلغ من جلالة الملك . ومن لمحات ليوبادي ما يلي :

(١) المخادع الماهر هو الذي لا يظن ان كل الناس يسهل خداعهم على كل حال بل يعرف ان من الناس من يتظاهر بالانخداع حتى يعرف غاية المخادع ويكشف أمره . اما المخادع غير اللبق فانه يستسهل خداع الناس فلا يتخذ أهبته لاتقان الخداع . ومن أجل ذلك كثيراً ما يكون المخادع مخدوعاً . وهذا صحيح ومن أجل ذلك قد يكون خداع الرجل الأبله مضحكاً وخداع الساذج مكشوفاً لجميع الناس الا لصاحبه فهو وحده المخدوع به . على أن للمسألة وجهاً آخر وهو ان نجاح المخادع غير موقوف على مهارته وسذاجة الناس فحسب ، بل على رغبة الناس في أن ينخدعوا . وهذه الرغبة تكون لأسباب متعددة فالغرور قد يؤدي بصاحبه الى احتقار كفاية المخادع فلا يراه يبهض له بخداع متقن . واعتقاد الصدق وسلامة النية في المخادع قد يعمي عن خداعه . والرغبة في الائتناس بالمخادع قد تسهل له اتقان خداعه . والفائدة المرجوة منه قد تذهب بحذر المحاذر منه . ومن أجل هذه الأسباب وغيرها قد يخدع المرء من هو أذكى منه وقد يخيب الذكي اللبق في خداع من هو أقل منه فطنة

(٢) كثير من الناس يسيئون اليك ثم يأبون أن تقابل الاساءة بمثلها . وهذا طبائع حتى أن بعضهم ينسى اساءته اليك ويرى من اللؤم أن تتذكرها ومن النذالة أن تتألم بسببها ومن الحقد أن لا تقبلها بصدر رحب . فاذا لم تفعل عد المسيء نفسه مساة اليه وهذا الطبع من وسائل الناس ومغالطاتهم في أمور الحياة حتى يظفروا بما يشاءون

(٣) بعض الناس يعيشون طول حياتهم وهم معروفون بالنبل والكرم والشرف . وذلك لأنهم لم يقابلهم في حياتهم ما يضطرهم الى أن يتخلوا عن نبلهم وكرمهم وشرفهم ولكنهم لو أحرجوا وأحوجوا الى ذلك التخلي لاستطاعوا أن يبذوا الأوغاد واللؤماء في لؤمهم . فهؤلاء نبلاء النفوس . لأنهم ليسوا في حاجة لأن يكونوا لؤماء وهذا الرأي يذكرنا قول البحتري :

إذا أحرجتْ ذا كرم تخطى اليك ببعض أخلاق اللئام

(٤) عرفت طفلاً كان يقول إذا لم تجب أمه طلبه وإذا منعته من شيء : آه . ما الآلي

تحب الخبث والعناد. أو ما موكلة بالشر. ولو فطن الناس الى أحكامهم التي يحكمون بها على جيرانهم وأصدقائهم وأعدائهم لوجدوا أنها من هذا القبيل فاذا مدحنا انسان واسترضانا وكنا نعده قبل ذلك وغداً، عدنا نقول أنه ليس بوغد الى الحد الذي كنا نظن أو انه عرف الحق فرجع اليه والرجوع الى الحق فضيلة فهو من أهل الفضيلة. الى آخر ما يكون من أمثال ذلك

(٥) ان صاحب النقص لا يكون خليقاً بسخر الناس منه والزراية عليه ومبالغتهم في ذلك إلا إذا بالغ في تكلف ضده، كالشيخ الذي يتكلف أخلاق الغلمان وطباعهم وعاداتهم وهيئتهم. أو كالفقير الذي يحاكي الاغنياء أو كالجاهل الذي يظهر بمظهر العالم المتكلم أو كالريفي الذي يحاول أن يقنع مجالسه انه متقن عادات أهل الحضر وانه منهم حذوك النعل بالنعل. وهذا يصدق أيضاً في تكلف اخفاء العيوب الجثمانية بما لا يخفيها بل يزيدها وضوحاً ويتم عنها

(٦) كثير من الناس يريدون أن يكسبوا الشهرة بعمل الخير من غير كلفة أو مؤونة. ومن أجل ذلك قد يعرضون أن يصنعوا الخير لانسان اعتماداً على أن تعففه أو زهده أو حياءه أو قناعته أو هيئاً من أمثال كل ذلك يمنعه من قبول ما يعرضون عليه من المؤونة فيكتفي بشكرهم وبمدحهم لدى الناس وان يذيع انهم من أهل الخير. فاذا خيب ظنهم وقبل معونتهم وورطهم بذلك القبول، تغير لونهم وتلجلجوا في الحديث وقد يضمرون له المقت والضغينة ثم يغيرون موضوع الحديث، وانما مثل هؤلاء مثل من يدعون الناس الى وليمة ولم يعدوا وليمة وليست عندهم مادتها وانما يختلفون عن أصحاب الوليمة الموهومة. ان ذاك سعى إلى خير وهذا إلى طعام

(٧) من الغريب انه في أكثر لغات العالم يطلق الناس اللفظ الذي يدل على الفضيلة لما يدل على البلاهة فتراهم يضحكون ويقولون فلان رجل طيب — على نياته — وهم يريدون انه أبله — أليس هذا مما يدل على اعتقادهم أن الطيبة وحب الخير وسلامة النية أدلة على البله وان عكس ذلك دليل على الفطنة فهم يكشفون عن سريرتهم وسريرة الناس من حيث لا يشعرون

(٨) أفراد الناس في الهيئة الاجتماعية مثل ذرات المادة في الكون: كل ذرة تقاوم وتضغط على ما يليها من الذرات فتؤثر بهذا الضغط المتسلسل في الذرات البعيدة وهذه تؤثر فيها بضغطها المتنقل المتسلسل فاذا بطلت مقاومة ذرة في مكان ما انجذبت جميع الذرات من كل ناحية الى ذلك المكان فتسحق الذرة التي بطلت مقاومتها وتحل غيرها مكانها وهكذا الناس في الحياة.

(٩) ان من عاشر الناس واشترك في حوادث حياتهم كثيراً ما يرى فيها ما لو كتب قصة عنه القارىء مبالغة من نسج الخيال الجامح وأبى أن يصدق انها من حوادث حياتهم، ولذلك قيل ان الحياة قد تكون أغرب من الخيال وقارىء تلك القصة قد يعدها نابية عن أصول الفن الذي يرخص في الخيال المهذب القريب من المعقول ويقول انها تعدت الخيال القريب المعقول وما هي الا قطعة من الحياة. وهذا يدل على ان تناقض اخلاق النفس أكثر في الواقع مما نظن. ومن أجل ذلك قال كاتب حديث وهو ممرست موام ان مهارة القصصي في تقليم الحقيقة وتنسيقها وتفي المبالغة فيها والتأليف بين المتناقضين تأليفاً يزيل وحشة الخلاف وشك الغرابة ويفسر اجتماعهما ويلطف من حماقات النفوس وفجاءاتها غير المألوفة. ومن نظرات هوبنهور ما يلي:

(١) كثيراً ما ينطق الانسان بأقوال قد تضره معرفة الناس لها. ولكن قلما ينطق بما يجعله أهلاً للهزء والسخر. وهذا صحيح لأن الانسان بطبعه حيوان معجبٌ بنفسه. ولكنه قد يكون مغرماً بالظهور بين الناس — وهذا نوع آخر من الاعجاب بالنفس — فيؤدي به حب الظهور الى أن يجعل نفسه أضحوكة، إذا لم يجد سبيلاً آخر الى الظهور.

(٢) قد يتألم المرء من ظلم وقع به أو إهانة صغيرة مقصودة كانت أم غير مقصودة أكثر من تألمه من مصائب القضاء والقدر، لأن مصائب القضاء والقدر عامة ولا اهانة فيها ولا إستعلاء إنسان على إنسان. أما الظلم أو الاهانة فانها دليل على ظهور إنسان على إنسان بالسان وحده أو بالقوة أو بالمكر والحيلة فتشعير بالمذلة والنقص وتدعو الى التفكير في الانتقام وتزيد حقيقة الاهانة والظلم في الذهن حتى لا تطاق. وقد يقدم المرء على الانتقام حتى ولو كان فيه أضعاف أضعاف ما في ذلك الظلم أو الاهانة من المضرة. وقد يؤدي انتقامه الى ضياع حياته وهو يردد قول فحشوش (علي وعلى أعدائي يا رب) ثم هو قد لا يلتذ الانتقام وان فاز به بل قد يجد له مرارة وحسرة.

(٣) كثيراً ما يكون تجسس إنسان على انسان لمعرفة أسراره سببه الحسد أو الملل والسأم. فهو قد يحسد إذ يعتقد ان انساناً نال من أطايب الحياة وملذاتها أو ما يعده المتجسس ملذات وأطايب أكثر مما ناله ذلك المتجسس فيلاحقه ويأخذ عليه نظراته وكلماته وأعماله في خلواته وجلواته وكثيراً ما تكون الفجة التي يدعي فيها الأشرار نصرة الفضيلة من نوع هذا الحسد.

(٤) في بعض الأحايين نرد ان يحدث أمر ونود ان لا يحدث وأن لا يكون فنجتمع

في النفس رغبتان متنافستان في وقت واحد، فتلاً اذا كان لا بدّ ان تؤدي اختباراً في أمر من أمور الحياة كي تصير ظافرين مسرورين فان الرغبة في الظفر والمسرة تغرينا بأن نود اقتراب موعد ذلك الاختبار، ولكن الخوف من الخيبة يغرينا ان نود لو تأخر موعد الاختبار فاذا اتفق حدوث ما يؤخر ميعاده كنا نحس بحسرة وأسف. فسرة لتجنب احتمال الخيبة مدة من الزمن، وأسف لتأخر ميعاد النجاح والفوز بما نريد. وكثيراً ما يتوهم الناس ان اجتماع الضدين في النفس في وقت واحد أمرٌ محال وهو ليس كذلك وقد فسر سيجموند فرود هذه الاحاسيس الثنائية المزدوجة في كتاب الطوطم والطابو أي المقدّس والمحرّم، ووصفها عند الأقوام البدائيين.

(٥) لا يستطيع الانسان ان يعرف مقدار ما في نفسه من الصبر والجلد على تحمل الألم ومن القدرة على العمل العظيم أو على مكافحة الخطوب إلاّ إذا أتيحت له فرصة لاختبار نفسه. وقد تظهر في بعض النفوس قوىً كانت كامنة وكانت لا يعترف أحد لها بها حتى صاحب النفس قد تدهشه قواه الخفية إذا ظهرت وإنما مثل الانسان أمام نفسه مثل الناظر الى بحيرة هادئة مصقولة كالمرآة ليس بها موج، فلا يستطيع الرائي ان يدرس عظم أمواجها التي تحاول أن تهشم الصخور وذلك اذا هبت عليها الأعاصير. وبعض من يخاف وقع الخطوب قادر على مجالدتها ومناهضتها وقد يعجز بعض من يخافها كما قد يعجز بعض من يبدي شجاعة في الأمور اليومية الصغيرة ولا تتعب جنجرته من وصف شجاعته. فاذا اختبرته الخطوب والمصائب ذلّ وضعف.

(٦) في أكثر لغات العالم اصطلح الناس على ان الصفات الدالّة بينهم صفات احتقار فيقولون هذا أمرٌ شائع وعمومي ومبتذل ومشترك ومطروق ومألوف ومعروف. ويقولون فلان من العامة ومن الدهماء الى آخر ما هناك من المترادفات. وهذا الاصطلاح في اللغات دليل واعتراف على ان الفضل غير شائع بينهم، بل يشذ به الآحاد وإنهم إنما يشتركون في النقص.

(٧) يُعْدُ مكان الشيء يصغّر من حجمه ويخفي معايبه. وهذا مثل العدسة التي تصغّر أحجام الأشياء. إنما العدسة التي تكبّر الأحجام فانها تكبّر ما خفي من العيوب. وماضي الحياة يتأثر ببعده حتى تصغر متاعبه وحتى تألف الذكرى حسناته وتتغاضى عن ميئاته. أمّا الزمن الحاضر فلا ميزة له من هذه الناحية. لأن الشيء الصغير يبدو كبيراً اذا كان قريباً حتى أنه قد يحجب عن النظر ما هو أكبر منه حجماً وأبعد مكاناً. ومن أجل ذلك تبدو

متاعب الحياة اليومية شاقة عظيمة خطيرة فتهملنا وتثير قلقنا وأحاسيسنا المختلفة الى أعظم حدّ ودرجة . ولكن اذا حملها الزّمن في تيّاره وابتعدت عنا صارت حقيرة صغيرة وقد ينساها الإنسان بعد أن شغلته وهمّت عليه .

( ٨ ) الإنسان يتّسع ما دُرّب عليه من الصغر ويعتقده ويسير على نهجه . وكثير من الناس يدربون على لون واحد من ألوان فضيلة من الفضائل وينزهون أنفسهم عما يقابلها من الرذيلة في شكل واحد دون جميع أشكالها ومعارضيها . فإن التجار من أصحاب الدكاكين ينزهون أنفسهم عن قطع الطريق وعن التلصص ليلاً والسطو على المنازل للسرقة ثم يحسبون أنهم قد جمعوا جميع أصناف النزاهة. فاذا اتهمت أحدهم بالسرقة شقّ عليه ذلك مع أنه قد يغبن المشتري في الثمن أو صنف البضاعة فيكون سارقاً من غير شك . ولكنه لا يعد نفسه سارقاً بل يرى أنه منزه عن السرقة . وقس على ذلك فضائل الناس ورذائلهم في أحوال الحياة المختلفة . وشبيه بذلك أن الرجل الموصوف بالشجاعة قد تكون شجاعته مقصورة على أمور دون أمور وكذلك الجبن .

(٩) الأمل هو تحوّل الرغبة في حدوث شيء الى توقع حدوثه حتى لقد يكون التوقع قريباً منظوراً بالرغم من أن فرص احتمال الحدوث فرصة في الألف أو في مئات الآلاف كما في توقع الكسب من أوراق اليانصيب .

(١٠) قد ترى أشجاراً على بعد فتعجب لجمالها فاذا اقتربنا منها وجدناها شيئاً مألوفاً لا كما صوّرت لنا . وهذا مثل سعادة أكثر الناس فاذا نرى سعادة السعداء على بعد ونغبطهم عليها فاذا اقتربنا منها وبحثناها زالت روعتها او أكثر بهجتها لما في حياتهم من آلام ومتاعب وأمراض ومشكلات فان السعداء غير معفون من هذه الامور بل يشاركون الناس فيها .

(١١) من أسباب خطئنا في الحكم على الناس أننا نفرض وجود الصفات المتجانسة . فمثلاً نرى الكرم : فننسب إليهم النزاهة والشرف والنبل وننسى أنها قد تجتمع وقد لا تجتمع، ونرى الكذب : فننسب إليهم المكر والغش والاختلاس والسرقة وقد لا تجتمع .

ع . ش

# حرب البكتريا

«وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إني أعلم مالا تعلمون».

وهكذا شاء الله ولا رادّ لمشيئته — خلق الخليفة آدم ثم رزقه ذرية منها . هابيل وقابيل تخاصم الأخوان وكانا رمزين للخير والشر . فقال الخير « لئن بسطت اليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك اني أخاف الله » بغى الشر على الخير فقتله . « فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه . « فقال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي . فأصبح من النادمين » .

هذه قصتنا في بدء الخليقة لا تزال تمثل على مسرح الحياة المرّة بعد المرّة وسوف يستمر تمثيلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وكلما أنت الزمان قناة ركب المرء للقناة سنانا

اصلاح وتعمير يتلوه تقتيل وتخريب . وهكذا دواليك . فلا سلام دائم ولا حرب واقية ذلك لأن هذه التقلبات نتيجة مؤثرات خارجية واستعداد داخلي . ألا ترى كيف تتصبغ الفراشة بلون الزهرة التي تتغذى منها . وكيف تتغير الضفدعة بتغير المحيط الذي تعيش فيه وهي في بدئها سمكة في ماء وفي كبرها دابة على يابس . وهكذا الانسان يتقلب بتقلب الأجواء المحيطة به . فكما ان الجو يكون ممطراً أو صحواً والرياح راكدة أو عاصفة كذلك الانسان تارةً في يسر وسلام وتارةً في ضنك وحرب شعواء . وما الحروب الدينية والسياسية والعنصرية والتجارية إلاّ نزاع بين متناقضين لا بدّ ان يتغلب فيها الأصلح مهما ظهرت الرذيلة بمظهر الظافر المنتصر . فالبقاء للأصلح .

اذا تتبعنا تاريخ الحروب منذ أقدم العصور نجد أولاً ان القدماء المصريين بعد ما ابتكروا

الحراب والهراوات والأقواس والسهام ضموا المجهود الفردي فكونوا الفرق المقاتلة وأمروا على كل فرقة قائداً . فعلى أجدادنا ذلك قصد تركيز القوة . فإذا سددوها ناحية خاصة كانت أشد تدميراً وأكثر تقتيلاً . ثم أتى الميكانيكيون فابتكروا المحلات الحربية ثم استبدل الانسان الجياد فكوّن فرق الفرسان . وهكذا تفنن الانسان في وسائل التقتيل . وقتل الانسان ما أكفره .

ثم اكتشف الانسان البارود والدنامیت وصنع القنابل والبنادق والمدافع ثم ابتكر الصواريخ ثم قذائف الطائرات ثم القذائف الطائرة . ثم أخرج القنابل الذرية فالأهمية عما جعل الغازات الخانقة أمراً حقيراً . ولا يبعد اذا كتب لهذا الكون ان يرى حرباً عالمية ثالثة ان يبقى على قيد الحياة إلا النفر القليل .

وعلّم الله آدم الأسماء كلها . وزوّده بعينين براقتين وعقل سليم . فرأى ان الأهوال السابقة قد لا تكفي للابادة ففكر وقدر فقتل كيف قدّر ثم عبس وبسر فرأى الطاعون وقد فتك بجيش نابليون عند عكا فكان عليه قضاء مبرماً . ثم شاهد الذباب وهو ينشر التيفود بين الانكليز في حرب البوير حتى فاقت ضحاياه ضحايا أعنف الحرب مجتمعة . فافتكر في حرب البكتريا لترجيحها المرافق الاقتصادية العامة فصد عن الانتاج الحربي .

والبكتريا كما نعلم كائنات دنيئة لا تراها العين المجردة لكنها أهم وسيلة لقتل الأحياء من انسان وحيوان ونبات . وأغلب حالات الشيخوخة والإصابات العارضة إنما تنتهي بالوفاة نتيجة للاصابة بالبكتريا في شكل مضاعفات . لكن هذه البكتريا لا تعمل عملها كاملاً إلا إذا توفرت لها الشروط المطلوبة لكل نوع وإلا خمد نشاطها وانعدم تناسلها وقلّ خطرها .

والعصور الوسطى بأوربا حافلة بحوادث اتهم فيها أبرياء بنشر الطاعون الدملي بين الأهالي عمداً بتلويث مياه الشرب بالآبار . وقد أعدم الكثير بعد اعترافهم بجرمهم على الرغم من أن الطاعون الدملي لا يمكن أن ينتقل بطريق مياه الشرب أبداً بل لا بد من انتقاله بواسطة برغوث الفار فمن المستحيل إذن أن يكون هناك أساس لهذا الاتهام ولكن لكل عصور محاكمه وآراؤه ...

أمَّا في أفريقيا الاستوائيـة فلا يزال بعض الأهالي هنـاك ينسب تفشي الانفلونزا والالتهاب السحائي الوبائي ومرض النوم الى عمل جنائي سحري يتهم به شخصاً بريئاً لاحول له ولا قوة بل ولا صلة له بالموضوع .

وهكذا تساوت أوربا وأفريقيا بل ربما فاقت الأولى الثانية اذ على الرغم من قدم المدنية في الأولى وتقدمها في العلم والاقتصاد وعلى الرغم من وجود المعاهدات والاتفاقات الدولية بعدم استعمال حرب البكتريا بين أهالي تلك القارة نجد منهم من يمد إليها . فليس سرًّا الآن أن أحد رجال المحور ضبط وهو يحاول الحصول على مزرعة لمكروب الحمى الصفراء الخبيثة قبيل الحرب العالميـة الاخيرة . والغريب أن في خريف سنة ١٩٣٩ اتهم الدكتور جوبلز الانكليز بنقل هـذه الحمى القتّـالة من غرب أفريقيا الى المند بطائرات خاصـة — فرمى أعداءه بالجريمة التي كان يرتكبها ذووه .

ولا يحسبنَّ أحد أن حرب البكتريا أمرٌ سهل بل هو صعب غاية الصعوبة بل هو مشكوك في امكان نجاحه ولا يمكن مقارنته بوسائل التقتيل والتدمير التي اكتشفت أخيراً. اللهمَّ اذ تمكن الانسان من توجيهها نحو اقتصاديات أعدائه من بني جنسـه فلا يقتصر في استعمالها على البشر بل يتعدى ذلك الى الحيوان المستأنس المفيد كالحيوانات الزواعية وغيرها والى النبات وعلى الأخص الحبوب إلاَّ أن ذلك يحتاج لدراسة كبيرة فنحن لا نزال نجهل الكثير من طرق انتشار هذه الأمراض ودرجة فتكها ومقاومة الحيوان والنبات لها كما اننا لا نزال نجهل طرق اكتشاف كثير من هذه الآفات ووسائل التحصين ضدها وعلاجها النوعي الخ ...

ولعل أقرب هذه الآفات الى النجاح هي الآفات الزراعية لسهولة نشرها بالطائرات على مساحات كبيرة يلي ذلك الأمراض المسببة بالمكروبات الدنيئة Virus والتي لا ترى بالمجهر لأن علاجهـا النوعي لا يزال مجهولاً ولقـاح التحصين ضدها أما غير موجود كلية أو موجود بكميات صغيرة لا تكفي لتحصين عدد كبير من السكان . ومن هذه الأمراض الجدري ولكن الحصانة ضده أصبحت الآن ميسرة . أما غيره من الأمراض المماثلة فلا نزال نجهل الكثير عن العشرات منها وأمثال هذه الحمى الصفراوية ، حمى الببغاء ، مرض التقدم والفم ، طاعون الدجاج وهكذا .

بعد ذلك تأتي طائفة من الأمراض المعروف سببها مثل الطاعون الرئوي ، الحمى المتموجة ، داء التفحم ، تسمم الطعام ، السقاوة وغيرها — وكلها أمراض يمكن أن يحاول الانسان احداثها بشكل وباثي ولكن ذلك مشكوك في نجاحه كثيراً .

والى جانب ذلك تأتي الحشرات الناقلة للامراض فنقل بعوض الجامبيا مثلاً ونشره فرق منطقة زراعية أو غيرها مما يتواجد فيها مرض الملاريا بشكل خفيف من السهل جداً ان يسبب وباءً شديداً يشل الحركة الاقتصادية في ذلك الاقليم . وقد عانا القطر المصري من ذلك الكثير بمديريتي قنا واسوان وبدرجة متوسطة في جرجا ، وبذل مجهود الجبارة للقضاء على هذا البعوض . وسبقت البرازيل مصر في ذلك وكلفتها مقاومة هذه الحشرة ما يفوق تكاليف حرب بأكملها . فمثل هذا البعوض اذا وجه الى قطر قبل اعلان الحرب عليه بمدة كافية من الجائز جداً ان يشل حركته الاقتصادية بل ويجعله غير قادر على صد العدوان .

وما يقال عن الملاريا يقال عن الحمى الصفراوية هذه الحمى قتالة للغاية وهي تنتقل بواسطة بعوض خاص يعرف باسم ( ايدس اجيبتي ) وهذا البعوض منتشر جداً في القطر المصري وغيره . فاذا ما أدخلت في أحد هذه الأقطار أعداد وفيرة منه مصابة بفيروب المرض أحدثت اصابات بالحمى الصفراوية في الانسان ومتى بدأ الوباء سهل انتشاره جداً إذ ان وسيلة نشره متوفرة من طبيعة الحال . وهناك يحل الدمار ويحل الخراب .

وأعيد فأكرر انه على الرغم من كل ما قيل فانه من المشكوك فيه جداً ، امكان استعمال البكتريا كسلاح في الحروب ضد الإنسان او حتى في نطاق متوسط لأن نشر هذه الأوبئة بالطائرات لا يزال مجهولاً عند الكثير كما أن احتمال البكتريا لقوة انفجار القنبلة الحاملة لها لا يزال أمراً في عالم الغيب .

ولا يمكن منع حرب البكتريا بالاتفاقات الدولية بل قل انه أصعب مراساً من منع الحرب الذرية .

والناحية المطمئنة في هذا الموضوع هو جهل الانسان بالعوامل التي تسبب الأوبئة وقت الارادة اذ لم يتمكن الانسان من احداث أي وباء للآن في وقت مخصوص أو بعبارة أخرى لم يتمكن من التحكم في الأوبئة وإحداثها ، فان ذلك بالقنبلة الذرية واخضاعها لمديئة صاحبها هذا الى جانب قوتها الهائلة في التقتيل والتدمير مما يفوق كثيراً تأثير الأوبئة المرضية .

الدكتور حسن كمال ،

مدير رعاية الامومة والطفولة بوزارة الصحة

# بصر حديد

عجيب أمر العُقاب والنسر والباز ، فهي طيور ترصد عيونها من شاهق حركات فرائسها فتنقض عليها لاقتناصها دون أن تخطئها . ووجه العجب في ذلك أنّ العين البشرية مهما تكن قوّتها وبعد مجالها لا يسعها أن تجاري تلك الطيور في ما فطرتها الطبيعة عليه .

ولقد تبيّن للعلماء أن الكواسر ترى في الواقع حركات الفريسة لا الفريسة نفسها ، وإنه إذا ظلّت حركة الفريسة بغتة وتخشّبت ، عزّ على عين الطائر أن ترصدها . وهذا يوحي بأن عين الطائر خُلقت خلقاً يؤهلها لأن ترصد الحركات من ذُرى لا يمتدّ إليها بصرُ كائن حي ، واستدلّ من ذلك على أنّ هناك اختلافاً كبيراً بين تكوين العين البشرية وتكوين عين الطائر الكاسر ، وان هذا التفاوت جليٌّ كذلك إذا قوبل بين عين أي حيوان آخر وعين طائر هديد الشكيمة . ووجه الخلاف أن في عين الطائر نتوءاً كبيراً يطلق عليه اسم « نقطة العمى » Blind Spot من شأنه أن يضفي على العين مزيّة الرؤية البعيدة المدى لحركات الكائنات الحيّة مهما استدقّ حجمها .

ولتعليل هذه الظاهرة وقف الدكتور منر Dr. F. Menner من مدينة هال Halle في مؤتمر المختصين بدرْس الحيوان الذي عقد في شهر يوليو من عام ١٩٣٥ في مدينة فتنفارت الألمانية وقال إنه تبين من إتيانه بآلة تصوير واستبدال اللوح الحساس بقطعة معتمة من الزجاج ووضع قرص صغير فيها ليحجب صور المرئيات المتحركة — كصورة عصفور طائر مثلاً — أن من المتيسر رؤية صورة ثانوية للطيور المتحركة ظاهرة على أجزاء أخرى من الزجاج المعتم . وكانت عملية رصد الحركة بكيفية جعلت صورة الجسم المتحرك لا تبدو إلاّ على حافة مجال الرؤية ثم تنجاب الصورة سريعاً . وأمكن بالاستعانة بحجم كبير من القرص الحاجب — وهو الذي يقوم مقام « نقطة العمى » — أن يصبح اختفاء الحركة إمّا بعيداً عن المركز البصري أو دانياً منه . وبذلك تختفي الصورة أمام القرص وتعود الى الظهور على الجانب الآخر منه .

وبتطبيق هذه النظرية على أعين الطيور الكاسرة يمكن القول إنه إذا تحرّك جسمٌ ما

في اتجاه قُطْر مجال الرؤية للطائر من الطيور الكاسرة لأصبح للجسم في عين الطائر أربع نقط رصد : واحدة على المحيط Periphery وثانية على جانب نقطة العمى وثالثة على الجانب الآخر منها ورابعة على المحيط مرة أخرى .

علاوة على أن نقطة العمى تبرز في محجر عين الطائر الكاسر بروزاً واضحاً فتلقي طائفة من الظلال على الشبكية مما يجعل الشبكية محاطة بظلال تشبه اطاراً ذا أسنان ( مشرشراً ) . وبنشأ عن هذا أن يزيد عدد أماكن الرصد زيادة كبيرة — وهي أماكن تتلاحق وتتكامل كما تتكامل الصور في الفيلم المتحرك — ويصبح من اليسير على عين الطائر أن ترصد كل حركة صغيرة من أعلى عليين . ولهذا الكشف العلمي شأن كبير من حيث أنه يعلل سبب حدة بصر تلك الطيور فضلاً عن أنه يزيدنا ادراكاً بخصائص الجهاز البصري في الانسان . وهو يبرهن على أن العين البشرية تتمتع بمزيتين هما قدرتها على رؤية الأجسام الثابتة — أي غير المتحركة — وقدرتها على رصد الأجسام المتحركة .

ومن هذا الكشف يتضح بجلاء السبب في أن ادراك الألوان يصبح في القرون حين يكون اللون — أو الجسم الملون — في مركز مجال الرؤية ، ويصبح على أقله حين يمتد اللون من محيط دائرة المجال فالقدرة على الرؤية تبلغ عنفوانها في مركز مجال الرؤية ثم تتقلص كلما انحرف الجسم المرئي إلى نهاية المجال . وقد يحسب المرء ان هذا نقص في تركيب العين البشرية ولكن الحكمة منه تتضح الآن جليًّا . ذلك انه كلما قلت المقدرة على مشاهدة الأجسام زادت المقدرة على رؤية حركتها ، وكلما تباعد مجال الادراك بالحواس وتلاشى الى عالم العدم ، نشأت قدرة جديدة على ادراك الحركة .

والعين هي أستاذ الانسان ومرشده حتى في جميع الشؤون التي تبطنها النفس . فنحن نوجه مداركنا لادراك العالم المادي ( أي الفيزيقي ) مستعينين على ذلك بحواسنا ووجداننا بيد أن في حياتنا الداخلية أموراً تشبه الى حدٍّ كبير « نقطة العمى » في حاسة البصر . وما تلك النقطة بعيب كما يتبادر الى الذهن ، لانها في الواقع تفتح أمام البصائر ضرباً جديداً من ضروب الادراك لهذا العالم المليء بالقوى ، وهي قوى تتفاعل وتتصارع وراء دنيا الحقائق المتجلية للحواس .

ولهذا يصح لنا أن نزعم ان العتاب المحلق في ذرى الفضاء يفتح أمام أذهان البشرية آفاق الفكر والحكمة لأنه وان كان بصرنا مقصراً عن مزاحمة بصر الطائر المنقض ، فلنا من البصائر والفطنة ما يعوّض النقص ويرشدنا في سلوك مسالك الحياة .

ربيع فلسطين

# جنون [1] ...

ليست الجاذبية التي كشفها نيوتن في كنهها إلا الحب الذي تغنى به الشعراء فهي التي تجذب الكواكب كوكباً الى كوكب كما يجذب الحب القلوب قلباً الى قلب ... فلولا الحب لما انتظمت الكواكب في السماء ولما كانت حياة . . ومن يدري فربما كان بين الكواكب المتجاذبة الى بعضها في الفضاء تعاطف كتعاطف المحبين ! . . وقد تتولد الجاذبية ( الحب ) بكوكبين فيخرجان عن مداريهما ليلتقيا فيعطيا . وتكون النتيجة اما تلاشي أحدهما أو كليهما تماماً . . . وفي هذه القصيدة ثورة حب انتهت بتدمير محبين . .

غرقَ القلبُ بسحرك وسُحرتْ
فهفا الثغر لثغرك وسُقيتْ
عربد الخفّاق في الصدر جنوناً

فسمعتِ
صوته الداوي وقد عاد حنيناً
فشُدهتِ
حين نادى باسمك العذب أنيناً
ثَمَّ ملتِ
فوق صدري — ثغرك المحموم قد عانق ثغري
هائماً حيران في ثم وعصر
في جنون الروح تهمين دموعاً
فوق سَحْري — وأنا أهذي كمن بات صريعاً
قد جُننتُ . . . وجننتِ !

(١) من ديوان أغاريد الشاعر محمد فهمي عبد الرؤف طبع بالقدس

غفيةً منها أفقنا — لم نُفقْ
بل صحَونا ونظرنا — لم نُطِقْ
في بكانا قد هَوينا — نختنقْ ..

***

تمتمتْ منـــه الفناهُ
كان ياسمي
هاتفاً بـــما دهاهُ
اي نغْمٍ
راعني سحـــر صداهُ
فصرختُ
يا حبيبي ! . . . وهَويتُ
فوق صدر . . . ولثمتُ
بل ذُهِلتُ ! . .

***

دارت الأفلاك واحجـــاب القمرْ
وغنا النجم وقد لاح السَّحر
ماشقانا لم يفيقا . . . ما الخبر ؟
إيه فانصتْ . . . فهتهاتٌ تنفجر ؟ !
يا إلهي ؟ . . أصريعا الحب جُنّا
كيف جنّا .. ؟ آه بل جُنّ القدرْ .. !

القاهرة محمد فهمي

# صورة جديدة منمنمة[1]

## من أسلوب التصوير البغدادي

## تاريخها ٦٦٤ هـ ( ١٢١٧ ـ ١٢١٨ م )

## تمثل النبي العربي

## ( في ثلاثة ألواح )

يحلو لي في مبتدأ هذه المحاضرة أن أشكر للصديق الأكرم أحمد بك عاصم ، المدير العام لدار الكتب المصرية ، أريحيته إذ أذن لي ، من ستة مضت ، أن أنقل بآلة التصوير الخمسي الصورة التي تستحسنون بالنظر إليها على الفور .

إذ الزمن المقدر لي ها هنا قصير جداً ، فلست عارضاً عليكم سوى بيان يسير . على أن لي في هذه المنمنمة [2] مبحثاً مستفيضاً يتناول جميع وجوهها من أدب ودين ثم من فنّ وتمثيل . وهذا المبحث صادر في رسالة مقبلة من رسائل المجمع العلمي المصري .

إنه لا يغيب عنكم أن أسلوب التصوير البغدادي المتعارف بلقب « مدرسة بغداد » ، تندرج تحته تلك المنمنمات التي زوّق بها المسلمون المخطوطات العربية في العراق والشام ومصر وغيرها ، أيام الخلافة العباسية في القرن السابع للهجرة ( الثالث عشر للمسيح ) .

هذا ، وإن أهل العلم بالفن الاسلامي مجمعون مع العالم الانجليزي توماس أرنلد[4] على أنه من المشكوك فيه أن يكون المسلمون حاولوا تصوير موضوع من الموضوعات الدينية في القرون المتقدمة . وعلى هذا قال العالم الفرنسي بلوشي [5] : « إن هذا لو كان جرى لكان يكون تدنيساً . » ومن هنا أن أقدم المنمنمات الإسلامية التي تمثل الرسول العربي

---

(١) مستخرج من مجلة المجمع العلمي المصري . الجزء ٢٨ ، الدورة : سنة ١٩٤٥ — ١٩٤٦

(٢) محاضرة ألقيت بالفرنسية على سبيل التعريف يوم ٢٧ مايو ١٩٤٦ في جلسة علنية منعقدة في المجمع العلمي المصري بالقاهرة . وهذه ترجمة المحاضرة .

(٣) اقترح هذه الكلمة بإزاء الكلمة الانجليزية Miniature ، وهي التصويرة الدقيقة التي تزين صفحة أو بعض صفحة من كتاب مخطوط . وفي لسان العرب ( ج ١٦ ص ٧٣ ) وكتاب منمنم : منقش . وتمنم الشيء عنده ، أي رقته وزخرفه . فالمنمنة ( بكسر النون الثانية ) ترقيش وزخرفة الكتاب . والمنمنم ( بكسر النون الثانية ) Miniaturiste : صانعها . والمنمنة : L'art de la miniature صناعتها . والكتاب منمنم ( بفتح النونين ) à miniatures

(٤) انظروا كتابه « التصوير في الاسلام » ط أكسفرد ١٩٢٨ ، ص ٩٢ .

(٥) « التصوير الاسلامي » لندن ١٩٢٩ ، ص ٢٢ .

محمد بن عبد الله وقد وصلت إلينا إنما ترقى إلى فاتحة القرن الثامن الهجري ، داخلة في نطاق التصوير الفارسي ، على حسب ما أثبته اولئد [١] .

واليوم أقدم إليكم متممة عربية من بدء القرن السابع الهجري ، ترجع الى الطريقة البغدادية العربية . وهي تعرض حادثاً من حوادث السيرة النبوية . وفيها يبدو الرسول ووجهه غير محجوب بنقاب كالذي يحجبه في طائفة كبيرة من المتممات الفارسية اللاحقة .

إن هذه المتممة تشغل صفحة كاملة . وقياسها ( بأطراح الشريطين المؤخرفين ) ١٨٫٨ سنتمتراً طولاً و ١٤ سنتمتراً عرضاً . وهي تقع في وجه الورقة الثانية من مخطوط عربي محفوظ في دار الكتب بالقاهرة . والمخطوط رقمه ٥٧٩ أدب . وهو الجزء الحادي عشر من كتاب الأغاني لأبي الفرج الإصفهاني .

أمّا تاريخ هذا الجزء الحادي عشر فهو محدد في الثلاثة الأسطر الأخيرة المرقومة في ظهر آخر ورقة . ومنها يتبين أن هذا الجزء كتبه محمد بن أبي طالب البدري سنة ٦١٤ هـ أي ١٢١٧ — ١٢١٨ م . وفي ظهر المتممة مباشرةً يبتدىء نص هذا الجزء الحادي عشر بعنوان الفصل الأول . وهو — بعد البسملة — كما ترون : « خبر أساقفة نجران مع النبي صلى الله عليه وسلم » .

وهذا هو الخبر الذي تمثله المتممة . وجوهر الخبر ما ورد في نص الأغاني بشأن « المتحنة » [٢] . والمتحنة التي أرادها وفد نجران حادث سابق لحادث « المباهلة » المشهورة : فهذا الرسول ( الجالس في وقار وأبهة يعلوه ظلكان متقابلان تاجان فوق رأسه وهاج النصر ) يرونه يستقبل أسقف نجران وعاتبها العبادة في طبيعة عيسى بن مريم (سورة آل عمران ، الآية ٥٩ وما يليها ) . إنّ المتممة في حال من الحفظ جيدة على الإجمال ، مع شحوب في الأصباغ الرقيقة . ولكن مما يؤسف الأسف أن بعض الكاشطين للتصوير أقبلوا بأيديهم عليها فشوّهوها ، فالأوجه — ولا سيما أوجه الرسول والملكين — محكوكة ملطخة . ومهما يكن من شيء فإن المتممة لم يغير من أوضاعها الأولى أية معالجة متأخرة .

وإني أبادركم بأنا لا نعرف لهذه الصورة الفاخرة سابحاكيها وبواطنها من قبل ولا من بعد [٣] وهذا يحتى الآن — يبطل فرض أنموذج أصلي قد يكون المصورون المتممون احتذوه من عهد الى عهد

إن هذه المتممة مطوية غير منشورة . ثم إنها مهملة في المصادر والأثبات المتقصية

---

(١) « التصوير في الاسلام » ص ٩٣ وما يليها .

(٢) انظروا ج ١٠ ، ص ١١٣ وما يليها ، من الأغاني ، ط بلاق .

(٣) أن هذه المتممة تباعد الصورة التي تمثل مشهد « المباهلة » في مخطوط « الآثار الباقية » للبيروني ( انظروا A Survey of Persian Art ج ٣ لوح ١٨٢٥ ) .

التي صنفها المتخصصون من الباحثين [١] . بل هي غير مذكورة في فهرس « دار الكتب » القديم والحديث على السواء [٢] . وأخطر من هذا أن في « بيان » الجزء الثاني من كتاب الأغاني الذي طبعته دار الكتب سنة ١٩٢٨ ( س ج ال و ) تفصيلاً للأجزاء المخطوطة المحفوظة في الدار تحت رقم ٥٧٩ أدب . وهي الجزء الثاني والرابع والحادي عشر والثالث عشر . ففي هذا البيان وصف للمنمنمتين اللتين تزينان أول الجزأين : الثاني والرابع . وأما منمنمة جزئنا الحادي عشر فلا ذكر لها على الاطلاق [٣] .

والظاهر أن من طريق هذا البيان الناقص نشرت المنمنمتان اللتان تزينان الجزأين الثاني والرابع ، في القاهرة [٤] ثم في ڤينة [٥] ، وأدرج ذكرهما في اثنين من المصادر المستقصية [٦] .

وقد تكررت في الأمر ، فبدا لي أن بحث الباحثين لم يذهب حتى فحص الأجزاء الثلاثة المخطوطة فحصاً دقيقاً . فلم يكن بد إذن من التنقيب . فأقبلت على المراجعة إقبال محاول ، أحقق ذلك البيان المنشور في الجزء الثاني المطبوع سنة ١٩٢٨ ، لأن دقته كانت موضع شك عندي : فيم الجزء الحادي عشر المخطوط لا يتزين أوله بمنمنمة ؟ وهكذا استطعت — والجزء الحادي عشر بين يدي — أن أنجلي من قلم النسيان وثيقة إنما اكتشافها يمد في عمر التصوير الديني الإسلامي قرناً ( من بداية الثامن الى بداية السابع ) ويستخرج أثراً فريداً يمثل النبي في زمن التصوير السابق للتصوير الفارسي . وهذا الأثر — فوق ذلك — يقوم مقام شهادة عظيمة العون في مسألة كثر فيها النقاش ، وهي تمثيل الأحياء في الإسلام ، أمحرم هو أم مباح ؟ ولهذه المنمنمة فضل أخير إذ تفتق أفقاً جديداً لاستطلاع أصول زاخرة لفن ديني يثبت بالرسوم والأصباغ حركات نفس منجذبة على سمو .

بشر فارس

---

(١) شتركين : المخطوطات المزوقة الاسلامية في دار الكتب بالقاهرة في مجلة Gazette des Beaux-Arts سنة ١٩٣٤ ، ج ١ ، ص ١٣٨ وما يليها .
هلتر : « المخطوطات الاسلامية المنمنمة ... » لايبتسج ١٩٣٧ ، ص ١٠ ، رقم ٣٦ ب .
ختمان ، كرتس ، انجهوزن : « تعليقات مضافة الى سرد هلتر ... » في مجلة Ars Islamica سنة ١٩٤٠ ، ج ٧ ، قسم ٢ ، ص ١٥٣ ، رقم ٣٦ ب .

(٢) فهرست الكتب العربية الموجودة بالكتبخانة الخديوية ، القاهرة ١٣٠٧ ( ١٨٨٩ ) ، ج ، ص ٢٠٥ ، ب ؛ فهرس دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٧ ، ج ٣ ص ١٩ .

(٣) أما الجزء الثالث عشر المعروف من أوله (ورد هذا في البيان المذكور وقد حققته) فساعمنمنمته بذلك.

(٤) أحمد موسى : « في تاريخ تصوير الكتب الاسلامية بمصر » ( بالالمانية ) ، برلين ١٩٣١ ، الفولان ١٦ و ١٧ ، النص ص ٣٨ — ٤٠ .

(٥) هلتر : « مخطوطة جالينوس ... » في مجلة Jahrbuch der kunsthist. Samml. in Wien ج ١١ سنة ١٩٣٧ ، اللوح ٦ ( ١ و ٢ ) .

(٦) هلتر : « المخطوطات الاسلامية المنمنمة ... » رقم ٣٦ ب . ختمان ... « تعليقات مضافة الى سرد هلتر ... » رقم ٣٦ ب » .

# ذات سحر قاهر[1] ...

الاهداء :

الى سلمى فيلوس ...

قدم الربيع . وفاح في الجو أريج زهره وعطره . وأريج الحب أيضاً . كان صباحاً جميلاً وأحس هو في نفسه بجمال نفسه يعانقه جمال الكون ... لقد امتدت في أعماقه روحه سحابة من دخان ساحر غير منظور . دخان الجمال والاغراء والفتنة خرجت من بقية العالم وأخذت تنمو وتنمو حتى غمرته في حنايا . فلم يعد يحس ولا يرى ولا يشعر الا جمالاً في جمال .

زال هذا الاحساس الطاغي كيانه الروحي وأحس كأن شيئاً خفياً في أعماقه يسرقه لأمر خطه القدر ، إن همهوماً طافياً يعربد في عروقه حتى لتصرخ كل جارحة من جوارحه : لا أريد أن أرى إلا كل جميل ، كل فاتن ، كل مغر ... جنبني الآن أي منظر لا يفتن ! ولكن همس في أعماقه صوت ضعيف : والموعد ؟ موعد الصديق الذي جاء من أقصى الصعيد لأمر ذي بال ؟ صرخ إحساسه الطاغي محتقاً : قلت لك الجمال . الجمال . ولا شيء الآن غير الجمال ... وجد نفسه يسير في شارع فؤاد حيث معرض الجمال الدائم الذي يعتقد كل يوم صباح مساء حيث لا تتخلف فادة من فادات القاهرة تعمر بفتنة من الفاتن عن الحضور لتعرض جمالها وفتنها على العبّاد والرعايا ... الرعايا المساكين الذين ينظرون صامتين ذاهلين أحياناً وسعربدين سُكارى من خمرة النشوة في بعض الأحايين !

كم قابله من صديق في طريقه فتخلص منه بشكل غير مهذب ، وكم اعترضه معترض بالمصافحة فأثار حنقه أي ثورة لم يستطع كبحها إلا بجهد شديد . ومع ذلك بدت في قطع الحديث فجأة والسير في طريقه بين دهشة الصديق وعجبه . ها هو ذا الآن في شارع فؤاد . تتنفس الصعداء من أعماق صدره وأحس بسعادة الغريب حين يرى أهله ومحبيه . ها هو ذا يرى نفسه وسط بحر مائج بالفتنة والاغراء موجاته الضاحكة المتناغية من العذارى والغيد

(١) من كتاب «القاهرة الساهرة» يطلب من لجنة التأليف والترجمة الحديثة ص.ب ١١٣٥ القاهرة

الحسان . . غيدٌ كأنهنّ في عيد . . أخذ يُسائل نفسه . . . تُرى هل رأى هارون الرشيد مثل هذا ؟ وهل صَعّد عمر بن أبي ربيعة بمثل هذه المقاعد ؟ بل ما يقرب من هذه المقاعد ؟ وهل في الوجود أبدع من هذا ؟ وخيّل فنّ بفكره الى الجنة ولكنه لم يستطع تصورها بأبدع مما يرى .

أخذ يلتهم بعينيه كل جميلة . هذه الفاتنة السمراء بقوامها الشهي وخطواتها الرشيقة المتغرزة كطي نافر . وتلك . . . ، يا للعيون السود المفعّمة ذات الهُدّب المشرعة كسنان رمح قاتل ! وهذه الغادة المضيئة كالبدر وتلك الصغيرة النديّة كتفاحة تُغري ، وذات الشفاه المختومة بالهب ! . . أنظر . . . يا لتفرنجي التوائر الساحر ! آه لو أرشفه ! . . وفي وسط هذا الغمر الذي لا ينتهي من الجمال وكأنما يفيض من نبع الخلود ، كم ثارت برأسه من أمنيّات واهتملت بقلبه رغبة ، وأحرقت مروقه خطره وكم تمنى لو كانت ذراعاه وظهره وحتى مؤخرة رأسه كلها عيوناً فلا تفوته لمحة من هذه الأسراب التي كأنما راعها في الخلد شيء فاندفعت من الأبواب متلاحقة كأطياف الأحلام السعيدة أو طيرة في اختيال كأنهنّ ربّات . . . وها هوذا يحس طلة غريبة حين يلامس طرفاً من ثوب إحدى الجميلات العابرات أو حين يضطرها الزحام أحياناً للاحتكاك جسداً بجسد . ترى هل تشعر الجميلة بمثل هذه اللذة حين تلامسه ؟ وتخيل جوّاء تجيبه على سؤاله في ابتسامة ماكرة . أهي لا ؟ أهي نعم ؟ لا يدري . . وظلّ على هذه الحال وقتاً لا يدري مداه وظلّه لا يقف عند حد . ونهمه لا يهدأ بل يزداد وكأنما لاحدّ لها ولا نهاية بل إنه ليُحس فعلاً أن لاحد لها ولا نهاية ! وفي هذه اللحظة خطرت بفكره خاطرة : انني أنا نفسي ما أنتهي فكيف يُبدع المنتهي ما لا حد له ولا نهاية ؟ أدهشته هذه الخاطرة فضحك من نفسه ضحكة عريضة . لقد أثرت فيه قراءات الفلسفة وها هو يفلسف في موقف لا يحتمل غير المتاع والتلذذ . ولكنه عاد يقول في نفسه وما موضع الغرابة ؟ ان سقراط لم ينشيء أبدع محاوراته إلاّ عن الجمال وفي منظر الجمال الإنساني بالذات ، وهل كانت أعياد باخوس وديونيزوس وأبولون إلاّ أعياد الجمال والمتاع والتلذذ ؟ وبينما هو في موقفه تداعبه هذه الأحاسيس وتحيطه أمواج الجمال المتدافعة من حوله وعن يمينه وعن شماله وهو يتنقّل في تنوقه لها بين تلذذ الحس ونعومة الروح . خارقاً في استمتاعه وكأنما يريد أن تقف حركة الزمن ودوران الكواكب وتنبض الوجود فلا تبق إلاّ هذه اللحظة خالدةً أبدية . . . في هذه اللحظة وعلى حين فجأة ، كما يلتمع ضوء البرق الخاطف في أحشاء الظلام المدلهم ، رأى ما أذهله فأغمض عينيه عن كل ما حوله ولم يعد يرى سواها . . . . تلك التي برزت كالبرق الخاطف

تفتق الظلام وهي حائرة بجسدها المضيء ورأسها المرتفع وقوامها المنسرح المتقد، كأنما أفلت من يد المثال لساعته . لقد سُمِّر في مكانه وفقد كل قدرة على الحركة إلا أن يكون لها ظلاً . . . حيثما توجهت فهو لها تبع . لقد أحس بنفسه وقد استحال زهرة تلك الزهرة التي تعبد للشمس حيثما تحركت في السماء استقبلتها وجهاً لوجه ولكن العجب قد تملكه . . . إنه ليتذكر أنه رآها قبل الآن في مكان ما . . هي بعينها . نعم هي . رآها هناك في قاعة من قاعات متحف اللوفر عارية بجسدها ورأسها الشامخ وشعرها المعقوص هو بعينه ولونه وطيلته بل ورائحته . . .

أفاق قليلاً من أثر الصدمة فرأى كل من حوله ينظر نحوها مأخوذاً بجمالها ولكنها تصرع الرائي بتيار دافق من الجلال والرهبة فلا يجرؤ ان يرفع النظر اليها كرة ثانية فيمضي عوقه الحسرة . . . لم يبق إلا هو متمرداً ثائراً على هذا الجبروت . جبروت الجمال ورهبة الآلهة . لاشك إنها ربة من الأرباب هبطت الأرض حديثاً . فهتف في اعماق نفسه وقد صمم . . . حسناً وهل لنا إلا الصراع مع الربات ؟ وانه ليتمنى لو يموت في المعركة أكثر مما يتمنى أن ينتصرا

وانعطفت فجأة الى منعطف يخلو من المارة تتأمل معروضات متجر من المتاجر . فاندفع وقد أحس باحساس يهز كيانه كله . أية قوة وأي سر قد انبثقا في كيانه ؟ انه ليحس في هذه اللحظة ان أعظم قوة في الوجود لا تستطيع أن تحول بينه وبين ما يريد . . . وتقدم :

هو — لا تُسرفي في الظن . أنا رجل قد نذرت حياتي وروحي ودمي للجمال وأراك الآن ربة بعينها !

هي — ( تنظر صامتة وقد ملتها الدهشة ) .

هو — ان الآلهة تطرد من رحمتها من تتاءب ولا راد لمشيئتها، فمشيئتها هي القدر . ولكنها لا ترفض أبداً قرباناً من القرابين .

هي — ( بصوت خافت كأنما تناجي نفسها ) لغة غريبة !

هو — وإنك لغريبة عن هذا العالم ومن يخاطبك بلغة الأرض فهو كافر !

لم تكن كلماته ألفاظاً بل سيالاً كهربائياً اندفع نحوها من بين شفتيه وقد أحس به حين لمس أطراف روحها فاهتزت في أعماقها هزة خفيفة ، ولكنها عادت وتماسكت

لم يدر ما قال بالضبط ولكنه شعر انه قال كلاماً مقبولاً ، فها هي ذي وقد بدت عليها مظاهر الارتياح والطمأنينة . وفي هذه اللحظة يشاء القدر إلا أن يتم اللوحة العجيبة . ربة وفنان، وعجوز من عجائز أثينا خرجت من المتجر وقد خدعها مظهر الثبات البادي على المتناجيين وظنتهما أليفين من زمن ، ولم تدر انهما وُلدا منذ لحظة : فتوجهت نحوه تطلب ثمناً تشمل

به سيجارة . كان هذا الحادث البسيط يعصف بالموقف كله من أساسه فقد لاحظ هو أنها انتهزت فرصة انحناء العجوز وحاولت الإفلات ، لاعتقاد انها كانت تحاوله من قبل ، ولكنها لم تستطع مجاراة العجوز لما كنجده من الماء . وبالهام خفي كالغريق الذي يستجمع كل قوته في اللحظة الأخيرة ليتشبث بالحياة أسرع فأرسل السيال الكهربائي من بين شفتيه دافقاً حاراً متلاحقاً . فسُمِّرت في مكانها واضطرت أن تقف لتجيب في اضطراب مكتوم على تلك الأسئلة الحامية المصوبة في التسميم . في الوقت الذي كان هو قد أخرج علبة ثقابه وحاول في اضطراب ظاهر أن يشعل للعجوز لفافتها . ولكن عبثاً . وأحست العجوز بالجو الكهربي فانسحبت بسرعة دون أن تنال بغيتها وهكذا أنقذ الموقف ...

تبادلا الحديث بعض الوقت وأحسّ كل منهما بإحساس غريب . ان اجتماعهما قد خلق مجالاً مغناطيسياً يموج بقوى فوق طاقتهما احتمالها ، ولكنها ربطتهما الى الأبد كأنها القدر لا مفر من حكمه . انه هو نفسه يريد الآن أن يهرب إنه لا يحتمل كل هذا الاحساس الذي يسحق روحه . انه يريد أن يخلو الى نفسه ليسألها عن سر ما حدث وماذا دهاها ؟ . ولكنه في نفس الوقت شعر في أعماق قلبه أن هذا الاحساس الطاغي وهذه القوة الساحقة هي سر وجوده بل سر حياته قد تكشّف له اللحظة. وانه بدونها يغدو هيكلاً تافهاً... وافترقا على موعد .

عجباً . ما هو يسرد مفترقاً شارع فؤاد مسرعاً لا يلوي على شيء . ولا يُلقي نظرة على ما يموج به من المتناقض ، تلك التي كانت منذ قليل تستولي على كل مشاعره وتثير فيه النهم والرغبة والظمأ الذي لا يرتوي . كيف تلاشى كل هذا ؟ بل كيف استحال في نظره عدماً . هباءً . بل لا شيء . لكأن يداً خفية قد أسدلت على كل تلك المناظر ستاراً من التفاهة ... ها هو يعبر الشارع مسرعاً ملتمساً في طريقه الأزقة والشوارع الخالية من المارة ومن الجميلات بالذات .. ان منظرهن أصبح يثير في نفسه المقت والاحتقار ... ها هو يعبر مسرعاً شارع قصر النيل فوقع نظره على حسناء سبق له أن رآها قبل اليوم فسحره جمالها وتمنى لو يراها مرة ثانية . ما بال حسنها الآن يثير في نفسه شعور الاشمئزاز والغثيان؟ وأسرع في طريقه ملتمساً الوحدة . وهناك حيث جلس بعيداً عن الناس واختلى بنفسه أخذ يستعيد صورتها وحديثها ومشيتها أو قل يستمتع بهذا كله فما يرسم ذهنه فط لمحة من هذا كله . . .

أي سحر قاهر في تلك المرأة؟ أو تفعل حقاً امرأة كل هذا ؟ نعم وأكثر من هذا لو تراها ..

القاهرة محمد فهمي

# باب المراسلة والمناظرة

أخطاء في نقل كتاب :

## المسرحيّة في شعر شوقي

أصدرت المقتطف لحقاً باعداد ابريل ومايو ويونيو سنة ١٩٤٧ بعنوان المسرحية في شعر شوقي ، ولقد كان المؤلف — محمود محمد شوكت — موفقاً في نقده كل التوفيق كما كان بارعاً في عرض مسرحيات شوقي بأسلوب موجز يغني من يريد أن تتكوّن لديه فكرة عامة عنها دون الدخول في التفاصيل ويذكر من طالعها فيصبح وكأنه طالعها من جديد ولكن لدى مطالعة هذا النقد وجدت أن المؤلف أخطأ أو غفل في نقل بعض أبيات شوقي بصورة صحيحة تتناسب مع أمس العروض المعروفة لاسيما وأنّ هذه الأبيات هي من قصائد ذات بحر واحد لا من الأبيات التي يرسلها أحد أشخاص الرواية على غير بحر واحد وعلى غير قافية واحدة أو على قافية واحدة مع اختلاف البحر وها أني أدرجها أدناه مع عناوين رواياتها وردنة بالتصليح مني دون الرجوع الى أصلها في شعر شوقي — رحمه الله — فلعلّ الأستاذ المؤلف يعيد النظر في أصلها ويصلحها حسبه وها هي الأبيات :

(١) — (في مصرع كليوباترة)

في الصفحة ٦٦ جاء هذا البيت وما بعده « من مجزوء الكامل مع الترفيل

« حيـاتي في يديه والناس يحيون قسرا

وصحيحه : إنّ حياتي في يديه والنـاس يحيون قسرا

(٢) — (في مجنون ليلى)

في الصفحة ٨٠ جاء هذا البيت وما بعده من مجزوء الرجز

« إذهب وإن لم أدرِ رو ح أنت مع شبح »

وصحيحه : أن يكون شطره الثاني « مع كنت أنت أم شبح » كيما يستقيم مع ما تبقى من الأبيات .

( ٣ ) — ( في قبيز ) .

في الصفحة ( ٩٣ ) جاء هذ البيت على هذه الصورة وهو من الخفيف

من أمازيس ما الأميرة ما مصر ؟ أي الأرض من بقمبيز يهزا

وصحيحه عروضاً :

من أمازيسُ ما الأميـ ـرة ما مصرُ من بقمبيزَ يهزا

( ٤ ) — في علي بك الكبير ( دولة المماليك ) .

في الصفحة ١٠٤ جاء هذان البيتان وهما من البحر الطويل مضطربي الوزن

ونحن اصبحنا ابن السبيل ولم يكن يسل له فوق الطريق أدام

ونحن حضنا اليتيم نمسح دمعه وآواه منا محسنون كرام

وصحيحهما ( ونحن صبحنا ابن السبيل ولم يكن . . . الخ ) ونحن مسحنا للتيم دموعه . . . الخ ) أو ( ويصبح منا ابن السبيل ولم يكن . . )

وفي الصفحة ١٠٥ جاء هذا البيت غير مستقيم عروضاً وهو من الطويل أيضاً .

« نفاني » من كان عند اهارتي يصول بجاهي أو يعيش بمالي »

وصحيحه وزناً هو أن يكون صدره بهذه الصورة « نفاني الذي قد كان وهن ( عند ) إهارتي ) وفي نفس الصفحة نجد هذا البيت خاطىء الوزن على البسيط كما يفسره ما بعده :

« قف ، أنت عبد المال يا أبتي تلق البريء لأجل المال في النار

الصدر من الكامل والعجز من البسيط في هذا البيت ويصح بهذه الصورة :

قف ، إنما أنت عبد المال يا أبتي تلق البريء لأجل المـال بالنار

وفي الصفحة ( ١٠٨ ) هذا البيت خاطىء الوزن على الخفيف كما قبله اذ أن ضربه يحتوي على ( فعولن ) وهي لا تأتي الا في مجزوء الخفيف وهذا هو

« ويح قلبي يحبه . كذب القلب وبعداً لحب إلفو بعد » وصحيحه وزناً ،

( ويح قلبي يحبه . كذب القلب وبعـداً لحب إلفيَ بعدي )

وفي نفس الصفحة جاء هذا البيت خاطئاً من الخفيف وهو :

هو مستهتر مشى على حجراتي وتنامى أمانة الزوج عندي

وصحيحه أن تحذف منه ( على ) كما تقول ( مشيت الطريق )

وفي المجموعة الثالثة بنفس الصفحة يجب أن تكون ( ربي ) بلا ياء فيكون صدر البيت ( رب لا تجعل العلاقة الا ) صحيحاً على الخفيف وفي الصفحة ١٠٩ جاء هذا البيت من الكامل خاطئاً عروضاً وهو :

« لا يا علي ، رويداً في الغضب ، إنك ما تلك خطة حكمة ورشاد

وليستقيم إما أن تجعل رويداً غير منونة أو أن تضيف لها كاف الخطاب ( رويدك ) مع حذف ( في )

( ٥ ) في ( عنترة )

في الصفحة ١١٧ جاء هذا البيت من الخفيف خاطئاً وهو :

« حط عفافي وحام عن قوس العز ى ورد القصوص عني »

وصحيحه : (حط عفافي وحام عن قوس عزي — لترد القصوص عني وتلفي

( ٦ ) في (الست هدى)

في الصفحة (١٣٢) نجد هذا البيت مضطرب الوزن على الخفيف أيضاً :

اسمعي زينب اسمعي يا صديقتي لك هـــذا الديوس

زينب : لي أنا

الست : بعدي

ولتصحيحه يجب أن تحذف كلتا لك هذا ) ويستعاض عنها بكلمة ( فهاك ) . هذا ما وجدته من غفلات النقل في مؤلف المسرحية في شعر شوقي ولعلني قد فاتت عليّ أشياء أخرى نرجو أن يلتفت اليها المؤلف ويدققها في أصولها لان ما وصلته مرتجل عفي وليس طبق الأصل . ومن هذا لا تتفق مع القائلين بأن العروض لا فائدة منه بل قد وصفه أحدهم بجريمة — الخليل الفراهيدي — وفائدته أنه يثبت رواية الشعر الصحيح وشرط أساسي للشعر المنظوم لأن الشعر « هو الكلام الموزون المقفى » والكلام هو ما تكوّن من عدة كلمات وأفاد معنىً صحيحاً . وعلى كل فلولا العروض لأصبح الشعر فوضى لا نظام له لان المعاني بسيطة وكثيرة المآخذ وهي كما قال أحد الأدباء رهاش طائر من ألوف الأنواع .

البصرة رشيد الشعر

# باب الأخبار العلمية

## من معجزات العلوم والفنون

### الميدروفون — مسبار أعماق البحار والمحيطات

### والدليل الى مواقع الغواصات وغيرها

يستخدم الصدى استخداماً عملياً في جهاز يعرف باسم (هيدروفون) وهو الذي يمكّن السفينة من قياس عمق المياه التي تمخر عبابها وذلك بترجيع الصدى. وتحمل السفينة جهازاً آخر يذيع لموجة الصوت ذات الكثافة العظيمة الانطلاق في غور المياه. ويتم هذا العمل عادةً بتفجير قذيفة صغيرة من قذائف الأعماق.

ويسير الصوت في الماء، الى قعر البحر ومن ثمة يرتد الى سطحه حيث يلتقطه الميدروفون. وقد اخترع هذا الجهاز خاصة لاكتشاف موجات الصوت التي تنطلق في غور المياه. وفي هذه الحالة تسجل الفترة التي تنقضي، من وقت انطلاق الموجة الصوتية، من السفينة، الى تلقي صداها. وعندئذٍ يمكن معرفة سرعة الصوت في المياه. وبهذه الوسيلة يستطاع بسهولة، تقدير عمق البحر. ولهذا الجهاز نفع عظيم جداً للسفن، إذ يمكنها عن بعد، من اكتشاف الصخور وحطام المراكب وجبال الجليد، التي قد تصادفها في طريقها وقد وصفته في كتابي «الصناعات والصناع» الذي أصدرته في سنة ١٩٢٦ وتطلق موجات الصوت بطريقة أشبه باطلاق شعاعة المصباح الكشاف الى بعد. ويتسنى اكتشاف الصدى عن طريق ذلك الميدروفون الحساس. وهو مؤلف من حلقة معدنية ثقيلة ذات طبلة فولاذية رقيقة. ويتصل بوسط هذه الطبلة غلاف مميك «لا تخترقه المياه» يحتوي على ميكروفون حساس يحس بالموجات الصوتية. وهو يكاد يشبه ميكروفون التليفون ويؤلف من قرصين معدنيين تفصلهما حبيبات من الفحم. وحالما تسقط على تلك الطبلة موجات الصوت، التي تتولد من الصدى، تصل ذبذباتها الى الميكروفون حيث تنتقل الى أداة متنقلة منصوبة على مقر ربان الباخرة. وعلى هذا النمط يتاح للربان تقدير عمق المياه التي تحت مركبه. ومن البديهي أن موجات الصوت تلطم وجه تلك الطبلة وظهرها. فاذا أريد جعل أحد ذينك الوجهين أصم، تلصق به لوحة صلبة تسمى بالمعطّلة. وهذه تمتد من وجه الطبلة الى مسافة قصيرة فتجعل ذلك الجانب من الطبلة غير حساس بموجات الصوت. وهذا من هنا نه جعل أحد الوجهين عمياً دون الآخر

ثم إنه بإدارة الهيدروفون أدارة وئيدة على محوره ، يتيسر تعيين الجهة التي ترد منها الموجات الصوتية تعييناً قلما يلابسه الخطأ . هذا وقد شاع استخدام الهيدروفون في ابان الحرب العالمية الأولى وذلك لاكتشاف وجود الغواصات في أعماق البحار . وتصنع هاليك الطبلات من الصلب الذي لا يصدأ لأن الصلب العادي معرض للتأكسد « التأكل بالصدأ » بمياه البحار ، وذلك من التفاعل الكيميائي الذي يتولد من المعادن الذائبة فيها .

## قنابل لانقاذ المشرفين على الغرق

اخترعت في خلال الحرب العالمية الثانية وسيلة لانقاذ الملاحين والطيارين الذين يسقطون من سفنهم أو طائراتهم عند اصابتها بأي مكروه في مسافات نائية من البحار ، تؤلف من جهاز لالتقاط الصوت من أعماق المياه اخترعه رجال البحرية الأمريكية بمعاونة علماء معهد مباحث المحيطات ، ثم قذيفة تغور في الماء محتوية على المادة الشديدة الانفجار المسماة T. N. T ، يلقيها الطيار أو الملاح الذي تطوح به طائرته أو تقذف به سفينته أو بارجته ، فتنطلق وتغور الى عمق يختلف بين ٣٠٠٠ قدم و ٤٠٠٠ قدم حيث تولد أمواجاً صوتية لا تلبث أن تلتقطها الهيدروفونات المنصوبة على شواطىء المحيط . وبهذه الوسيلة تتاح معرفة مقر أولئك الجنود أو الركاب أو الطيارين المعرضين للهلاك . وذلك في نطاق ميل مربع من مياه البحر ، على بعد ألفي ميل من الشاطىء .

وعند ما يراد تحديد ذلك الموقع لا بدَّ من التقاط موجات الصوت المرتفعة من اللجج ، وذلك بوساطة ثلاث محطات ساحلية منفصلة بعضها عن بعض انفصالاً سحيقاً ، مما يستعمل فيها الهيدروفونات ، في مثل ذلك العمق . ثم يقوم مدير كل محطة منها بتسجيل الوقت الذي يتلقى فيه الاشارة ، ويراجع الفرق بينه وبين زميليه ويتم هذا طبقاً لخرائط خاصة ، فيستطيع مديرو تلك المحطات تحديد موضع الانفجار ، وذلك في خلال بضع دقائق ، عقب وصول الاشارة الى أبعد محطة .

## تايبرايتر تستعمل عن بعد

اخترعت في أمريكا آلات تايبرايتر ، تتاح إدارة مفاتيحها عن بعد . وذلك للمرضى الطريحي الفراش والضعفاء الذين لا يسعهم مغادرة فراشهم في مستشفيات المحاربين القدماء . فيمكنهم إدارة المفاتيح المركبة في اللوحة البعيدة عن الآلة ، أيّا كان الوضع المريح الملائم للكاتب المشوه سريره . وذلك لأنه كلما يضرب على مفتاح حرف من الحروف المركبة في لوحة الآلة ، تسري منه نبضة كهربائية الى الحرف الأصلي الثابت في صلبها فينطبع في القرطاس على ما يرام

## موقد كهربائي ذو نافذة ومصباح

اخترع في أمريكا فرن من أحدث المواقد له نافذة من زجاج پايركس ، تتيح لربة الدار مشاهدة دجاجها ، وفطائرها وبسكوتها عند تمام نضجها . وبهذه الوسيلة تستغني عن فتح بابه لتفحص المواد المقصود طبخها ، فتتفادى ضياع حرارة الفرن سدًى ، كما تجتنب تسخين المطبخ بلا موجب ، إذ تستطيع بتلك العارية مشاهدة محتويات ذلك الفرن ، واضعة أمامها دون فتحه . ويقوم بإضاءته حينئذٍ مصباح كهربائي من عيار ٢٥ و ط .

## كيف يمكن التغلب على السل في بدئه

الرئتان من أضعف أعضاء الجسم البشري . ولذلك يموت بالتدرن صنويًّا مئات الألوف من الناس ، في كثير من آفاق العالم .

ولا دواء لهذا الداء العياء ، ولا علاج ناجعاً له حتى اليوم ، مما توصل اليه العلماء إلا راحة المصاب به وتغذيته بأطيب الغذاء فيتمكن جسمه بتينك الوسيلتين ، من مكافحة ذلك المرض . وهذا أمرٌ جد ميسور ، إذا ما تكشفت الاصابة به مبكراً . اذ المعروف أن جرثومة التدرن تفاير أغلب أنواع البكتيريا . وذلك بكونها تظل مستترة في غلاف رقيق من الشحم ، فيحول هذا الغشاء دون وصول جميع الأدوية التي اكتشفت لقتلها . ومن ثمة تأخذ في النمو آمنة مطمئنة رويداً رويداً . وفي إبان ذلك تموت الانسجة المحيطة بها ، فتتكاثف هذه الانسجة وتتحول شحماً . وحينئذٍ لا يحدث خالياً للمصاب أي ألم أو نزيف يتم على وجودها هناك .

وانما يستدل على تفشيها في رئتي المصاب بالسل الذي تلقيه تلك الكتلة الدخيلة على الفيلم عند ما يتم تصوير صدره بأشعة رنتجن (١)

ومما يسرنا تسجيله ههنا أن كلية الطب بجامعة فاروق الأول بالاسكندرية قد اقتنت جهازاً لهذا الغرض يمكن فكه وتركيبه في أقصر وقت ، وهو مصنوع من معدن خفيف الوزن . وستحذو حذوها وزارتا الصحة والمعارف .

عوضه ميخائيل

(١) وبعد كتابة هذه النبذة نشرت في ١٧/٧/٤٧ بعض جرائد الطبة خبراً بعنوان « جهاز متنقل زهيد النفقات للفحص الجوي بالاشعة للامراض الصدرية جاء فيه : — حفل مدير ليبيس يوم ١١/٧/١٩٤٧ بطبيب من كبار الاطباء والمتخصصين في الامراض الصدرية لمشاهدة جهاز الفحص الجوي للصدر بأشعة رنتجن لجاعات المستخدمين والعمال بها ليتيسر كشف اصابة الرئة بها في أوائل مراحلها الذي يتبين بها كل تهتك في أنسجة الرئة مما يشير نذيراً باصابتها بمرض السل وسواه من أمراض الصدر وذلك على أفلام مصغرة مقاس ٧٠ م لمصادفة الاستحسان العام

## بين التصحيح والتوضيح

تابع للنشور في صفحة ١٥٢

ويقصد « بالجدلية » التعبير عن تواصل الأشياء تواصلاً حركياً ، وشمولية التغيُّر بما تتصف به هذه الشمولية من مظاهر التطرف والغُلُوّ . ذلك بأن كل شيء ( على ما يرى ماركس ) فيه وجه من الواقع الحقيقي ، إنما يقع تحت سلطان منظومة من التكيف الذاتي ، بحكم أن جملته أو بنيته إنما تتألف من عوامل أو قوى متعارضة ، ومن شأن حركتها الداخلية أن تواصل بين الأشياء . وعلى هذا ينبغي أن يرفض مذهب الآلية إذا هو لم يفسِّر في حدود المادية الجدلية ، كما ينبغي أن ترفض جميع الفوقيطبيعيات المستمدة من « الوجودية المثالية » [1] .

وإذن فليس في معنى « الجدلية » فلسفيًّا أو مذهبيًّا « أن المادة جدلية أو يحاول بعضها أن يجادل بعضاً في أطوارها المتتابعة » على حدّ تصوير الأستاذ العقاد الذي لم يقصد به إلاّ أن يغرس في ذهن القارىء مفارقة تخدش تفكيره . وهنالك فرق كبير بين المادة والماديَّة.

ليس في ذلك من ثنائيـة ، ولا من ثنوية . والمذهب كله لا يحتمل معنى التضعيف ، بمعنى واحد ثم اثنين . لا يحتمل ذلك لا من ناحية اللغـة ولا من ناحية الوضع . وليس فيه شيء من ثنائية المادة كما يقول ، بل فيه معنى التعارض بين العوامل أو القوى . وما معنى ثنائية المادة ؟ معناه المدرك بديهة أن المادة تتركب من هيئين أو من قوتين اثنتين ، كقولك الانسان « جسم وروح » ، فهذه ثنائية ، وكقولك الوجود « مادة وعقل » فهذه ثنائية .

أما القول بأن المادة ثنائية الخصائص لأنها تشتمل على الخاصة ونقيضها على حد قول الأستاذ ، فلا يدل على ان المادية ثنائية ، وانما يدل على ان « الخصائص » هي التي تتصف بالثنائية . وفرق بين القول بالثنائية منسوبة للمادة ، وبين الثنائية منسوبة الى الخصائص ! وماركس أبعد الناس عن ذلك القول بوجهيه ، لأنه لم يستند الى شيء منه في مذهبه جميعاً وعلى الإطلاق . « ففي الأمر الذي فيه تستفتيان » .

### ٥ — الوجود والعدم والموجود والمعدوم

قال الاستاذ العقاد :

« وقال الأستاذ مظهر عن كلمة الوجود ينتقد قولنا « إننا نعطي الوجود أزم لوازمه إذا قلنا إنه غير المعدوم » فعقب على ذلك قائلاً : ذلك قول غير مستقيم ذهناً لأن الوجود

(1) ibid, same page.

يقابله العدم ولا يقابله المعدوم » — نقول نعم ... ولكننا اذا قلنا الشيبة قصدنا بذلك الفيان . واذا قلنا العلم قصدنا بذلك المعلومات ، واذا قلنا الوجود قصدنا بذلك هذه الموجودات » . اه

ونقول بأن ذلك قد يقبل في لغة غير لغة العلم وفي غير لغة الفلسفة . لأن هذه اللغة لا تتجوّز في تحديد المعاني الدقيقة لكل لفظ. على أننا لا نقبل هذا المذهب التعبيري في لغة الأدب العام إلاّ بتجوّز ، فكيف بنا نقبله في لغة الفلسفة ، إلاّ أن نكون الى جانب التعسّف أدنى ، بل لا نبالغ اذا قلنا أننا نكون الى الخطإ الصرف أقرب شيء

أضف الى ذلك ان مقابلة الوجود المعدوم ، خطأ : لأن الوجود من الكليات ، والمعدوم من الجزئيات. فكيف يصح مقابلة الكلي بالجزئي في بحث فلسفي ، أساسه التفريق بين أدق المعاني ؟

ناقش الأستاذ بعد ذلك في مسألتين : تتعلق أولاهما بمذهب « كونت » وثانيتهما بمذهب التطور . وقد يطول بنا الكلام اذا أردنا أن نظهر أن الأستاذ لم يفرق تفريقاً تامًّا بين مذهب « كونت » في « الارادات والأسباب » وفيما سمّاه كونت « دين الإنسانية » . والأمران على ما بينهما من صلة تركيبية في مذهبه ، لا يحتمل اتصالهما المعنى الذي خرّجه الاستاذ العقاد .

أمّا كلامه في مذهب التطور فظاهر من عباراته التي ساقها انه لم يفرق بين البحث في التطور والبحث في نشوء الحياة . إن الأمرين مختلفان جد الاختلاف .

أما قول الأستاذ — « إن أجهل همجيّ هو أصدق شعوراً بالعالم من الفيلسوف العصري الذي يحصر مسألة الحياة في هذا الحصر العجيب . لانه على الأقل يدرك للكون عظمة ورهبة تختفيان على الفيلسوف الذي يظن ان الأزال والآباد كانت في انتظاره حتى يظهر في سنة ١٨٠ أو ١٦٠٠ أو ٢٠٠٠ فيضع الكون كله في تلك العلبة الصغيرة ويغلقه هناك بالمفتاح الأخير » : فنقول فيه مجال للنظر .

فهل نصدق حقيقة أن أجهل همجي هو أصدق شعوراً بالعالم من لابلاس ، وكونت ، وكانت ، وداروين ، وبرجسون ؟ . اما الفيلسوف الذي يستطيع أن يضع العالم في علبة ويغلقها بمفتاح ، فانسان له عقل يزن ويرجح ويحكم ويقيس . فأين منه ذلك الهمجي الذي يعجز جهله وقصوره أن يحصر عدد أصابعه في اليد الواحدة ؟

والوقوف بين الماء والرمال لمشاهد الواقع ونصدق الحسّ ونرضي العقل ، خيرٌ في هذه الحياة من التحليق بأجنحة من الوهم ، حمل ما فيها من الحقيقة ان لا حقيقة لها .

اسماعيل مظهر

# مكتبة المقتطف

## ١ — في أعقاب الثورة المصرية

### للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك

الجزء الاول — ٣٣٠ صفحة من قطع المقتطف — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

في العام الماضي أصدر مؤرخ مصر الحديثة الأستاذ الكبير عبد الرحمن بك الرافعي كتابه ثورة سنة ١٩١٩ في جزءين تناول فيهما تلك الحقبة من الوعي القومي حتى سنة ١٩٢١ ، وهي حقبة ما زلنا نعيش في ظلال ذكرياتها — مرتبطة ظروفنا الحالية بحوادثها الماضية ، وملقاة أعباؤها على البقية من عركوا تلك الحوادث .

ولقد كان في عزم المؤرخ الكبير أن يقف بتأريخه القومي عند هذه الحقبة من تاريخ مصر الحديث ، ولكنه لحسن الحظ عدل عن ذلك وقام بتدوين الحوادث التي أعقبت هذه الثورة والتعليق عليها ، وهذا عمل يجد المؤرخ فيه نفسه محرجاً لأن فريقاً من أبطال حوادثه أحياء ، ولأن هناك عوامل من العداقات أو من الظروف تستلزم المجاملات ، وليست المجاملة من طبيعة المؤرخ ، وليس النقد في مثل هذه الحالة بالذي تستقبله النفوس لأنه يمسها .

لذلك لم يكن عجباً أن ينهض الأستاذ الجليل بهذا العمل مدفوعاً بنفس العوامل التي دفعته بها الى تاريخ الحركة القومية ناظراً إليها بعين بعيدة عن الحزبية وبعيدة عن الهوى لأنها قريبة الى الروح الوطنية تستمد إلهامها من الواقع على ضوء الحقيقة المجردة متسامية عن الزلق وعن الكراهية والبغضاء . ولذلك كان للمؤرخ صريحاً فيما كتب ، قوياً فيما سجل . وهو بين هذا وذاك الوطني النزيه الغاية السامي الهدف .

وقد تناول في الجزء الأول من كتابه الجديد الفترة من تاريخ عودة المغفور له سعد زغلول الى مصر في ابريل سنة ١٩٢١ وبدء محادثاته مع عدلي باشا يكن في صدد اشتراك الوفد في المفاوضات الرسمية التي دعيت إليها مصر لعقد المعاهدة بينها وبين انجلترا —

تلك المفاوضات التي كانت مصدر الانقسام . ثم عرض للموقف السياسي بعد قطع المفاوضات وما كان من الأحداث ومن الرغبة في التآلف حتى تولى الوزارة ثروت باشا بشروط اشترطها واقتنع بها الورد اللنبي . وتناول ما أعقب ذلك من وضع الدستور وما لازم هذه الظروف من اضطهاد للمعارضة واعتقالات لرجال الوفد ، ثم عرض المؤلف صوراً للحركات الوطنية التي قام بها الوطنيون والوفديون من عرض قضية البلاد في مؤتمر لوزان الى أن أشرف على تاريخ للحركة النيابية بعد وضع الدستور وقيام سعد باشا بتشكيل الوزارة بعد اجراء الانتخابات حتى وصل الى الماضي القريب والقريب جداً من ذاكرتنا جميعاً الى أن انتهى عند وفاة سعد باشا .

وهذا الكتاب على ما فيه من النقد يصح اعتباره توجيهاً خالصاً للسياسة المصرية واسترعاء النظر لتفادي كثير من الأخطاء التي وقعت وكانت سبباً في تأخير القضية المصرية حتى هذا الوقت ، وُضع في حيدة تامة وفي تقدير لجانب التاريخي قبل كل شيء .

## ٢ — القضايا الكبرى في الاسلام

٤٠٣ صفحة من قطع المقتطف — مطبعة التوكل بمصر

## ٣ — لماذا أنا مسلم ؟

١٩٢ صفحة من القطع الوسط — مطبعة مخيمر بمصر

أصدرت مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة فيما أصدرت أخيراً من كتب قيمة كتابين لمؤلف واحد يهدفان الى غرض واحد وإن اختلفت الصور وطريقة العرض في الكتابين .

والمؤلف أستاذ جليل من أساتذة الجامعة الأزهرية هو الباحث المحقق والعالم المتسع الأفق والأديب القوي العبارة الأستاذ عبد المتعال الصعيدي . عرفته منذ خمسة عشر عاماً من خلال كتاب أصدره عن زعامة الشعر الجاهلي دلّل فيه على رأيه في رفع لواء تلك الزعامة لعديّ بن زيد دون امرىء القيس ثم تتبعت ما كان ينشره على صفحات كثير من المجلات الأدبية من بحوث في الدين والأدب والاجتماع فعرفت فيه تلك المزايا التي أشرت اليها .

فأما كتابه الأول «القضايا الكبرى في الاسلام» فهو كتاب جليل الغاية عرض فيه لتسع وخمسين قضية من القضايا الكبرى التي عبرت تاريخ الاسلام منذ الرسول الى عصرنا الحاضر مفصّلة حسب كل عصر من أمثال مؤامرة المنافقين على المهاجرين وقذف عائشة وطلاق زينب بنت جحش وهكذا عصراً عصراً حتى بلغ العصر الحديث فتكلم على قضايا زوجية

السيد علي يوسف والغاء خلافة آل عثمان وكتاب الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي وذلك كله سواء أكانت في باب المعاملات أم في باب الجنايات أم في غيرها من أبواب الأحكام في الشريعة الاسلامية لتكون دراسة جديدة تناسب ما جدّ في عصرنا من الأصول التشريعية ولتكون معرضاً للقضاء الاسلامي في أزهى عصوره حين كان العدل رائده ، وما وصل اليه بعد ذلك حين تغلبت عليه الأهواء وزاحمته السياسة . وقد اجتمعت للمؤلف في هذا الكتاب عناصر ثلاثة جعلت للكتاب قيمة رفيعة ، فقد عرض قضاياه بروح القاصّ تخرج به عن نطاق السرد التاريخي الى العرض المشوّق ثم كتبها بأسلوب الأديب فبعث في خلال هذا العرض نفحات من التصوير الفني ، ونظر الى كل ذلك بعين القاضي الدارس لقضايا المتتبع لأصول التشريع فألقى الضوء على كثير من أسرار تلك القضايا وبسطها للحكم الحق وبذلك أدّى أجلّ خدمة أدبية دينية .

على أن في عصرنا لحديث قضية كبيرة كان لها من الأثر في الأذهان ما بقي حتى الآن ، تلك قضية كتاب « الاسلام وأصول الحكم » الذي ألفه معالي وزير الاوقاف السابق الأستاذ علي عبد الرازق حين كان قاضياً لمحكمة المنصورة الشرعية وبرهن فيه على ان الخلافة لم تكن من أصول الاسلام فحوكم المؤلف أمام هيئة كبار العلماء التي أصدرت الحكم بإخراجه من زمرة العلماء وأقيل يومذاك وزير العدل معالي عبدالعزيز فهمي باشا من منصبه لأنه لم يشأ تنفيذ فصل المؤلف من وظيفته بناء على هذا الحكم ... تلك القضية لم يتعرض الأستاذ الصعيدي لها مع أنها من أكبر القضايا الفكرية ، ولعل قضية كتاب في الشعر الجاهلي كانت خطوة متابعة لخطوة كتاب الاسلام وأصول الحكم . ولست أدري السبب في إغفالها مع أنه من الواجب درسها حيث انتهى الأمر بعودة الحقوق التي حرمها المؤلف اليه .

* * *

أما الكتاب الثاني وهو « لماذا أنا مسلم ؟ » فهو عبارة عن مناقشات أدارها المؤلف على لسان قسّ من المبشرين وشاب مسلم عرضا فيها لكثير من المسائل التي كانت موضع جدل في الدين الاسلامي واتخذ منها المبشرون تكأة للتشهير بالاسلام وتضليل شبابه وانتهى منها الى بيان الغايات التي دفعت هؤلاء المبشرين الى خطتهم فأوضح على لسان القسّ تلك الغاية وهي غاية بعيدة عن الدين المسيحي لأنها غايات سياسية يعملون لها تحت ستار الدين .

## ٤ — أبو الهول يطير

لمحمود تيمور بك — ٣٠٨ صفحة من القطع الوسط — مطبعة الاستقامة بالقاهرة

هذا لون آخر جديد من أدب تيمور وفنه فتح به باباً للباحث في تاريخ الأدب العربي الحديث، وهذا اللون كما هو جديد في أدب كاتبه فهو جديد في فن الرحلات لأنه قريب الى أن يكون قصة في رحلة أو رحلة في قصة.

فهذه خواطر كتبها المؤلف خلال رحلته الى أمريكا التي استغرقت ستة أشهر كانت خيراً وبركة على الأدب، وكانت مفتاحاً لعالم جديد في نفس تيمور لعله لم يكن مطلعاً عليه حتى واتته الظروف فانطلق في أرجاء هذا العالم يكشف ويلقي الضوء حتى جمع هذه الثروة الثمينة في هذا الضرب الجديد من فنه وأخرجها للناس أثراً يتألق جدةً وروعة.

ولقد كان تيمور يعيش خلال الزمن الطويل الذي قضاه في دعم أسس القصة العربية في خلق شخوص وتصوير عوالم تناسب هذه الشخوص حتى طلع على الأدب منذ سنوات بقصته الرائعة « نداء المجهول » يجوب فيها عوالم جديدة ويصور فيها مشاهد رائعة في دقة بالغة ثم قويت هذه الظاهرة في فنه واختفت الشخوص التي يخلقها خياله لتحل محلها شخصيته فيجعل منها مادة موضوعه ويعرض على القارىء أحاسيسه ومشاعره ونظراته للحياة في غير مواربة أو رياء أو زيف.

لقد انطلق تيمور في كتابه الجديد من القيود التي يفرضها فن القصة عليه من التزام التعبير بما يناسب كل شخصية من شخصيات قصصه فلا يتعدى ذلك، وما يفرض عليه من عدم الخروج عن جوهر القصة وحوادثها. فهو هنا يعبر عن نفسه وأفكاره في حرية ثم ينطلق به التفكير فيخرج عن جوّ موضوعه الى جو نفسه، ومن جو نفسه الى عوالم من التفكير العالي، وتتجلى في ذلك مواهب تيمور في النقد وفي التصوير وفي دقة التعبير وفي التفتات السريعة الى أبسط الأشياء لتأخذ منها لنفسها أعظم الأشياء لأن الانسانية التي تملأ كيانه تجعله ينظر الى كل شيء حتى الجمادات نظرته الى الأحياء فيكاد ينطقها أو ينطق هو بلسانها، ولعل في لفتته لوداع الطائرة حين هبط في مطار لاحوارديا الدليل على تلك الانسانية الشاملة في حين أن فرحة الهبوط والوصول تنسي المسافر هذا الواجب الذي لم ينسه تيمور، ولعل تلك التفتات التي أوحت اليه ما أوحت في عيادة الطبيب من دلائل النظرة الفاحصة وغير ذلك من الصور والمشاهد التي استوحاها خواطر في الحياة والناس ونقدات للمجتمع ومقارنات بين الروحية والمادية التي لمس الكثير من مظاهرها في أمريكا.

إن رحلة تيمور رحلة للذهن ونزهة للخيال.

## ٥ — فتح العرب للمغرب

للدكتور حسين مؤنس — نشرته مكتبة الآداب بالجماميز ( القاهرة ) في ٣٠٧ صفحة من قطع المقتطف — طبع في مطبعة مصر

للمغرب العربي الآن في نفس كل شرقي أنبل شعور ، وله في قلب كل عربي خفقة من خفقات الحب والتقدير ، ولقضيته في سبيل استعادة مجده في ظل الحرية والنور استجابة في النفوس وتعاون في الجهاد . فلقد كان لفتح المغرب على يد العرب وانتشار الاسلام فيه انتشار الحضارة الإسلامية في أوربا ، وعلى يد أبنائه انطوى جزء كبير من القارة الاوروبية تحت جناح العالم العربي .

وإن من محاسن الصدف والتوفيق أن يصدر الدكتور حسين مؤنس المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول كتاباً عن فتح العرب المغرب في الآونة التي يقف الشرق العربي من أجل قضية هذا الوطن وقفة وطن واحد في ظل دين واحد ولسان واحد .

ولن أكون مبالغاً إن قلت إن هذا الكتاب خير ما كتب في هذا الموضوع ، ومن خير ما أخرجت المطبعة في هذه الآونة دقة بحث ووفرة اطلاع . ولقد كان للمغرب حظ من عناية المؤلف في كتابه القيم الذي أصدره منذ سنوات وهو « كتاب الشرق الاسلامي في العصر الحديث » .

وكما أن هذا الكتاب من خيرة ما كتب في موضوعه ، ومن خيرة ما ظفرت به المكتبة العربية فإن مؤلفه من خيرة الدارسين للتاريخ الاسلامي فلا عجب اذا استوفى بحثه وأشبعه دراسة وتمحيصاً .

وقد عرض المؤلف في ثمانية أبواب ماقام به العرب في المدة من سنة ٢١ الى سنة ٨٥ هـ من الأعمال العسكرية التي أدّت الى امتداد الفتح الإسلامي في شمال أفريقيا من مصر الى المحيط الأطلسي والتي كانت سبباً في تخطي هذا الفتح حدوده عبر البحر المتوسط الى أوربا على يد أبناء هذا المغرب .

فهو قبل أن يبدأ في عرض مقدمات الفتح يعرض علينا صوراً من مشاهد التاريخ لافريقيا البيزنطية وماكانت عليه من انقسامات . ثم ينتقل الى عرض مشاهد الغزو الاسلامي فقيام الحملة الأولى بقيادة عبدالله بن سعد بعد أن حسن إسلامه وولي على مصر بعد عزل عمرو بن العاص ، فالحملة الثانية التي جرّدها معاوية بن حديج ، فحملة عقبة بن نافع الأولى وبناء القيروان ، ثم قيام دينار أبو المهاجر لفتح المغرب الأوسط ، فمحاولة عقبة بن نافع بحملته الثانية فتح المغرب الأقصى الى أن انتهى من عرض مشاهد هذا الفتح حتى تمامه وقد

وقف بالحوادث عند ولاية حسان بن النعمان وأعماله . كل ذلك في تحقيق ومناقشة الروايات وتغليب الحقائق من خلال تمحيصها . ولعلّ الدكتور مؤنس يوالي تأريخ النتائج التي أدّى إليها هـذا الفتح وما أعقبه من حركة انتشار الاسلام واستيلائه على جزء ليس بالقليل من أوربا وبناء حضارة نادرة المثال هناك .

## ٦ — الريف ومشكلاته

الدكتور ابراهيم عزو — ١١٦ صفحة من قطع المقتطف — نشرته دار الهواجي للنشر بمصر

مؤلف هذا الكتاب شعلة من النشاط والذكاء فهو طبيب وعالم يدرس الآن في معهد الصحافة وفي كلية العلوم فاجتمعت له من هذه المواهب خصائص عدة تتميز بها بحوثه من دقة البحث والفحص ووصف العلاج الناجع في سهولة ويسر .

وكتابه هـذا دراسة للريف ومشكلاته دراسة بنيت على أسس من البحث العلمي الذي روعيت فيه حاجة الريف المصري على ضوء القومية المصرية لا على ضوء محاولة تطبيق نظم غربية قد لا تتفق وبيئتنا ، فهو يرى ان وسائل الاصلاح ليست باعتماد الملايين من الجنيهات لإطعام فقراء أو بناء مؤسسات فقد صُرف الكثير في مثل هـذه الوجوه دون جدوى ولكنّ الاصلاح خطوتين : الأولى ان نحصر مسألة تعدُّد الاختصاص لأنه مؤدٍّ الى الفوضى وذلك بانشاء وزارة للفلاح وان نضع برنامجاً ثابتاً يطابق حالتنا الاجتماعية تراعى فيه خصائص البيئة المصرية وألاّ يتغير هذا البرنامج بتغير الحكومات . أما الخطوة الثانية فهي قائمة على تحقيق أمور ثلاثة هي حسن اختيار العمد وتعيينهم بمرتبات كحكام الأقاليم وتكوين المجالس القروية لأنها تهيئ فرصة الاسترشاد بآراء الفلاحين في طرق الاصلاح لأن الفرد الذي يراد إصلاح حاله أقدر من غيره على تقرير مطالبه ، ثم شقّ المنافذ الموصلة للقرية وتعبيد طرق المواصلات .

هذه هي القواعد الأساسية التي يراها المؤلف لإصلاح الريف ، وهي في جوهرها لا تكلف الدولة الكثير من المال وستكون حافزاً للريفيين على إصلاح مساكنهم ومن ثمّ إصلاح حالهم دون ضغط على الناس بالتبرعات التي لا تجدي ولا ببذل المال الفخم في سبيل نظريات قد لا تصحّ أساساً للإصلاح المنتج . وهي قواعد جديرة بالدرس والعمل على تنفيذها

## ٧ — المستشرقون البريطانيون

الدكتور ا . ج . أربري وتعريب الدكتور محمد السوقي النويهي — ٤٨ صفحة من القطع الكبير محلاة بالصور — مطبع في انكلترا

لا شكّ في أن للمستشرقين البريطانيين أيادي بيض في درس الأدب العربي ، ولعل كتاب الأستاذ نيكلسون من خيرة ما كتب عن تاريخ هذا الأدب . والأستاذ نيكلسون وغيره من المعاصرين يصيدون الى أذهاننا صوراً بعيدة من الحركة الاستشرانية في بريطانيا يرجع أصولها الى بضعة قرون . ومن الجدير بنا أن نلمّ بهذا الجانب من الدراسات .

ولقد قام المستشرق البريطاني المعاصر الدكتور ا . ج . أربري بوضع دراسة ممتعة في هذا الموضوع ، وللدكتور أربري إحاطة شاملة بالأثر الذي خلفته الدراسات القديمة للأدب العربي في الأدب الانجليزي ، كما أن له إحاطة بالتيارات الأدبية العربية الحديثة . ولعلّ مقالاته التي كان ينشرها في مجلة « الأدب والفن » التي ظهرت في الأعوام الأخيرة . وأسفنا على توقف صدورها خير شاهد على بصر الأستاذ أربري ومقدرته . وهذه الدراسة في اعتقادنا مقدمة يجب أن يتوسع فيها المؤلف لتتفق مع عنوانها فيتناول فيها بإسهاب تاريخ الحركة الاستشراقية في بريطانيا مع سرد لجميع رجال الاستشراق هناك وتاريخهم وأعمالهم لتكون مرجعاً من المراجع التي لا يستغنى عنها حيث قصر الكلام على شخصيات قلائل . ولعله فاعلٌ ذلك في القريب العاجل فإن له من تلك الاحاطة الشاملة خير عون .

* * *

وبهذه المناسبة أذكر أن دار المعارف بمصر قد أصدرت الطبعة الثانية من كتاب « المستشرقون » للأستاذ نجيب العقيقي عن الاستشراق خلال ألف عام الى الآن . وهو كتاب كانت المكتبة العربية في حاجة اليه والى الكثير من أمثاله تدرس فيها جميع أوجه النشاط الاستشراقي في العالم .

* * *

كما لا يسعني إلاّ أن أنوّه هنا بمجهود عالم باحث مقتدر هو الأستاذ يوسف أسعد داغر أمين دار الكتب الاهلية في بيروت ، وهو من أبرز المشتغلين بهذه الناحية والمتخصصين فيها ومن الذين أدّوا فيها للأدب العربي أجلّ الخدمات ، فقد علمت انه أعدّ معجماً للأعلام الاستشراق في العالم في مختلف العصور يضمّ عدداً ضخماً من هؤلاء الأعلام . والأستاذ داغر من أقدر من يستطيعون القيام بمثل هذه الأعباء ، وأملنا أن يوفق الى إخراج هذا المعجم قريباً فيسدّ به فراغاً في المكتبة العربية . فانه لجدير بنا أن نعرف الكثير عمن خدموا أدبنا العربي من أبناء الغرب .

حسن كامل الصيرفي

# فهرس الجزء الثالث

## من المجلد الحادي عشر بعد المئة


٥٤١ بين التصحيح والتوشيح : اسماعيل مظهر
١٥٣ ابن جني : أبو الفتح عثمان : عبد الله أمين
١٦٥ لحن الموت (قصيدة) : للشاعر لامارتين : ترجمة ج . توفيق نصرا
١٦٧ الميوشا ( قصة ) : لانطون تشيكوف . ترجمة سليم الأسيوطي
١٧٢ الألم الخالد ( قصيدة ) : عقيبي محمود عقيبي
١٧٣ نظرة في شعر المنشئين والعلماء : ادوار مرقص
١٨٤ موج البحر ( قصيدة ) شاعر البرازي
١٨٥ نظرات في النفس والحياة : لارشفوكولد، ليوباردي ، شوبنهور : ع.ش
١٩٤ حرب البكتريا : الدكتور حسن كال
١٩٨ بصر حديد : وديع فلسطين
٢٠٠ جنون ( قصيدة ) : محمد فهمي
٢٠٢ صورة جديدة منغمة من أسلوب التصوير البغدادي : الدكتور بشر فارس
٢٠٥ ذات سحر قاهر (قصة) : محمد فهمي

٢٠٩ المراسلة والمناظرة ٥ المرحية في شعر شوقي ( نقد ) رشيد السعد
٢١٢ باب الاخبار العلمية ٥ من معجزات الطب والتصوير — الفيدروفون — مسار اعماق البحار والخبطات والدليل في مواقع الفواصات وغيرها . قنابل لاتفاذ المتفرقين على الطرق . تايبرايتر تستعمل عن بعد . موقد كهربائي ذو فائدة ومصباح . كيف يمكن التغلب على الدوار في طائرته : عوض جندي
٢١٧ مكتبة المقتطف ٥ ١ — في أعقاب الثورة المصرية . ٢ — القضايا الكبرى في الاسلام . ٣ — لادا أو مسلم . ٤ — أبو الهول يطير . ٥ — تاريخ العرب للعرب ٦ — الريف ومشكلاته . ٧ — المستعمرون البريطانيون : حسن كامل الصيرفي .


## لحق


١ — ٥٦ أميرة بابل لفولتير : ترجمة جلال مظهر

جلال مظهر

# أميرة بابل

---

ترجمة عن فرنسية

---

حقوق الطبع محفوظة

لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٧

# الفصل الاول

## التنافس الملكي لنيل يد فورموزانتا

كان ملك بابل ، بيلوس العجوز ، يظن أنه أعظم إنسان على وجه البسيطة . ذلك ما قاله رجال حاشيته ، وما أثبته علماء التاريخ . ونحن نعلم أنّ قصره وحديقته مقامان على بعد فراسخ قليلة من بابل ، تمتد بين الفرات ودجلة اللذين يرويان تلك الشواطىء الساحرة . أما واجهة القصر فتبلغ ثلاثة آلاف قدم بيد أنها تكاد تنطح السحاب وكذلك أفريزه فقد صُوِّر بأعمدة من الرخام يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً ، تقوم من فوقها تماثيل ضخمة لكل الملوك وعظماء رجال الدولة ويتألف هذا الافريز من صفين من الآجر تَغْشاهما طبقة كثيفة من الرصاص تخترق الأرض بعمق اثنى عشر قدماً . وغرست الأرض فكانت حَرَجة عظيمة من أشجار الزيتون والبرتقال والليمون والنخيل والكاكاو والقرفة ومجموعة من شجر المنثور ، حجبت أشعة الشمس أن تنفذ الى مخاضيها وممراتها .

تتدفق مياه الفرات وتنساب من مئات من المخلجان ترفع إليها المياه بمضخات ، محدثة في الحديقة مجاري طولها مئة آلاف قدم فضلاً عن مئة ألف نافورة قلما يدرك ارتفاعها . ومن تحت تعود كل تلك المياه الى الفرات . ولم تكن حدائق سميراميس التي بهرت آسيا من بعد ذلك بأجيال ، غير تقليد واهن لتلك الأعاجيب القديمة . ذلك بأنه في زمن سميراميس كان كل شيء قد بدأ يفسد بين الرجال والنساء .

أمّا أعجب ما كان في بابل وطغى على كل ما سواه ، فابنة وحيدة للملك تدعى فورموزانتا كانت صورها وتماثيلها المثال الذي تحت براكسيتيلس على غراره في العصور التالية تماثيل أفروديت وزهرة مدرتشي .

يا للسماء ! أي بعد بين الأصل والتقليد .

وكان الملك بيلوس يفخر بابنته أكثر مما يفخر بملكه . كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً وأصبح من الضروري أن يحظى بها زوج يستحقها . ولكن أين يوجد ؟

هناك نبوءة قديمة بأن فورموزانتا لن تكون إلاّ من نصيب من يستطيع أن يطوي قوس النمرود . وأمّا النمرود هذا فكان قناصاً ذا قوة وعنفوان بركة الآلهة وقد خلّف قوساً

من الأبنوس صنع في « دوبنت » طوله سبعة عشر قدماً بابلونيًّا . كان أشد سلاية من حديد القوقاز، ولم يستطع كائن بشري أن يثني هذا القوس العجيب من بعده .

وقيل أيضاً بأن الساعد الذي يستطيع أن يثني هذا القوس قد يقتل أسداً ضارياً عنيفاً ينطلق عليه في ملاعب بابل . ولم يكن هذا كل شيء ، فإنّ ثاني القوس وقاهر الأسد ، لا بدّ متغلب على كل منافسيه ، بله أنه يكون حكيماً ، مبصراً ، متوقد الذهن ، فاضلاً . يثير دهشة كبيرة في أنحاء الكون .

لم يتقدم غير ثلاثة ملوك كان لديهم من الشجاعة ما كفى لأن يدعي كل منهم أنه كفء لفورموزانتا : فرعون مصر ، وشاه الهند ، وخان الاسقوتيين الأكبر . فقد الملك بيلوس يوم المنازلة ومكانها في أحد أطراف الحديقة حيث الاتساع العظيم الذي تكتنفه مياه دجلة والفرات عند تلاقيهما . وأعدّ حول الدرج مسرح من الأبنوس مستدير الشكل يتسع لخمسة آلاف مقاعد ، ووضع عرش الملك في واجهة المسرح بحيث يظهر ومعه فورموزانتا يحف بهما جميع رجال البلاط . وذات اليمين وذات الشمال ، بين العرش والمسرح ، أقيمت عروش أخرى ومقاعد للملوك الثلاثة ، ولكل الملوك الآخرين الذين رغبوا في شهود تلك الحفلة الفخيمة .

كان فرعون مصر أول من وصل ممتطياً جمل أبيض وفي يده قيثارة إيزيس ، ومن ورائه ألفا كاهن مدثرون بلباس من الكتان الأبيض أنصع من الجليد ، ثم ألفا خصي فألفا ساحر ، فألفا عازف .

وسرعان ما وصل ملك الهند في عربة يجرها إثنى عشر فيلاً ، ومن ورائه حاشية أكبر عدداً وأبهى منظراً من حاشية فرعون مصر .

وكان ملك الاسقوتيين آخر من وصل منهم ، وقد امتطى نمراً أليفاً مهيباً يطاول بقامته أي فرس فارسي أصيل . ولم يكن له من شيء الهمّ إلاّ فرسانه المختارين ، وقد طمست هيبته وجلالته على مظهر منافسيه ، وظهر ذراعاه البيضاوان العاريتان في قوّة وصلابة ، وكأنهما قادرتين على أن تحنيا قوس النمرود .

تقدّم ثلاثتهم وانحنوا في جلال أمام الملك وابنته فورموزانتا .

أهدى ملك مصر الأميرة تماسيح من أرشق تماسيح النيل ، وبغروسين ، وحمارين وحشيين وفأرين مصريين وجثتين محنطتين وكتاب هرميس العظيم ، معلناً بأن تلك الأشياء أندر ما في العالم .

أما ملك الهند فقدّم إليها مئة فيل يحمل كل منهم قلعة من الخشب مطلوّة بالذهب

الخالص ، ووضع عند قدميها كتاب الميدا مفتوحاً بيد إكسا كا نفسه .

وكان ملك اسقوتيا أميًّا ، فاكتفى بأن يهديها مئة من جياد الحرب الأصيلة ، أضفى على كل منها كسوة جميلة من فراء الثعالب السود .

ولقد بدت الأميرة أمام محبيها مغضبة من نظرها ، واستلقت مسترخية في مقعدها بدلال ، اعتبر في ذلك الزمن منتهى التواضع والأدب .

أمر الملك بيلوس الملوك أن يجلسوا في العروش التي أعدّت لهم ، ثم قال لو كان لي ثلاث بنات لجعلت ستة من الآلهة سعداء في هذا اليوم . ثم أمر المتنافسين أن يضربوا قرعة فيما بينهم ، أيهم يكون أول من يحاول أن يلوي قوس النمرود . فوضعوا أسماءهم المنقوشة في خوذة من الذهب ، فظهر اسم ملك مصر أولاً ، ثم من بعده اسم ملك الهند ، فلما رأى ملك اسقوتيا القوس ومنافسيه ، لم يبد شيئاً من الأسف أنه ثالثهم .

وفي خلال ذلك قدم عشرون ألفاً من الخدم ومثلهم من الوصيفات الجميلات . وخالطوا بغير نظام صفوف المشاهدين يوزعون الحلوى والمرطبات . وقد ثبت في روع جميع الناس بأن الآلهة لم تنصّب أولئك الملوك اللهمّ إلاّ لإقامة الولائم والحفلات في كل يوم على أن تكون مختلفة المناظر متنوعة الأساليب ، وأن الحياة أقصر من أن تنصرف الى غرض آخر ، وأن المنازعات القضائية والدسائس والحروب ومفاخرات اللاهوتيين التي تستغرق حياة الانسان ، إنما هي أشياء ممقوتة غير معقولة ، وأن الانسان قد خلق للذة والسعادة ، وأنه إذا لم يكن قد خلق لهذا ولم يصور على هذه الحقيقة ، لما مضى يبحث عن اللذائذ بشهوة غير منقطعة ، وأن جوهر الحياة الانسانية ان تنصرف الى ملذاتنا وأن كل ما عدا ذلك غباء وجهل . أمّا هذه الفضيلة الرقيقة فلم تجادل فيها حقيقة من الحقائق .

وإذ كانوا يمدون الأسباب التي ترجه مصير فورموزانتا ، ظهر في طرف الحلقة شاب أجنبي يتطلع خرتيتاً ومعه وصيفه يتطلع خرتيتاً آخر وعلى يده يحمل طائر كبير . وقد داخلت الدهشة قلوب الحراس إذ ألفوا في هذا الزائر شخصاً تنبعث منه ريح القدسية . فقد كان له وجه أدونيس على جسم هيرقل . فالجباه السوداوان وجدائله الجميلة كان ينبعث منها جمال لا عهد لبابل به ، حتى لقد أثار اعجاب الحضور ، فهبّ المسرح بأكمله لمشاهدة ذلك الزائر الأجنبي ونظر اليه نساء البلاط بأجمعهنّ نظرات كلها دهشة واعجاب ، حتى ان فورموزانتا التي ظلت حتى ذلك الوقت مغضبة من نظرها ، رفعت عينيها وعلت وجهها حمرة الخجل ، وبهت الملوك الثلاثة وملأ وجوههم الاصفرار . ولما قرن الحضور هذا الأجنبي بفورموزانتا صاحوا قائلين . « ما من شاب آخر في العالم قد بلغ جماله مبلغ جمال الأميرة » .

سأله الحجاب مأخوذين بالعجب عما اذا كان ملكاً ؟ فردّ بأنه لم ينل ذلك الشرف وانه من بلد أجنبي حضر مدفوعاً بالفضول ليرى هل هناك ملك هو كفء لفورموزانتا. ثم توجه فحيا بيلوس وابنته والملوك الثلاثة ثم الحضور وذلك بكل احترام وتبجيل . واتجه الى الصف الأول من المسرح فاستقر في مقعده يملؤه شيء من غمرة الخجل ، ورقد الخرتيتان عند قدميه ووضع الطائر فوق كتفه وجلس وسيفه الى جواره وممه حقيبة صغيرة .

بدأت المنافسة وأخرج قوس النمروذ من جرابه الذهبي ، وتقدم مشرف الاحتفالات العام ومن أمامه عشرين يقرعون الدفوف ، ومن خلفه خمسين وصيفاً وصلم القوس لفرعون مصر . فأمر كهنته ان يباركوه ثم مدده على رأس عجل أبيس من غير أن يشك في أنه سيحظى بأول نصر . فنزل الى ساحة الميدان ثم حاول مستجمعاً كل قواه ومضى يتلوى محدثاً حركات كانت سبباً في إثارة الضحك من الجميع ، وشاركتهم في ذلك فورموزانتا . فانها لم تقو على حجب ابتسامة ارتسمت على ثغرها .

وإذ ذاك تقدم نحوه رئيس حجابه قائلاً . « دع جلالتك هذا الشرف للسيس الذي قواه قوة الأعصاب والعضلات ، فانك سوف تنتصر في كل شيء ما عدا هذا ، فسوف تقهر الأسد حيث أنك تملك بركة إيزيس . إن أميرة بابل سوف تكون لمن هو أحكم المتنازعين. وأنت تحل الطلاسم . انها ستتزوج أفضلهم ، وأنت كذلك . فقد تعلمت على أيدي كهنة مصريين ، وأكرمكم سيصبح زوجها . وقد أهديتها أروع تمساحين وأجمل فأرين من فئران الدلتا. وتملك كذلك عجل أبيس وكتب هرميس، أندر أشياء في الوجود . فلا أمل لأحد في أن ينازعك فورموزانتا .

فقال ملك مصر « أنت على حق » ثم عاد الى عرشه .

أعطي القوس بعد ذلك الى ملك الهند الذي ظلت يداه خمسة أيام من أثر الجهد أربعة عشر يوماً، ولكنه تعزّى عن ذلك بأن ملك إسقوثيا سوف لا يكون أسعد منه حظّاً .

ثم أخذ ملك الاسقوثيين القوس بدوره ، وقرن القوة بالمهارة ، فظهر أن القوس بدأ يلتوي بين يديه ، فلواه قليلاً ولكنه عجز أن يحنيه وقد أعجب المشاهدون بطلعته ، فقالوا إليه ووددوا لو أنه ينتصر ولكنهم حزنوا لاخفاقه ، إذ قام في روعهم أن الأميرة الفاتنة سوف لا تتزوج .

نزل الى الميدان ذلك الشاب المجهول وقدم نفسه الى ملك اسقوثيا قائلاً « لا ينبغي أن تنخفض جلالتك لعدم تمام نجاحك ، فان هذه الأقواس الابنوسية تصنع في بلادي ولها طريقة خاصة تستعمل بها ، ولذا تكون قدرتك على ثنيه قليلاً أعظم من قدرتي لو أني

قوّمته تماماً. ثم أخذ سهماً وثبته في الوتر ، وطوى قوس النمروذ ورمى بالسهم خلف الأبواب
صفقت ملايين الأيدي للأعجوبة ، ودوت بابل بهتاف الاستحسان ، وأجمع النساء على أنه حظ سعيد أن يجمع شاب بين جمال الصورة وقوة البدن ، ومن ثمّ أخرج من جيبه قرصاً صغيراً من العاج وكتب فيه بقلم من الذهب وثبته في القوس وقدمه الى الأميرة بكثير من الكياسة فأخذت بلب الحاضرين ، ثم عاد الى مكانه بين وصيفه وظائره . ولقد ذهلت بابل والملوك الثلاثة ، في حين لم يظهر على الشاب الاجنبي أي علامة من علامات الاهتمام لما قد حدث .

زادت دهشة فورموزانتا عند ما قرأت على القرص العاجي المثبت في القوس هذه الأسطر المكتوبة بالكلدانية الفصحى :

« إن قوس النمروذ هذا ، هو قوس الحرب ، أما قوس الحب فقوس السعادة ، فأيهما تملكين ؟ بفضلك أصبح هذا الآله القاهر سيد الأرض . ان ثلاثة ملوك أقوياء ، بل ثلاثة متنافسين يقدم كل منهم متظلماً لارضائك ، ولست أدري أيهم بفضله قلبك ؟ ولكني أعلم أن من تفضلين سيثار منه الكون »

لم ترَ الأميرة أي شيء من الغضاضة في تلك القصيدة الغزلية ، ولكنها كانت موضع النقد من بعض رجال البلاط القدماء ، والذين قالوا بأنه لو وجد بيلوس وفورموزانتا في الأعصر القديمة لشبه هو بالقمر ورقبته بالبرج ، وشبهت هي بالقمر وصدرها بكيل كامل من القمح . وزادوا الى ذلك بأن الأجنبي فاقد التصور وأنه قد خرج على قواعد الشعر الجيد . ولكن السيدات حكمن بأن القصيدة في منتهى الفراهة ، وعجبن من رجل يجمع بين استخدام القوس بهذا العنفوان وذلك القدر البالغ من الحصافة .

وقالت وصيفة شرف الأميرة : « سيدتي ، أي قدر من الذكاء والفطنة قد بددت في هذا المكان . وما الفائدة التي سوف يجنيها هذا الشاب من ذكائه ومهارته في معالجة قوس النمروذ .

أجابت فورموزانتا « ليثير بنفسه الاعجاب » .

صاحت الوصيفة « آه . قصيدة غزلية أخرى ، ثم يصبح محبوباً » .

وبعد أن استشار الملك بيلوس عقلاء مملكته ، أعلن بأن هؤلاء الملوك الثلاثة ولو أنهم أخفقوا في معالجة قوس النمروذ ، فإن ابنته برغم ذلك لا بدّ من أن تتزوج ، وإنها سوف تكون من نصيب ذاك الذي يقهر الأسد العظيم الذي كان قد أعدّ مخصيصاً لذلك واحتفظ به في جزيرته .

رأى ملك مصر الذي بُذل في سبيل تعليمه كل ما استكنّ في مصر من الحكمة أنه

من المضحك أن يعرّض ملكاً نفسه لشراسة وحش في سبيل أن يتزوج ، وذلك برغم أنه يعتقد أن ليل فورموزانتا قيمة لا تقدر . على أنه كان يعتقد أن الأسد لو أشب فيه أنيابه ، فانه لن يستطيع أن يتزوّج هذه البابلية الحسناء . وبرأيه أخذ ملك الهند وانتهى أمرها بأن ملك بابل يتخذها عروساً وأنه أصبح واجباً عليهما أن يستدعيا الجند لتأديبه ، لاسيما وأن لديهم من الأتباع من يعتقدون أنه من الشرف الأكبر أن يموتوا في سبيل أسيادهم ، وذلك من غير أن تسقط شعرة واحدة من رأسيهما المقدستين . وبعد ذلك يكون من الهين عليهما أن يخلعا ملك بابل عن عرشه ثم يضربا قرعة : أيهما ينال فورموزانتا الفاتنة .

وبعد أن عقدا ذلك الاتفاق أرسل كل منهما رسولاً الى قومه في طلب ثلاثمئة ألف مقاتل حتى يستطيعا نيل فورموزانتا .

ومع هذا ، نزل ملك إسقوتيا بمفرده إلى الميدان ، يحمل سيفه ، ولم يكن في الحقيقة مدفوعاً بحب فورموزانتا وإنما كان حب العظمة والمجد اللذان دفعاه على القدوم الى بابل . وقد كان مصمماً على أن يُظهر أنه إذا كان كل من فرعون مصر وخان الهند هنديدي التبصر حتى أنهما لا ينازلان الأسود ، فان عنده من الشجاعة ما يحمله على ألاّ يرفض النزال ، وأنه سوف يصلح ماخدش من شرف دياديس . وقد أبت عليه شجاعته الخارقة أن يقبل استمداد العون من غيره ، فتقدم بمفرده حاسراً بخوذة موشاة بالذهب ، ومغلة بذيول ثلاثة جياد ناصعة البياض كالجليد .

أطلق عليه أسد من أضخم وأشرس الأسود التي تعيش في جبال الاتيلبانية ، ولاح للحضور أن مخالبه المخرفة قادرة على تمزيق الملوك الثلاثة إرباً في لحظة وان بلعومه يكفي لازدرادهم جملة . اندفع البطلان الفخوران في عجلة الثور وسورة الغضب كل منهما في اتجاه الآخر . فأثبت الاسقوتي الشجاع سيفه في فم الأسد المفغور فارتطم حد السيف باحدى أسنان الأسد القوية السميكة التي لا يخترقها من شيء ، فكسر . وكاد سيد الغاب ، وقد هاجه جرحه وصيره أكثر شراسة وضراوة ، أن يدرس مخالبه في جنبي الملك .

كانت الكارثة التي حلت بالملك الشجاع سبباً دعى الغاب الأجنبي أن ينزل الى ساحة القتال في سرعة البرق الخاطف ويحز رأس الأسد في مهارة فائقة أشبه بالمهارة التي رأيناها في فرسانا ، وهم يحزون رؤوس الدبى السود في المناورات الحربية .

ثم أخرج صندوقاً وقدمه الى الملك إسقوتيا قائلاً : ستجد جلالتك في هذا الصندوق هيئاً من حشيشة النجيل الأصيلة التي تنمو في بلادي وهي تلتئم جروحك الملكية في لحظة . ان المصادفة فقط هي التي ساقت انتصارك على الأسد ، فشجاعتك وجرأتك ليستا مما لا تثير الدهش

إستقوى على الملك شعور الاعتراف بالجميل أكثر مما إستقوى عليه شعور الحقد، فعانق منقذه بعطف وحنان، وشكره ثم عاد الى مقعده ليضع النّجل على جرحه .

أمر الاجنبي وصيفه ان يغسل رأس الاسد من ناقورة عند أسفل الدرج ، فلما زالت آثار الدماء ، أخرج من جيبه آلة حديدية صغيرة وأفرغ مكان الاسنان الاربعين ووضع مكانها أربعين جوهرة متساوية الحجوم . ثم عاد السيد الى مكانه بتواضعه المعروف وأعطى رأس الاسد الى الطائر الجميل وقال: احمل هذه الهدية الصغيرة وضعها عند قدمي فورموزانتا.

جنح الطائر في طريقه وهو يحمل ثمرة النصر المرعب في إحدى مخلبيه وقدمه الى الأميرة، ثم أحنى رقبته في تواضع ظاهر وربض بين قدميها . بهرت الجواهر أعين الذين شاهدوها ، فمثلها كان غير معروف حتى في بابل العظيمة . فالزمرد ، والياقوت الأصفر والأزرق ، والأحجار الجرانيتية الياقوتية اللون كانت لا تزال حتى ذلك الوقت أعظم ما يتزين به . ولقد دخل بيلوس ورجال بلاطه دهشة عظيمة ، كما أثار الطائر الذي قدم الهدية في نفوسهم دهشة أعظم . فقد كان في حجم النسر، ولكن لم تكن عيناه كعيني النسر مخيفة جبارة ، بل كانت ناعمة حنوناً ، وكان منقاره وردي اللون يشبه بعض الشيء فم فورموزانتا ، وتتموج في رقبته ألوان قوس قزح، ولكن ببهاء أعظم وروعة أكبر . وقد غطى ريشه لون الذهب متدرجاً في ألف من الظلال المتباينة ، وكأن قدميه كانتا خليط من الفضة والأرجوان . وأما ذيل ذلك الطائر الفريد الذي يعز نظيره

استأثر الطائر والجواهر بما انبعث في قلوب أهل الحاشية من الاستعجاب والدهشة والفضول . حتم الطائر على أحد الاصدقاء بين الملك والأميرة ، فربتت الأميرة عليه وأمرّت بيدها على ريشه ثم قبلته ، فقابل رعايتها بمزيج من السرور والاحترام الظاهر ، فلما ضمته ورتحيتها ناظراً اليها بعينين تفيضان حبًّا وحناناً ، فأعطته بكوبتاً وفسدقاً فتلقاها بمخلبيه الفضيين وحملها الى منقاره بدلال يعجز عنه الوصف .

وبعد أن اختبر بيلوس الجواهر بانتباه وفطنة، انتهى الى انه ما من أحد قدم لابنته مثل تلك الهدية الفاخرة ، وانه يجب أن تعد هدايا أعظم وأثمن لذلك الغاب الاجنبي، من تلك التي أعدت لثلاثة الملوك الآخرين وقال « ليس من شك في أن هذا الشاب الصغير ابن ملك الصين أو ابن ملك تلك الرقعة من الأرض التي سمعت عنها وتسمى أوربا ، أو أفريقية ، تلك التي يقال انها بأقرب من المملكة المصرية » .

وسرعان ما أرسل رئيس خدمه ليتحسس ذلك الأجنبي : أهو امبراطور أم ابن أحد من ذوي الأمبراطوريات السالفة . وكيف لا وهو يملك ذلك الكنز المدهش وقد حضر وحده بخادم وحقيبة !

وبينما رئيس الخدم يتجه نحو الدرج إذا بوصيف آخر يصل متطيا خرتيتا ضخما نحو الأجنبي ويقول إن والدك « أورمار » قد اقترب من نهاية الحياة ولقد حضرت لأنبئك بذلك .

رفع الفتى عينيه إلى السماء فانحدرت منهما دموع فيّاضة وقال « لنرحل » .

وبعد أن قدم رئيس الخدم التحية لقاهر الأسد ومهدي الأربعين جوهرة وصاحب الطائر الجميل ، سأل وصيفه . « من أي ملكة والد هذا البطل الملكي؟ » .

فقال الوصيف « إنّ والده راعي غنم كبير السن محبوب من كل مواطنيه » .

وفي أثناء الحديث قال الفتى لرسول الملك وقد ركب الخرتيت :

« سيدي : تعطف واجعلني أسجد عند قدمي الملك بيلوس وابنته ، إذ يجب أن أضرع إليها عساها تضفي على ذلك الطائر عناية خاصة ، ذلك بأنه كالأميرة نادر الوجود » . ولما انتهى من كلامه اندفع بخرتيته كالبرق الخاطف يقبعه وصيفاه واختفوا عن الأنظار في لحظة .

لم تتمكن فورموزانتا أن تنهنه من بكائها ، وظهر على الطائر تأثر بالغ عندما أدار نظره بوله الى حيث كان يجلس سيده وبدا على نظراته حنوّ بالغ كأنما هو قد صمم على تكريس حياته لخدمة الأميرة ، عندما أنها مرّت في مطف بيدها الجميلة على منقاره .

على أنّ أعظم ما أثار دهشة الملك بيلوس ، علمه بأن هذا الغلام الخارق ابن راعٍ . فلم يصدق ما سمع وأرسل من خلفه رسلاً سرعان ما عادوا ليخبروه بأن الخرتيت الثلاثة التي يركبها أولئك الفتيان يسير اللحاق بها . ذلك بأن سرعتهم كان يجب أن تصل الى مئة ميل في اليوم الواحد .

أخذ كلٌّ يفكر في تلك المغامرة العجيبة ، وراحوا يحدسون ويضربون في الظنون . أيمكن لابن راعٍ أن يهدي أربعين جوهرة كبيرة ؟ وكيف تأتى له أن يركب الخرتيت ؟ إنّ ذلك قد ملأهم دهشاً وعجباً ، في حين أن فورموزانتا وقد أخذت تدلل طائرها ، ضمرها شعور عظيم بالخشية والاعجاب .

# الفصل الثاني

كان لفورموزانتا إبنة عم تدعى الديا ، لا تقل عنها جمالاً وفتنة ، فكانت وسيمة الطلعة بهيّة المحيّا ، وقد قالت لها ذات يوم :

« يا إبنة العم ، إني لا أبالي أن يكون نصف الإلاه هذا ابن راعٍ أو سواه ، ولكني أظنه قد أتمّ كل الشروط المفروضة لزواجك . لوى قوس النمروذ ، وقهر الأسد . ثمّ ان له نصيباً كبيراً من الذكاء والفطنة ، فقد ارتجلتْ لك قصيدة غزلية رائعة ، كما أظن أنك لاتتكرين أنه أكثر الرجال كرماً بعد أن أهداك أربعين جوهرة كبيرة ، وله الطائر الذي هو أكثر الأشياء غرابة على وجه الأرض . وأن فضيلته لا يمكن أن تدانيها فضيلة ، منذ رحل توّاً حال علمه بمرض أبيه ، بالرغم من أنه كان يجب أن يبقى ليمتع نفسه بصحبتك . وقد تحققت النبوءة في كل تفاصيلها ما عدا الوقت الذي ينتصر فيه على منافسيه . غير أنه فعل أكثر من هذا اذ أنقذ حياة منافسه الوحيد الذي يخشاه . في حين أنه عندما يكون التنافس موجهاً الى الاستعلاء على الاثنين الآخرين ، اعتقد أنك لاتشكين في أنه سينتصر عليهما بسهولة » .

فقالت فورموزانتا « إن كل ما تقولين هو حقٌ ، ولكن أمن الممكن أن يكون أعظم الرجال وربما أجملهم جميعاً ابن راعٍ ؟ »

قالت وسيمة الشرف التي شاركتهما الحديث بأن لقب الراعي كثيراً ما يخلع على الملوك فيدعون رعاة ، لأنهم يتصلون برعاياهم اتصالاً وثيقاً ، وأنّ تلك الكلمة صدرت بغير شك من الوسيف عن طريق المواح المبغوض . فإن هذا البطل الشاب لم يتهيأ بكامل عدته عند حضوره الاّ ليظهر أن حذقه الشخصي وحده أعظم وأفخر من استعراضات الملوك الفخيمة . فلم تبد الأميرة بعد ذلك أي رأي ، بل عمدت الى الطائر في حنان تتبلّه آلاف القبل .

وأعدّت مع ذلك وليمة عظيمة للملوك الثلاثة ولباقي الأمراء الذين حضروا تلك الحفلة ، وكانت الأميرة وإبنة عمها تحييان ضيوفهما ، ووزع الملك من الهدايا الفخيمة ما يناسب عظمة بابل . وبينما كانت الموائد تعد للحضور ، جمع بيلوس مجلس استشارته للتباحث في أمر زواج

فورمورزانتا الجبلية . ومضى يعبر للمجلس عن رأيه متخذاً صفة سياسي من كبار السياسيين ، فقال :

« تقدمت بي السنون ، ولست أعرف الآن الطريق الأفضل لاتباعه إزاء ابنتي ، أو لمن من العرسان أقدمها ، فمن يستحقها ليس إلاّ راهباً حقيراً ، وملكا مصر والهند بهما جبن ، وأفضل الثلاثة عندي هو ملك الاسقوثيين ، إلاّ أنه لم يتم أي شرط من الشروط اللازمة ، وسوف نستثير النبوءة مرة ثانية ، وأتباحث معكم في نفس الوقت ، وسننتهي بعظيم السرور الى ما ترشدنا إليه النبوءة . ذلك لأن الملك لا يجب أن يتبع شيئاً غير ما تمليه الآلهة الخالدة » .

وتوجه إلى المعبد فأجابته النبوءة في كلمات قليلة كالعادة « ان ابنتك سوف لا تتزوج إلاّ بعد أن تطوف كرة الأرض » ، فعاد بيلوس وقد تملكته الدهشة وردّد هذه الكلمات على مسمع من مجلس استشاراته .

على أن احترام النبوءات العظيم الذي كان متغلغلاً في نفوس الوزراء ، جعلهم يوافقون بالاجماع ، أو على الأقل تظاهروا بالموافقة ، لا لسبب الفهم إلاّ أنهم أساس الدين وعماده ، وان العقل يجب أن يلغى أمام إرادتهم ، فمن طريقهم سلط الملوك على شعوبهم . وبغير النبوءات لا يبقى من فضيلة أو راحة في الأرض .

وفي النهاية وبعد تأدية أعظم مظاهر الاحترام لهم ، انتهوا الى أن هذه النبوءة سفيهة ولا ينبغي ان تطاع ، فليس هناك من حماقة أشد من أن تهيم الى مكان مجهول ، إمرأة صغيرة وعلى الأخص ابنة ملك بابل العظيم ، وان هذه هي الوسيلة المحققة لمنعها من الزواج ، وإلاّ أنشأت لنفسها علاقات خفية مخجلة . وعلى الجملة فإن هذه النبوءة ممنوعة النهي .

قال أصغر الوزراء سناً ، ويدعى أوناداس ، فقد كان أحسن تفكيراً من الآخرين ، بأن النبوءة بغير شك لا تقصد إلاّ هجرة دينية ، وتطوع ان يكون رائد الأميرة . فوافق المجلس على فكرته ولكنهم رغبوا جميعاً في أن يكونوا رفقاءها . وبعد ذلك سمح الملك على أن ترحل الأميرة في الطريق المؤدي الى بلاد العرب ، ثلاثمئة فرسخ ، حتى تنتهي الى المعبد الذي اشتهر قديمه بتهيئة الفتيات الصغيرات للزواج السعيد ، يرافقها في الرحلة رئيس خماسة المجلس . وبعد ذلك قاموا لتناول العشاء .

# الفصل الثالث

## حفل ملكي لتكريم الضيوف الملكيين

### وتكلم الطائر بفصاحة مع فورموزانتا

في وسط الحدائق وبين خليجين من خلجانها ، أقيم بهو إهليلجي الشكل قطره ثلاثمئة قدم ولون سقفه أزرق لازوردي ، رصع بنجوم من الذهب ، وضعت بحيث تمثل كل الصور السماوية والسيارات وكل منها في مكانه الصحيح. وكان هذا السقف يدور دورة القبة السماوية بآلات بلغت من الخفاء مبلغ تلك القوة التي تدير القبة السماوية . ويضيء الحديقة وبهو الطعام مئة الف شعلة في داخل اسطوانات من البلور الشفاف ، وأقيم مقصف مدرج فيه عشرين ألف آنية خزفية وصحن ذهبي.. وفي مواجهته وعلى درج آخر ، جلس عدد كبير من الموسيقارين، كما أعدّ درجان آخران يبدّانه زينة وفخامة ، أحدهما مليء بفواكه الفصول الأربعة ، والآخر حوى مشارب بلّورية تتلألأ فيها أنواع الخمر المنتقاة

أخذ الضيوف أماكنهم حول مناضد قسمت الى حنيات متناسبة وضعت بالأحجار الكريمة فكانت تشبه الثمار أو الزهور . وجلست فورموزانتا الفاتنة بين ملكي مصر والهند ، كما جلست ألديا الوديعة إلى جانب ملك اسقوتيا وجلس حوالي ثلاثون أميراً الى جانب كل منهم فتاة من أجمل فتيات الحاشية . واتخذ ملك بابل مكانه في الوسط مواجهاً ابنته وقد ساوره خيالان ، حزنه لعدم تمكنه تزويجها ، والآخر سروره لأنها ما زالت معه . وقد استأذنت فورموزانتا أن تضع الطائر الى جانبها على المائدة ، فسمح لها الملك بذلك .

واستمرت الموسيقى تعزف طول وقت الطعام . فسنحت بذلك لكل أمير فرصة ان يحدث صاحبته . وقد جمع ذلك الاحتفال بين أسباب السرور وأسباب العظمة ، وفي أثناء الطعام تقدم أحد الخدم بلحم متبل وضعه أمام فورموزانتا ، فأبدت رغبة في أن يرسل ذلك الصنف الى جلالة والدها لأنه من مفضلاته ، فسرعان ما أمسك به الطائر وحمله بطريقة خارقة وقدمه للملك . ولما لم يكن أحد قد شاهد شيئاً أعجب من ذلك ، دلّله الملك وربت عليه كما تفعل الأميرة ، ثم طار عائداً إليها ناشراً في أثناء طيرانه ذيلاً جميلاً أخاذاً كما مد

جناحيه الكبيرين بما فيهما من مختلف الألوان الزاهية ، وبهر الكل ريشه الذهبي، حتى لم تبقَ عين إلاّ وقفت عليه ، ووقف الموسيقاريون بلا حركة ، وامتنع على الآلهم أن ترسل بالألحان المؤثلة،ولم يشتغل أحد لا بالأكل ولا بالكلام ولم يعد يسمع غير همس شامل معبر عن الدهشة والاستغراب ، ومضت أميرة بابل تقبله طول وقت الطعام غير مبالية ان كان في العالم ملوك . فعاود النيظ والكراهية ملكي مصر والهند وملأ قلبيهما الحقد مضاعفاً ، وصمما على ارسال ثلاثمئة الف مقاتل لطلب الثأر.

أمّا ملك أسقوثيا فقد شغل بمداعبة الأميرة ألديا وقد حمله كبر نفسه أن يزدري بغير حقد انصراف الأميرة فورموزانتا عنه،فأبدى نحوها من الاستهانة أكثر مما أبدى من الاحتقار: وقال لصاحبته . «اني أسلم بأنها جد رقيقة ، ولكنها تظهر لي كأتفاهي إحدى النساء اللواتي يتهنّ اعجاباً بجمالهنّ ، ويتصورنّ بأن الرجال قد خلقهم شعور الامتنان والشكر اذا تنازلنّ فظهرنّ في المجتمع . واني لأفضل امرأة ابنة الجانب رفيقة الاحساس وأتغاضى عن قبح وجهها ،على هذا التمثال البديع . ولك يا صديقتي من الجمال ما لها ، وأنت على الأقل تتلطفين بالحديث مع الأجانب ، وأقول لك باخلاص كرجل اسقوثي أني أفضلك على ابنة ملك».

لم يكن الاسقوثي مصيباً في نظرته لفورموزانتا ، فانها لم تكن ذات أنفة وكبرياء كما يظهر عليها ، ولكن تلقت الأميرة ألديا تلك الكلمات بشيء من الاستحسان . وأغلب الظن انهما تركا المائدة وكلٌ منهما راض عن كلام الآخر ، مليء بالثقة نحوه . وبعد العشاء تريض الضيوف في خمائل الحديقة ، فلم يفصل ملك اسقوثيا والأميرة ألديا في العثور على مكان منفرد . ولما كانت ألديا سليمة النية فقد عبرت عن ذات نفسها للأمير قائلة :

«اني لأكرهابنة عمي ، ولو انها تفوقني فتنة وجمالاً ، وقدرها أن تكون على عرش بابل. وهذا العرش في الحقيقة يجب أن يؤول اليّ شرعاً ، ذلك اذا كان في الكون حق . لأني أنحدر من الفرع الأقدم لعائلة النمرود وفورموزانتا تنتمي للفرع الأحدث ، فقد نزع جدها جدي عن العرش وقتله».

فسأل ملك إسقوثيا ، أهذه هي حقوق الوراثة في بيت بابلونيا المالك ؟وما اسم جدها هذا؟

«إنه كان يدعى ألديا كما أدعى، وكما كان يدعى والدي ، الذي تمي مع أبي الى أحد أطراف الأمبراطورية ، وبعد ان ماتا ولم يعد يبلوس يخشى من شيء ، رغب في أن أتزيّنَ مع ابنته، ولكنه صمم ألاّ أتزوج أبداً .

قال الملك : « سوف أنتقم لك ولوالديك ولجدك ، وسأكون المسئول عن زواجك ،

وحيث أني سأتناول غداً طعام الغداء مع بيلوس، فانتظري بعد غد في الفجر ، فسوف أرحل بك ، ثم أعود على رأس ثلاثمئة الف مقاتل وأعيد اليك حقوقك » . فوافقت ألديا على ذلك وافترقا بعد ان تعاهدا بشرفهما ألا يخونا العهد .

أما فورموزانتا العزيزة ، فأمرت قبل أن تهجع الى فراشها بشجيرة برتقال في غلاف من الفضة ، وأن توضع إلى جانب فراشها ليجثم عليها الطائر . وبعد أن اسدلت ستائر مخدعها مضى وقت غير قصير وهي تحاول عبثاً أن تنام . فقد كان قلبها خفاقاً وخيالاتها ثائرة ، فالبطل الاجنبي ما زال ماثلا في وهمها وكأنها تراه يقذف السهم بقوس النمرود . توهمته وهو يقطع رأس الأسد ، ثم رددت قصيدته ، وأخيراً مثل لها وقد امتطى الخرتيت هائباً طريقه في وسط الجموع . فلم تتمالك نفسها وفاضت منها العبرات واكتنفتها الاهجان والهموم تأثراً من تلك الخيالات فصاحت : « هلاّ أراه بعد اليوم ؟ أسوف يعود ؟ »

رد الطائر من أعلا الشجيرة « نعم سوف يعود ، أيمكن ان يراكِ احد ، ثم لا يرغب في أن يراكِ مرة ثانية » .

« يا للسماء ! يا للقوى الأبدية ! ان طائري يتكلم الكلدانية الفصحى » ثم رفعت الستائر وانحنت على فراشها وقالت .

« هل انت انسه هبطت الأرض ، أم أنت أورومازدس الاكبر يختفي في ذلك الاهاب الريشي الجميل ؟ ان كنت هو ، فأعد إليّ ذلك الثوب الخلاب ! »

رد الطائر « لست إلاّ حيواناً عجماً ، ولكني ولدت في زمان كانت لا تزال تتكلم فيه الحيوانات ، حيث كانت الطيور والحيات والحمير والخيل والغرانيق تتفاهم بلا كلفة مع الانسان . وما كنت لأتكلم امام الناس لئلاّ يقول نساء الشرف في بلاطك إني ساحر ، ولن أبوح عن نفسي لغيرك » .

حسرت فورموزانتا عن الكلام أمام هذه الأعاجيب ماكرة بالدهشة مليئة بالرغبة في إلقاء مئة سؤال جملة ، وفي النهاية سألته عن عمره فقال « سبعة وعشرون ألفاً وثمانمئة سنة وستة أشهر ، فإن عمري يبدأ مع انقلاب الاعتدالين الصغير الذي حدث منذ ثمانية وعشرين ألف سنة من سنيكم ، وهناك انقلابان أبعد زمناً من ذلك ، وبذا فهنالك كائنات أقدم مني . وتكلمت الكلدانية خلال احدى رحلاتي منذ اثنتي وعشرين ألف سنة وقد تذوقت حلاوة اللغة . وأمّا اخواني الحيوانات الأخرى فقد أمسكوا عن الكلام في أقليمكم هذا » .

« ولماذا يا طائري القديم » ؟

« وا أسفاه ! ذلك لأنّ الناس قد عوّدوا أنفسهم على أكل لحومنا بدلاً من مخالطتنا

وتهذيب أنفسهم معنا . يا للهجج ! ألا يكفي لإفناعهم بأننا اخواتهم أن لنا نفس الأعضاء ، ونفس العواطف ونفس المطالب والرغبات ولنا فوق ذلك ما يسمونه النفس كما لهم ، فلا يجب أن يطمح ويؤكل إلا التفاهم الشرير . فإننا الى حدّ بعيد اخواتكم ، لأنّ الكائن الأعظم القادر على كل شيء ، الحي السرمدي ، قد عقد عهداً مع الانسان ، وبكل وضوح أدخلنا في نفس المعاهدة وقد نهانا كم عن تربيب أنفسكم على لحومنا كما نهانا عن مص دمائكم » .

« إنّ حرافات لقمان ، التي ترجمت الى لغات كثيرة ، ستظل الشهادة الأبدية الخالدة على المعاملة التي جريتم عليها معنا منذ زمان بعيد ، وتبدأ كل تلك الخرافات بعبارة ، « عندما كانت تتكلم الحيوانات » .

« وإنه لحقّ أن كانت هناك أسر منكم لا تزال تحتفظ بالتحدث الى الكلاب . ولكن رفضت الكلاب أن تجيب عليهم منذ أن أجبروهم بالسياط ، على الخروج معهم للصيد وإشراكهم في جريمة قتل اخواننا القدماء ، الأيائل والظباء والأرانب ، والحجال ، كما لا يزال لديكم قطعاً شعرية تكلمت فيها الخيل ، وفي كل يوم يحدثهم الجوذبة ، ولكن بطريقة محجبة وبعبارات مهينة . ولذلك كرهتكم الخيل كرهاً شديداً بعد أن كانت تظهر لكم كثيراً من المودّة والعطف » .

« إنّ أكل الرجال هم مواطني الأجنبي الذي تحجبين به ، وهي المملكة الوحيدة التي قلّ فيها نوعكم يبدي الاحترام والكرامة لنوعنا ويتحدثون إلينا ، وفوق ذلك فهي المملكة الوحيدة في العالم التي يقيم فيها الرجال العدول » .

قالت فورموزانتا « وأين تقع مملكة عزيزي المتنكر ؟ ما اسم امبراطوريته ؟ لأني لن أصدق بعد ذلك إنه ابن راعٍ ، كما لا أصدق أبداً إنك خفاش ! » .

ردّ الطائر قائلاً « إنه عند بلاد الكنجيين الذين يسكنون الشاطىء الشرقي لنهر الكنج أناس عقلاء وفضلاء متفوقين على أعدائهم . وصديقي يدعى « أمازان » وليس عندك ولست أعرف عما اذا كان يقبل أن يذل نفسه فيصير ملكاً . إنه يحب مواطنيه حبّاً كبيراً ، وهو راعٍ مثلهم ، ولكن لا تظني أنّ هؤلاء الرعاة يعاملون رعاتكم ، الذين يلبسون الخرق البالية ويرعون أغناماً أجل منهم أردية ، وفوق ذلك يئنون تحت حمل الفقر والعوز ، وأخيراً يدفعون الى السلة والنهّاب نصف أجورهم السنوية الدنيئة التي يتقاضونها من أسيادهم . وأما الرعاة الكنجيون فقد ولدوا متساوين ، ويملكون قطعاناً لا حصر لها تنتشر في حقولهم الفسيحة ، ترعى على الخضرة النزيرة ، ولا يقتل شيء من هذه القطعان أبداً ولا تؤكل ، لأن ذلك جريمة مخيفة في تلك المملكة . فهم لا يقتلون أو يأكلون أي مخلوق يتنفس ،

وإن صوف تلك الأغنام أفضل وأكثر جودة من الحرير وفيه تنحصر أعظم متاجر الشرق. وتنتج أرضهم فوق ذلك كل ما يمكن أن يكون موضعاً لإشباع رغبة آدمي . فتلك الجواهر التي كان لامازان كل الشرف أن يقدمها إليك ، هي من منجم له . والطرقيت التي شاهدته منطياً إياه ، هو الحيوان الذي يركبه الكنجيون عادة . فإنه أكثر الحيوانات زهواً وأعدها تخويفاً . وفي نفس الوقت أودع حيوان يزين وجه الأرض . فئة خرقيت وعليها مئة فارس كنجي كافية لتشتيت جيوش لا حصر لها ، فقد أقدم ملك من الهند منذ قرنين مضيا لغزو تلك الأمة وكان ذلك جنوناً منه . فقد تقدم يتبعه عشرة آلاف فيل ، وسليوز محارب وقد كانت الخراتيت تخرق أجسام الفيلة بقرونها ، كأنها الحرز الذي أشاهده مرشقاً في « البروشات » الذهبية الموضوعة فوق خوانك . وأما فرسانهم فكانوا يخرون تحت رماح الكنجيين كأنما هم نبات الأرز يحصده رجال الشرق . وأسر الملك مع ستة آلاف رجل ، واجبر على أن يستحم في مياه الكنج المفيدة للصحة ، واتباع نظام المملكة الذي لا يبيح للبشري أن يأكل غير الخضروات التي جعلتها الطبيعة بسخاء غذاء لكل مخلوق يتنفس . أما أولئك الذين يتغذون باللحوم ويدمنون الخمور ، فقد استحرت دماؤهم ، وتفتت عظامهم في مئات من المناحي المختلفة ، وأصبحت نهستهم منصبة على احراق دماء اخوانهم واتخاذ كثير من السهول الخصبة مدافن تحوط كنائسهم .

أما علاج ذلك الملك من مرضه فقد استغرق ستة أشهر كاملة ، وبعد أن فحصه الاطباء ووجدوا نبضه عادياً ، أعلنوا أذلك لعصبية الكنجية ، ومن ثمت تبع المجلس نصيحة الخراتيت. وبكل الصافية أرسلوا ملك الهند الى بلاده ومعه رجال بلاطه البلهاء وفرسانه الضعفاء العاجزين ، وقد حصلهم هذا الدرس القاسي أكثر تعقلاً . ومنذ ذلك الحين والهنديون يحملون كل احترام وتبجيل للكنجيين ، كما يحترم جهلاء الرجال الذين يرغبون في التفقه ، العلامة الذين لا يطاولونهم .

قالت الأميرة « أوافقك يا طائري العزيز ، ولكن ، أيتبع الكنجيون دين ؟ ألهم دين خاص ؟ »

قال الطائر « بكل تأكيد ، فنحن مجتمع لنبذل الشكر الى الله في الأيام التي يكتمل فيها القمر . الرجال في معبد كبير صنع من خشب الأرز ، والنساء في آخر ، لكيلا تختلط صلواتهم ، وتجتمع الطيور في خيلة ، وذوات الأربع في سهل ، ونشكر الله على كل الخيرات التي منحنا اياها ، وعندنا على الأخص بهاوات تحظ بقدرة فائقة » .

« هذه هي صورة من بلد عزيزي أمازان ، فهنالك أقيم ، وصداقتي له كبيرة كذلك الحب الذي أهمك إياه . قال وقفت بي فستنطلق معاً لزوره » .

قالت الأميرة : «انها لدعوة في الحقيقة رقيقة منك يا طائري العزيز » وهكذا كان رد الأميرة وقد وضحت على فمها ابتسامة رقيقة ، وهي تحترق رغبة في تلك الرحلة ، من غير أن تجرأ على التصريح بذلك .

قال الطائر «انني أخدم صديقي ، ولا يعدل سعادتي بحبك الأمر وري العظيم بمساعدتي اياك» .

خيل لفيرموزانتا من فرط سرورها أنها ارتفعت عن الأرض ، فان كل ما رأت في ذلك اليوم وكل ما سترى وكل ما سمعت وخاصة ما شعرت به في قلبها قد أدهشها انتعاش أولئك المسلمين السعداء عندما يشعرون بأنهم قد تحللوا من كل صلاتهم الأرضية ، فيخيل اليهم انهم قد بلغوا السماء السابعة وهم في أحضان حوريس ، تحوط بهم العظمة السماوية والرحمة الالهية .

# الفصل الرابع

## ملك مصر يقتل الطائر ، وتفر أليديا مع ملك استوريا

أمضت فورموزانتا الليل تتحدث عن أمازان ، وأخذت تدعوه براعيها، ولم تعد تدعه بأي اسم آخر . ومنذ ذاك الوقت أصبح اسم الراعي والحبيب : لفظين تستعملهما جميع الأمم مترادفين بغير تمييز .

سألت فورموزانتا الطائر عما اذا كان لأمازان أية خليلة ؟ فلما أجابها الطائر بالنفي ، شعرت بأنها في ذروة السعادة والهناء . وسألته تارةً أخرى كيف يمضي حياته ؟ فعلمت ، وقد غمرها الانشراح ، بأنه ينفق كل وقته في عمل الخير ، وفي خدمة الفنون ، وكشف أسرار الطبيعة ، وتهذيب نفسه . وتارةً أخرى أرادت أن تعرف إن كانت طبيعة نفس حبيبها من نفس طبيعة طائرها ؟ ولكن كيف يحدث هذا وقد عاش الطائر نيفاً وعشرين ألف سنة ، في حين أن حبيبها لم يعدُ الثمانية عشرة أو التاسعة عشرة من عمره . ومن ثمت ألقت على الطائر مئات الأسئلة للشابة لهذا ، فكان يجيب عليها بقدر من الحكمة أثار غضبها . وأخيراً غلب النعاس أجفانها وأسلمها الى خيالات الأحلام الجميلة التي توحي بها الآلهة ، والتي في بعض الأحيان تفوق الحقيقة ذاتها ، ويندر أن تفسرها الفلسفة الكلدانية برمتها .

تأخرت فورموزانتا في الاستيقاظ ، وكانت الشمس قد علت في كبد السماء عند ما دخل والدها الملك غرفتها . فقابل الطائر حلالته بأدب زائد ، ومشى أمامه ، وخفق بجناحيه ، ومدّ عنقه ثم جثم على شجيرة البرتقال . أما فورموزانتا فجعلتها الأحلام أكثر فتنة وجمالاً فجلس الملك على فراشها وانحنى عليها حتى اقتربت لحيته الكبيرة من محياها وضمها في حنان ، ثم حدثها قائلاً :

« يا بنيتي العزيزة ، انك لم تتمكني بالأمس من العثور على زوج يوافق رغباتي ، ومع ذلك يجب أن تتزوجي . ان في ذلك سعادة أمبراطوريتي . وقد استشرت النبوءة التي تعلمين انها لا تخطيء ابداً ، وانها توجه كل اعمالي ، فوجدت رغبتها في أن تجوبي العالم ، وعلى ذلك يجب أن تبدئي هذه الرحلة .

عجباً ! الى الكنعانيين بدون ذلك ! ولكنها أحست بحماقتها لما تفوهت بهذه الكلمات العاجلة ، وحينئذ رد عليها الملك ، وكان يجهل الجغرافيا جهلاً تاماً ، مما تعني بالكنعانيين ؟ ولكنها استطاعت بسهولة ان تغير مجرى الحديث . وبعد ذلك أخبرها الملك بأنها يجب ان ترحل في عجرتها وانه عين كل الأشخاص الذين سيرافقونها وهم رئيس مستشاري الدولة ، ورئيس الحجاب ، ووصيفة شرف ، وسيدلي والطائر ، وجميع الخدم اللازمين .

كانت فورموزانتا الى حين وصول أمازان والملوك الثلاثة ، تعيش في قصر أبيها عيشة لا طعم لها . فإنها لم تعاوده مرة واحدة وفقاً لتقاليد البلوك المتبعة مع من كنّ في مثل منزلتها . وقد كانت سرت كثيراً لخروجها في عجرة بعيدة ، ومضت تحدث نفسها : من ذا الذي يدري ؟ لعل الآلهة توحي لأمازان بنفس الرغبة في الذهاب الى نفس المعبد ، فيسعدني الحظ برؤيته مرّة ثانية ؟ ثم شكرت والدها بكل غبطة قائلة بأنها كانت دائماً تحمل في نفسها حبّاً دفيناً للقديس الذي سوف تزوره .

أقام الملك بيلوس في ذلك اليوم حفلة غداء فاخرة للرجال من ضيوفه ، وقد كانوا صحبة غير متجانسة ، منهم الملوك ، والأمراء ، والوزراء ورؤساء الدين ، وفي قلب كل منهم غيرة متقدة نحو صاحبه . ومضوا يزنون كل كلمة تخرج من أفواههم ، فلا يرصلونها إلاّ بعد أن يزنوها جيداً ويتفحصوها ، حتى لقد ملكت كل منهم خشية مفرطة من صاحبه أولاً ، ثم من نفسه ثانياً . وكان جو المائدة مظلماً كئيباً رغم أنهم أسرفوا في احتساء الخمر . أمّا الأميرتان فقد بقيتا في حجرتيهما ، تفكر كل منهما ، وتتأمل رحلتها العظيمة ، وتناولتا الغداء في جرنهما الصغير . وبعد الغداء خرجت فورموزانتا تتجوّل في الحديقة بصحبة طائرها الذي كان يتنقل بين الشجيرات ناشراً ذيله الجميل وريشه القدمي ليدخل في نفسها السرور .

أمر ملك مصر ، وقد لعبت برأسه الخمر وإن لم يثمل ، أحد وصفائه أن يحضر له فرساً وسيماً . وكان الملك في الحقيقة أقل الرماة حذقاً ومهارة في مملكته . فإنه عندما يقذف بسهم يكون الهدف آمن الأهداف . ولكن في تلك اللحظة كان الطائر الجميل مندفعاً في الجو بسرعة تضارع سرعة السهم ، فلم يستطع أن يتفاداه ، ووقع بين يدي الأميرة يتخبط في دمه ، وعاد المصري الى مكانه مرسلاً ضحكة ملؤها السفه والحماقة . وأمّا فورموزانتا فصدعت جنبات السماء بأنّاتها ، وانحدرت منها الشئون فياضة ، ومزّقت شعرها وضربت صدرها ، وعندئذ قال لها الطائر المحتضر في صوت خافت هزيل : « أحرقيني ، ولا تتوانى عن حمل رمادي الى شرقي مدينة عند القديمة ، وعرّضي رمادي للشمس فوق عمود صغير

من القرفة والقرنفل » . وما إن قال ذلك حتى أسلم الروح .

أغمي على فورموزانتا وقتاً غير قليل ، ولم تفق إلاّ لتنفجر عيناها بالدّمع وقلبها بالأنّات . أمّا أبوها الذي شاركها حزنها واستنزل اللعنات على فرعون مصر ، فلم يشك في أنّ هذه الحوادث إنما هي نذير بحوادث أعظم . وسرعان ما ذهب يستشير النبوءة ، فأجابت « من كل شيء أثر : حياة وموت ، أمانة وخيانة ، خسارة وربح ، سعود ونكبات » . ولم يفهم الملك ولا أعضاء مجلسه أي معنى لهذه الأجابة ، ولكنه اكتفى في النهاية بأنه قد أتم واجبات العبادة .

كانت فورموزانتا خلال هذا الوقت قد تبللت بالدموع وأتمت مراسم الجنازة للطائر كما رسمها ، وصمّمت أن تحمل بقاياه الى بلاد العرب محافظة بحياتها من أجله ، فجمعت تلك البقايا في آنية صغيرة من الذهب مطعمة بالياقوت الأحمر والجواهر ، بعد أن نزعتها من فم الأسد القتيل .

أواه ! لو أنها تحرق ملك مصر البغيض حيّاً بدلاً من أن تقوم بهذا الواجب المحزن ! هذه كانت رغبتها لكنها تعزّت عن ذلك فقتلت مماحيه ، وبفروسيه ، وحماريه الوحشيين ، وفأريه ، وألقت بجثثهم المحنطين في الفرات ، ولو أنها تملك عجلة أبيس لما توانت في أن تحرق عليه .

أثارت هذه الاهانة غضب ملك مصر ، فأرسل في الحال يطلب رجاله الثلاثمئة ألف ، ولما رأى ملك الهند أنّ حليفه قد رحل ، أرسل هو أيضاً في نفس اليوم لرجاله ، وفي نفسه أن يضم الثلاثمئة ألف هندي الى الجيش المصري . وفرّ ملك اسقوتيا في الليل مختطفاً ألديا وهو أشد ما يكون رغبة في أن يحارب في سبيلها على رأس الثلاثمئة ألف إستراتي ، ويعيد حقوقها في ورثة عرش بابل ، حيث أنها تنحدر من الفرع الأكبر لعائلة النمروذ .

ورحلت فورموزانتا الفائقة بثاقبة البصيرة في الثالثة من الصباح ، وهي تعني نفسها بالذهاب الى بلاد العرب لتتم آخر إرادة لطائرها العزيز مؤمنة أنّ عدل الآلهة سوف يعيد إليها عزيزها أمازان ، وقد أصبحت الحياة بدونه عبئاً لا يحتمل .

عند ما استيقظ ملك بابل ووجد أن الجميع قد رحلوا صاح :

« هكذا انتهت الاحتفالات العظيمة ! فأي فراغ مؤلم قد خلفوا عندما مضوا على عجل مسرعين » . وما لبث أن انتابه غضب ملكي السمات ، لما علم أن الأميرة ألديا قد اختطفت فأمر أن يحضر إليه وزراؤه في الحال ، وأن يجتمع مجلس مشورته ، وبينما هم يتأهبون لذلك لم ينس إستشارة النبوءة ، غير أنه لم يفز منها إلاّ بكلمات أصبحت من الشهرة بحيث هتف

جميع انحاء العالم منذ ذاك الوقت ، فقد قالت « عند ما يهمل الأهلون تهيئة بناتهن للزواج ، فإنهن يزوجن أنفسهن »

وصدرت في الحال الأوامر بتوجيه ثلاثمئة ألف مقاتل الى ملك إسقوثيا . وعندئذ أشعلت نار حرب مهولة كان سببها تلك المسرات التي أقيمت في أعظم حفل عرف على وجه الأرض . وأصبحت آسيا المركز الذي تخترقه أربعة جيوش عداد كل منها ثلاثمئة ألف رجل . وجلي أن حرب طرواده التي أدهشت العالم بعد ذلك بعدّة عصور ، لم تكن إلاّ لعب أطفال اذا هي قرنت بهذه الحرب . ولكن ينبغي أن نعي أنّ عراك الطرواديين لم يكن له من سبب إلاّ امرأة هرمة خسيسة الاخلاق ، حاولت أن تختطف مرتين ، في حين ان حربنا هذه للاثية الأسباب : فتاتان ، وطائر .

توجه ملك الهند للقاء جيشه في طريق متسع كامل النسق عند كشمير ، ويؤدي رأساً إلى بابل . وفرّ ملك إسقوثيا مع ألديا عبر الطريق الجميل الذي يسلم إلى جبل إيدوس . امّا هذه الطريق الجميلة فقد تلاشت في طيّات الزمن الماضي بسبب سوء ادارة الحكومات . واتجه ملك مصر نحو الغرب على ساحل البحر المتوسط الصغير الذي كان يسميه العبرانيين الجهلاء في ذلك الوقت بالبحر الأعظم .

وتبعت فورموزانتا الطريق المؤدي الى البصرة ، وكانت تكتنفه أشجار النخيل الباسقات فتمده بظل دائم ، وفي خلال كل الفصول . وكان المعبد الذي ستؤدي واجبات العبادة فيه في البصرة نفسها . وكان القديس الذي أقيم له هذا المعبد ، على نفس صورة القديس الذي عبد بعد ذلك في تسالونيكي ، وقد أصاب نجاحاً كبيراً في تهيئة الأزواج للفتيات الصغيرات . والواقع انه القديس الأقدس في آسيا كلها .

وفي الحقيقة لم يكن لفورموزانتا أية رغبة في الذهاب لتقديس البصرة ، بل انحصرت كل رغبتها في أن تحظى بعزيزها الراعي الكنعاني ، وبالحري حبيبها أمازان . فاقترحت أن تبحر من البصرة ثم تلتقي برحلها في أرض الحجاز لتنفذ ما أوصى به طائرها المبتّ .

لم تكد فورموزانتا تدخل الى فندق جميل حيث أعدّ لها أتباعها كل أسباب الراحة ، حتى علمت بأن ملك مصر قد سبقها اليه . فانه لما علم من عسسه بالطريق الذي قبعته ، بدّل طريقه في الحال فتبعه حاشيته العظيمة ، حتى وصل الى الفندق ، فترجل عن جواده وأقام حراساً على جميع الأبواب ، ثم توجه الى غرفة فورموزانتا حيث بادرها قائلاً .

« أيتها الآنسة ، إنك المرأة التي أجد في طلبها ، لكنك لم تلقي اليّ بالاً عند ما كنت في بابل . إنه من العدل أن تعاقب الهوائيات ذوات الكبر والتنامخ . هل لك أن تتلطفي

وتتناولي معي عشاء اليوم ، على أن يكون تصرفي معك معادلاً رضائي عن تصرفك ؟ »

أدركت فورموزانتا أنها الجانب الأضعف ، ورأت أنه من الحكمة ورجاحة العقل أن يتصرف الانسان بحسب الظرف الذي يحيط به ، فصممت على التخلص من ملك مصر بحيلة بريئة ، ونظرت إليه من طرف عينيها تلك النظرة التي عرفت فيما بعد ذلك من العصور « بغمز العين » ومضت تحدثه برقة ، وأدب وتواضع ، ودلال ، وحيلة أخرى من ضروب الفتنة تكفي لأن تخلب أعقل العقلاء ، وتخدع أنبه الناس .

« أعترف يا سيدي أني اغضضت دائماً من نظري عند ما شرفت أبي الملك بزيارتك ، فتكنت أضمر بعض عواطف تختلج في نفسي وخفيت أن تم عنها مذاجتي ، وكنت أرتجف خوفاً من أن يلحظ أبي ومنافساك ، تفضيلي إياك ، وإنك لجدير به . أما الآن فأستطيع أن أعلن عن عواطفي ، فأقسم لك بالعجل أبيس الذي لا أحترم من شيء في العالم أكثر منه بعدك ، بأن اقتراحك فتنني . وقد تشرفت بمؤاكلتك بصحبة والدي ، وسوف يزيد شرفي بأن أواكلك على انفراد مرة ثانية ، على أن يشاركنا في الشراب رئيس حجابك ، فقد تبين لي في بابل أنه محدث فاره . ولدي قدر جيد من خمر شيراس المشهور . وستصيبان منها . إني لأنظر اليك نظرتي لأعظم الملوك ، وأحب الرجال » .

غيرت هذه المنافقة من رأي ملك مصر ، فقبل مشاطرة رئيس حجابه له في الشراب ، ثم مضت الأميرة تقول بأن لها رجاء آخر هو أن يسمح لها بالتحدث الى صيدليها الخاص ، معتذرة بأن النساء دائماً تنتابهن بعض الأوجاع الخفيفة التي تتطلب العناية ، كأن يجرة في الرأس مثلاً ، أو اضطرابات في القلب أو مغص في الأمعاء وما شابه ذلك من الأمور التي تستدعي الرعاية والمساعدة . وأني لأشعر أني في حاجة الى الصيدلي وآمل ألا ترفض لي طلباً ، إن دلّ على شيء ، فإنما يقوم شهادة على ثقة منك بسيطة بشخصي » .

أجاب الملك « إني أعرف الحياة جيداً ، ولا أرفض لك مثل هذا الطلب العادل ، فعاذن للصيدلي أن يقدم لك خدماته حتى يحين وقت العشاء ، ولقد يخيل إليّ أن الرحلة قد أنهكتك بعض الشيء ، وانك تحتاجين الى إحدى وصيفاتك ، فاستدعي أحبهن الى قلبك . واني بعد هذا كله رهن أوامرك وطوع مشتهياتك » ثم انصرف .

حضر اليها الصيدلي ووصيفة تدعى « إرلا » وكانت الأميرة تثق بها ثقة عمياء فأمرتها باحضار ست زجاجات من خمر شيراس مع العشاء ، وأن تسقي كل الحراس الذين أمرهم ملك مصر أن يقبضوا على ضباطها من ذلك الخمر . ثم أمرت الصيدلي أن يضيف الى الزجاجات عقاراً مخدر كان يحتفظ به ولا يفارقه ، ومن شأنه ان يسلم من يتعاطى منه هيئاً الى

نوم عميق أربعة وعشرين ساعة . فأطاعها العبدلي بثقة تامة . ومن ثمت عاد الملك بعد نصف ساعة ومعه رئيس حجابه . وكان حديث العشاء مرحاً ، فشربت الزجاجات كاملة ، مستغرقين بأنه لا يوجد في مصر مثل هذا الخمر . كذلك لم تغفل الوصيفة في القيام بمهمتها ، ولم تتناول الأميرة قطرة واحدة قائلة أن طبيبها أمرها باتباع نظام خاص . ثم لا بد هم نوم عميق .

كان رئيس الحجاب يلبس لحية مستعارة من أجل اللعب التي تليق برجل في مثل منزلته ، فانتزعتها فورموزانتا بمهارة فائقة ، وحاكتها في شريط من القماش وليستها ، وارتدت لباس الكاهن ، وزينت نفسها بكل أوسمة الشرف التي له . وأخذت إرلا ثوب حافظ الأثواب الكنسية للاله إيزيس ، وبعد ان تحلت فورموزانتا بأرديته وجواهره ، غادرتا الفندق بين صفوف من العسكر يغطون في نوم أعمق من نوم أصيادهم . وقد أعدلها خادمها عند الباب جوادين ، غير انها لم تتمكن لان تصحب معها اي من ضباط حاشيتها حذر ان يمنعهم حارس الباب الأكبر .

مرت فورموزانتا وإرلا بين صفوف من الجند مختلفة الرتب ، وقد ظنوا ان الأميرة الكاهن الأعظم ، فكانوا ينادونها بقولهم « يا أبي المحترم » ويسألون الغفران . وبعد اربعة وعشرين ساعة وصلتا الى البصرة قبل ان يستيقظ الملك ، وحلقتا ما تنكرتا به من الثياب ، خشية ان يبعث لباسهما بعض الشك في الناس .

ومضتا تستعدان للسفر بسفينة كاملة العدة شطر بواخيزهرمز عند شواطىء عدن الجميلة في الحجاز . وكان لحدائق عدن شهرة فائقة اذ كانت في ذلك الوقت موطناً لأعاظم بني البشر ، وقد نسقت على غرار الحقول الالوزية ، وحدائق هسپريدس ، والجزر السعيدة . وقد تخيل الناس ان في تلك الأقاليم الدفيئة لا يوجد عناء اعظم من الظلال الوارفة والنهيرات الهامسة ، ولن يعيش الانسان دائماً في السماء مع الطائف الأول ، وان يتجول في جنة الفردوس ، منهم كمثل اولئك الذين يثرثرون من غير ان يفهم بعضهم بعضاً ، أولئك الذين ليس لهم آراء معينة او تعبيرات واضحة .

عندما بلغت الأميرة أرض عدن ، صرفت كل همها الى اقامة المراسم الجنائزية التي طلبها طائرها العزيز ، ثم جمعت بيديها الجميلتين بعضاً من القرفة والترنجبين ، ولشد ما كانت دهشتها إذ رأت عند ما نثرت حطام الطائر من فوق هذه المحرقة الجنائزية ، انه اشتعل من تلقاء نفسه وبسرعة عظيمة . لم يظهر في مكان الحطام شيئاً اللهم الا بضعة كبيرة خرج منها الطائر الجميل أكثر بهاء وروعة من ذي قبل ، فكانت تلك اللحظة من أسعد لحظات حياتها ، إذ لم يكن من شيء أعز عليها من طائرها ، الا مرمى رغباتها ، ذلك الذي كان دائماً فوق آمالها .

قالت الأميرة « أرى بوضوح أنك بذاتك العنقاء التي طالما سمعت عنها ، واني لا كاد أقضي فرحاً ودهشة ، بيد أني لا أعتقد في بعثك ، لكن من حسن حظي ان اقتنع بذلك.

قالت العنقاء « البعث في الحقيقة أحد الأشياء البسيطة في الوجود ، فانه ليس يشيء أكثر من ان تولد مرتين ، وكل شيء في الكون أثر من آثار البعث ، فاليساريع تنبعث فراشات ، والبذرة في الأرض تتولد منها الشجرة ، وكل الحيوانات التي تدفن في التراب تستحيل ذروماً وحفائش تربت بها حيوانات أخرى ، فتتحول بسرعة عظيمة جزءاً من جوهرها . إن كل الذرات التي تؤلف الأجسام تنقلب موجودات مختلفة ، وفي الحق انني البكائن الوحيد الذي تفصل « ارمزد » وبعثني في سورتي الأولى .

أجابت فورمزانتا وقد شملها منذ اللحظة الأولى التي شهدت فيها أمازان والعنقاء ، جو من الدهشة والعجب « أستطيع بكل سهولة أن ادرك ان الخالق الأول قادر على أن يخرج من بقاياك عنقاء على تمام الشبه بك ، أما أن تعود ذات الشخص ، وبنفسك الأولى ، فذلك ما لا أستطيع أن افهمه بجلاء . خبرني ما الذي حمل بنفسك بعد أن جعلت بقاياك في جسم آخر ؟ »

قال « تأملي لحظة واحدة ، أليس من الهين على ارمزد العظيم أن يستمر في التأثير على ذرة واحدة من جثماني ، ويعيد اليّ الحياة ؟ فتقدسليني من قبل ذلك الحاسة والفكر والذاكرة ثم وهبني اياهم مرة أخرى . وسواء أوضع سره في ذرة من النار الأولية كامنة في جثماني أو في جموع أعضائي ، فتلك مسألة في الحقيقة ليست ذات بال . إن الانسان كالعنقاوات لا يعرف مستقبل الحياة ، ولكن السر الذي وهبني إياه الخالق الأول هو لا يحادثني اليك عجباً ! وأن أعيش تلك الثماني وعشرون الف سنة التي يجب أن أحياها قبل بعثي المقبل بصحبتك وبصحبة عزيزي أمازان » .

قالت الأميرة « تذكر يا عنقائي العزيز ما خبرتني به في بابل ولن انساه ، والذي يبعث في نفسي الأمل في ان ارى من أحب مرة أخرى . ولا بد لنا من ان نزور الكنعيين معاً ، فمن الضروري ان اعود إلى بابل ومعي امازان » .

قال « هذا ما صممت عليه ، وليس لدينا لحظة نضيعها عبثاً . ويجب ان نبحث عن أمازان من اقرب الطرق ، وذلك بطريق الماء . فان لي غرفينيز من اصدقائي ، على بعد مئة وخمسين الف فرسخ من هنا ، وسأكتب اليهما رسالة يحملها بريد الحمام ، وسوف يصلان قبل المساء . ولدينا من الوقت ما يتسع لصنع هودج بأدراج يمكن ان تحتفظي فيها كفايتك من الطعام . وسوف تتميز ووصيفتك براحة تامة فيه . ان هذين الغرفينيز من اضخم أنواع جلسها ويستطيع كل منهما ان يحمل احد مودي الهودج في مخلبه ، ولا شك في ان الوقت ثمين جداً » .

وفي الحال ذهبت فورموزانتا مع الطائر الى متجد من معارفه ليصنع لهم هودجاً ، فأتم عمله في أربع ساعات ، واحتفظوا في ادراجه ببعض ارغفة صغيرة وفطائر افضل مما في بابل من مثلهما ، وزود من الليمون الكبير والتفاح والكاكاو والفستق ، وخمراً عدنية فضلها على خمر شيراس ، كفضل هذه على خمر سورينام .

وصل الغرفينان عدناً في الوقت المحدد ، وكان الهودج مريحاً خفيفاً ، على صلابته ومتانة بنائه . فأخذ كل من فورموزانتا وايرلا مكانهما فيه وحمله الغرفينان في مخالبهما وكأنهما يحملان ريشة ، واتخذا صفهما نحو الكنج في سرعة سهم يشق الهواء . وكان العنقاء يطير خلفه ، مرة ويحوم على حاشيته اخرى ، ولم يتوقف الغرفينان غير مرة واحدة ليتزودا بالماء وليتناول المسافرتان بعض المرطبات .

وصل الركب بعد لأي الى مملكة الكنجيين ، فخفق قلب الاميرة بالحب والأمل والسرور وأهبط العنقاء الهودج امام بيت امازان ، فعلموا انه رحل منذ ثلاث ساعات ولا يدري أحد أي الاقطار اراد .

لم تكن هناك من كلمات حتى في لغة الكنجيين تعبر عن مدى خيبة امل فورموزانتا صاح العنقاء « يا حسرتاه ! هذا ما كنت اخشى ، ان ثلاث الساعات التي امضيتها في الفندق على طريق البصرة مع فرعون مصر الشقي ، ربما كانت ثمناً لسعادتك بقية الحياة . واني اخشى تماماً ان تفتقد امازان بلا امل في العثور عليه » .

سأل العنقاء هل يمكن ان يقابل ام امازان ، فأجابه الخدم ان زوجها قدمات منذ يومين ولا يمكنها ان تكلم احداً . واذ كان للعنقاء بعض النفوذ ، أدخل الاميرة الى قاعة استقبال فاخرة ، يغشى جدرانها خشب البرتقال المطعم بالعاج .

قام رماة أمازان من الرجال والنساء في أكسية بيض طويلة مذهبة الاطراف ، يقدمون لها مئات من طيب المأكل في آنية مسطحة من الخوف ، بريئة من الأقذار والعفن ، كالارز والساغو والشعرية والمكرونة ، والعجة والبيض ، واللبن والقشدة والجبن ، وصنوف أخرى مختلفة ، مع خضروات وفواكه لذيذة الطعم فريدة في نكهتها ، ليس لها من نظير في الاقاليم الاخرى ، كما قاموا بتقديم سوائل مرطبة تفضل أنقى أنواع الخمر .

وبينما كانت فورموزانتا تستلقي على فراش من الورد ، وتتناول من الطيبات التي قدمت إليها ، إذ بأربعة من الطواويس تتناغى مرحة مهللة ، ملقت تروح عليها بأجنحتها الزاهية . وأخذ مشاط طير ومشة راعٍ وراعية يرتل كل منهم أنغاماً مختلفة عن الأنشودة التي يرتلها الآخر ، وانطلق مع أغنيات الرماة جمع من الشراشير والبلابل والرقيقات يرسلن بتنغيماتهن

العالية . حينئذٍ اعترفت الأميرة ، أنه لو كان هناك من عظمة تزعظمة بابل لتضاءلت أمام جلال الطبيعة في بلاد الكنعانيين ، وبينما كانت هذه الموسيقى المحبّبة الجميلة ترسل أنغامها الشجية كانت الدموع تنهمر من عيني الأميرة ، فقالت للآنسة إرلا :

« إنّ هؤلاء الرعاة والراعيات والبلابل والزقيقات، لمتحابون جميعاً . أمّا أنا فمحرومة من البطل الكنعاني الذي إليه تتجه كل عواطفي وأفكاري . وبينما كانت تلك المقارنات تتخايل أمامها كانت دموعها المنهمرة تتخطى ما قام في نفسها من ضروب العجب والاندهال».

ثم تقدمت العنقاء الى أم أمازان قائلة : « لا يمكنك يا سيدتي أن تتجني رؤية الأميرة بابل فإنك تعلمين ...

قالت « نعم . أعلم كل شيء ، وحتى خواطرها في الفندق وهي في الطريق الى البصرة . إنّ طائراً أسود قص لي هذا الصباح كل ما حدث ، فكان له من سيء الوقع ما أجنّ ولدي وجعله يغادر منزل والديه » .

قال « ألم تعلمي أني الأميرة أعادتني الى الحياة » .

أجابت « لا يا عقلي العزيز ، إنّ الطائر الأسود أخبرني بموتك الذي لا يتعزى عنه . فقد تأثرت كثيراً لتلك الخسارة ، وأوت زوجي ، ولترك ولدي منزله في هذه العجلة . فأمرت أن يغلق بابي في وجه الجميع . هذا ما أخبرني عن إدخال الأميرة ، وقد شرفتني بزيارتها . على انّ لديّ من الأمور الهامة ما أود أن أحيط الأميرة علماً به وأود لو شهدت الحديث .

وذهبت لترى الأميرة في غرفة أخرى . وكانت تتعثر في خطاها ، فقد بلغت من العمر قرابة ثلاثمئة سنة ، لكن لا يزال للجمال عليها طابع له روعة ، تدلنا على أنها عندما كانت في الأربعين أو الخمسين بعد المئتين ، لابدّ وأنها كانت ذات حسن عظيم . وقابلت فورموزانتا في احترام عظيم يشوبه جو من التلهف والحزن أثار في نفس الأميرة كثيراً من الطرب والانشراح .

عزّتها فورموزانتا في فقد زوجها فقالت الأرمل : وا أسفاه ! إنّ هنالك أسباباً لحزنك على فقده أكثر مما تتصورين .

ردّت فورموزانتا « إني متأثرة بدون شك فإنه والد ... » ومنعتها عبراتها عن تتمة الكلام . ثم استطردت قائلة « قمت لأجله بهذه الرحلة ، التي نجوت من أخطارها بأعاجيب ، وبسببه تركت أبي وأعظم بلاط على وجه الأرض ، وعاقني ملك مصر الذي أمقته . ثم بعد أن افلت من عبوديته ، واخترقت الجو بحثاً عن الرجل الوحيد الذي احبه ، لم أكد اصل

حتى فرّ مني » ! ثم انحدرت على خديها دموع حزينة، وسكتت .

قالت أم امازان « عندما ادركك ملك مصر وانت في الطريق الى البصرة ، وتناولت معه العشاء ، ثم ملأت له كأساً طافحة من خمر هيراس ، ألم تلحظي طيراً اسود بالغرفة » .

قالت الأميرة « نعم . أتذكر الآن انه كان بالغرفة طير اسود لكني لم اعره أدنى انتباه. ولقد أتذكر الآن انه عند ما همّ ملك مصر بأن يقتلني طار من النافذة مرسلاً صيحة عالية، ثم اختفى » .

«وا أسفاه ! هذا يا سيدتي سبب شقائنا ، فقد أرسل ابني هذا الطائر الأسود ليوافيه بأخبارك وبصحتك وبكل ما يحدث في بابل ، ثم اقترح أن يذهب إليك سريعاً ويلقي بنفسه عند قدميك ويكرّس بقية حياته لخدمتك . إنك لا تعلمين مقدار حبه لك وحدبه عليك . فإن كل الكنجيين عيون غاصبون ، لكن ولدي أكثرهم عاطفة وأشدهم اخلاصاً . فلما وجدك الطائر الأسود تمرحين في الفندق مع ملك مصر والكاهن اللئيم ، ثم شاهدك تعانقين هذا الملك الذي قتل العنقاء والذي يحمل له ولدي كرهاً دفيناً ، طار عنكما وقد ملكه مقت عظيم من جراء خطئك الجسيم ، وعاد اليوم فأخبرنا بكل شيء» .

«يا للسماء ! إنه لموقف حرج . في نفس الوقت الذي كان فيه ولدي يندب فقد والده والعنقاء الحكيم ، أخبرته بأنه ابن عمك عصياً» .

«يا لله ! إبن عمي ! أيمكن هذا يا سيدتي ؟ كيف يكون ذلك ؟ أهذا القدر سعيداً أنا بقرابته ، وشقية بخصامه ؟

قالت الكنجية « إن ولدي ابن عمك ، وسوف أقنعك بذلك ، إلاّ أنه لن ينسى الألم الذي أثاره في نفسه معانقتك ملك مصر » .

صاحت فورموزانتا الفاتنة « أقسم به يا سيدتي العزيزة ، وبكل القوى الأوزيدية ، أن تلك المعانقة كانت بريئة تماماً من الإثم . وهذا برهان قوي لاثبات حبي لولدك ، فلأجله خاطرت والدي وبسببه رحلت من الفرات الى الكنج ، ووقعت بين يدي فرعون مصر الخبيث ولم أتمكن من الافلات منه إلاّ بالخديعة ، ثم إني لأدعو بنايا العنقاء التي كانت في جيبي للشهادة ، . لكن كيف يكون ولدك وقد ولد على شواطىء الكنج ابن عم لي ، وقد حكمت عائلتي على شواطىء الفرات قروناً عديدة ؟ »

قالت الكنجية المبجلة « إنك تعلمين ان عمك الأكبر ألديا كان ملكاً لبابل وأن والد بيلوس انتزع منه العرش . وتعلمين أن ألديا هذا كان له ولد يدعى ألديا كذلك ، فلما طارده والدك ، فرّ الى مملكتنا واتخذ اسماً مستعاراً، وتزوج مني فأنجبت له الأمير الصغير ألديا

امازان ، أكثر الناس جمالاً وشجاعة وكرماً ، ولكنه الآن أكثرهم تعاسة وشقاء . ذهب الى حفل بابل مأسوراً بجمالك الفتان ، فشغف بك منذ رآك ، وحزن الآن لاعتقاده بأنك خنته ، وربما لا أراه بعد ذلك » . ثم أفضت إليها بجميع أسباب حالة أبيها . لكن فورموزانتا لم تبد أي اهتمام بذلك .

قالت فورموزانتا « عجباً يا سيدتي ! ألنا أن نبحث عن الغرض الذي يحرك رغبتنا ؟ إن قلبي يصدقك تماماً . ولكن أين أبي يا امازان ؟ أين قريبي ؟ أين ملكي أين حياتي ؟ اي الطرق اتبع ؟ فسأجد في اثره ، وسأبحث عنه في كل كرة خلقها الاله الازلي ، والتي يكون لامازان اذا هبطها أزين ما فيها . سأذهب الى سهيل والذرع والدبران . سأذهب وأقضي له بحبي واقنعه ببراءتي » .

ثم إذ التقاء برأ الاميرة من الجريمة التي نسبها اليها الطائر الاسود ، إلا انه من الضروري ألا يظل امازان مخدوعاً وينبغي ان يعثر به فأوفدت الطيور في كل فج ، ورحلت المطرانيت الى كل مقمع ، ثم وصلت الانباء اخيراً بأن امازان في طريقه الى الصين .

قالت الاميرة : « حسن ، إذن لنرحل الى الصين ، فسأبحث عنه متحدية كل صعوبة وكل خطر ، فالرحلة ليست طويلة وآمل أن اعيد اليك ولدك في اربع عشرة يوماً على الاكثر » .

وعندئذٍ انحدرت الدموع من عيني الاميرة وأم امازان ، ثم تعانقتا في حنان صدر من اعماق قلبيهما ، وسرعان ما امر العنقاء بعربة يجرها ستة خراتيت ، وجهزت ام امازان ألفي جواد بفرسانها من الكنجيين ، واهدت الاميرة آلافاً من الجواهر النادرة . امّا العنقاء فقد ساءه الحادث المنكر الذي تسبب فيه الطائر الاسود بحمقه ، فأمر جميع الطيور العود ان تغادر البلاد . ومذ ذاك لم ير واحد منها على شطآن نهر الكنج .

# الفصل الخامس

## طواف فورموزانتا في الصين واستقراره

## بحثاً عن أمازان

حملت الخرافيت فورموزانتا وإيرلا والعنقاء الى كمبالو عاصمة الصين في أقل من ستة أيام ، وكانت تلك المدينة أضخم من عاصمة بابل وتختلف في ظاهرها عنها كل الاختلاف ، وأصبح من المحتمل أن تبعث تلك المناظر المختلفة والأحوال الغريبة بعض السلوى في نفس فورموزانتا لو لم يستول أمازان على انتباهها جملة.

لما علم أمبراطور الصين أن أميرة بابل على أبواب المدينة ، أرسل في الحال أربعة آلاف مأمور صيني في أثواب الاحتفالات لاستقبالها ، فانحنوا خشعاً لديها وتقدموا اليها برسالة كتبت بأحرف من الذهب على نسيج من الحرير الاورجواني . وحينئذٍ قالت فورموزانتا أنها لو ملكت أربعة آلاف لسان لما تأخرت في أن تفكر كل منهم ، أما وان ليس لها غير لسان واحد ، فإنها تأمل أن يكتفوا بأن تفكرهم إجمالاً . ثم وجهوها الى حيث كان الأمبراطور باحترام عظيم .

كان الأمبراطور أحكم وأعدل ملوك العالم وأكثرهم حبًّا للخير ، فهو أول من فلح حقلاً صغيراً ، زرعه بيديه الأمبراطوريتين ليجعل من الزراعة عملاً شريفاً عند رعيته . ومما يخجل أن قوانين كل البلاد الأخرى قد قصرت العقوبات على الجرائم فحسب ، أما هو فأول من نص في قوانينه على ثواب الفضيلة والخير . وبادر فنقى عصابة من المنزيين هبطت من أطراف الغرب آملة أن تفلح في أن تجر الصينيين على أن يفكروا كما يفكرون ، فحظوا بالثروة والتشاريف تحت ستار الدعوى بالعمل على تلقين الحقائق ، وقد برر طردهم بتلك الكلمات التي سجلت في السجلات التاريخية للأمبراطورية :

« يمكنكم أن تفعلوا هنا كل ما فعلتموه من أضرار خارج بلادي . حضرتم لتلقنوا مذاهب الاسطهاد لأكثر الأمم تسمحاً على وجه الأرض . ولذا أردكم ثانية حتى لا اضطر أن أعاقبكم ، واسوف تسافرون الى حدود مملكتي بعظيم الاحترام ، مزودين بكل

الحاجيات التي تلزمكم حتى تصلوا الى حدود نصف الكرة التي هبطتم منها . فأرحلوا بسلام إن استطعتم ان تكونوا رسل سلام ، ولا تعودوا » .

سمعت اميرة بابل تلك الكلمات ورأت ذلك الحزم ، فضرها الانشراح ، وتأكدت تماماً من حسن استقبالها في البلاط حيث انها كانت بعيدة كل البعد عن أي مذهب من مذاهب التعصب . وتفضل أمبراطور الصين حينما تناول معها طعام الغداء وجهاً لوجه، أن يتحاشى الرسميات الثقيلة . ولما قُدِّمت له العنقاء دللها بلطف وأجلسها على مقعده . وتوسلت اليه الاميرة أن يبحث عن أمازان في مدينة كبالو ، وأفضت اليه خلال ذلك بمغامراتها غير مخفية تلك العاطفة الجارفة التي تحرق قلبها شوقاً نحو هذا البطل الشاب .

قال امبراطور الصين « انه شرَّف حاشيتي بزيارته ، فتشتت بهذا الامازان اللطيف . والحق انه في أشد حالات الكرب والضيق ، ولكن رقة حاشيته وكرم خلقه ، ولا هناك ، أشد تأثيراً من كربه وضيقه . ليس من رجالي المخلصين من هو اعظم منه قدرة ، ولا من رجال الدين عندي من يفوقه معرفة ، ولا من رجالي المحاربين من يبزه في المهارة الحربية او البطولة . فلو اصابني سوء الحظ وخذلني الثبات والهاتكتي ورغبت في ان اكون غازياً ، لما طمعت في شيء طمعي في ان يكون امازان على رأس جيوشي . ولن يداخلني ادنى شك في اني سأفتح الكون كله . ولشد ما آسف اذ كان الحزن في بعض الاحيان سبباً لشغله » .

قالت فورموزانتا بكثير من الانفعال والحزن مازجهما ريح من التأنيب واللوم « عجباً ! لِمَ لم تدعه ليتناول طعام الغداء معي ؟ لشد ما صدمتني . أتوسل اليك أن ترسل في طلبه حالاً » .

اجاب امبراطور الصين « انه رحل في الصباح الباكر ، ولم اعرف وجهته » .

إلتفتت فورموزانتا للعنقاء وقالت : « هل رأيت في حياتك من آلهة هي أنعس مني ؟ ثم استطردت حديثها مع الامبراطور قائلة : « كيف سمح لنفسه ان يغادر بلاطكم العظيم فجأة ، هذا البلاط الذي اعتقد ان الانسان يجب ان يمضي فيه حياته » .

قال الامبراطور : « اسمعي حقيقة الأمر : أحبته إحدى فتيات العائلة الجيلات حبًّا جنونيًّا ورغبت في مقابلته ظهر اليوم ، إلاَّ أنه رحل في الفجر تاركاً لها هذه القصاصة التي كان تحتها فيضان جارف من الدمع » .

« أيتها الآنسة المغولية الحسناء ، إنك لتستحقين قلباً لم يتقدم من قبل على مذبح آخر . إني أقسمت للآلهة الخالدين ألاَّ أحب أحداً غير فورموزانتا ، أميرة بابل ، وأعلنها كيف يقهر الانسان رغبات قلبه بالتنقل والرحلات . ومن سوء الحظ أنها استسلمت لفرعون مصر

الخسيس ! إني لأتعس الرجال ! فقدت أبي ، والعنقاء ، وضاع أملي في حب فورموزانتا ، فتركت أمي في كرب وغم وضيق ، وهجرت منزلي ووطني ، ذلك بأني لم أحتمل البقاء ساعة واحدة في المكان الذي بلغ صمتي فيه أن فورموزانتا تحب سواي ثم أقسمت لأجوبن العالم ، وأكونن مخلصاً . فاذا أنا خنت يوعدي ، فقد تحتقرينني ، وقد تعاقبني الآلهة ، فاختاري يا سيدتي حبيباً آخر وكوني مخلصة مثلي » .

صاحت فورموزانتا الجميلة « يا للعجب ! اعطني هذا الكتاب العجيب . ان فيه بعض العزاء ، ثم إني لسعيدة برغم سوء حظي . أمن أجلي يتبرأ أمازان من قرب أميرة الصين ! ليس في العالم من هو أهد منه ثباتاً وعزماً . إنه زودني بأثمن مثل أعلى . والعنقاء تعلم أني لست في حاجة اليه . كم هو قاس أن يحرم انسان من حبيبه ، تلقاء معانقة منحت بعفاف حقيق . لكن خبرني الى أين ذهب ؟ تلطف واعلني . لسوف أرحل في الحال » .

أخبرها الامبراطور أن حبيبها أخذ طريقه إلى اسقوتيا ، على ما وصل اليه من التقارير . فجهزت الخراتيت في لحظة ، واستمرت فورموزانتا في رحلتها مع العنقاء ووصيفتها إرلا وحاديتها ، بعد أن حباها الامبراطور بكثير من العطف .

عندما وصلت اسقوتيا بان لها إلى أي حدٍّ تتباين الحكومات ويختلف الأفراد ، وأنهم سيظلون على اختلافهم وتباينهم ، حتى تعصر العقول الكريمة ، التي حملت مشاعل النور ، هيئاً بعد شيء ، تلك السحابة السوداء التي كست الأرض أجيالاً كثيرة والى أن تنبت في الأقاليم المعجبة نفوس عظيمة يكون لها من الاحتمال والقوة ما يكفي لقلب البهائم أناسي .

ليس في اسقوتيا مدناً ، ومن ثمت ليس فيها فنون رفيعة ، لا يرى حتاك من شيء غير الحقول الشاسعة الفسيحة حيث تعيش القبائل في الخيام والعوامس ، فكان لتلك المناظر من الوقع ما أفقم نفس الأميرة الشيرازية وروعها . فما سألت في أية خيمة أو صومعة ، يقطن الملك ، علمت أنه رحل منذ ثمانية أيام على رأس ثلاثمئة الف فارس ليهاجم هم الأميرة أدنيا الفاتنة التي فرت معه .

صاحت فورموزانتا « ماذا ! أفرَّ مع ابنة عمي ، ما كنت لأتصور مثل ذلك . ثم ماذا ! أأصبحت ابنة عمي ملكة ، وكانت تسعد السعادة كلها في توددها اليَّ ، ولم أتزوج بعد ؟ » ثم توجهت لساعتها شطر صومعة الملك تدفعها رغبة خاصة .

أصغت مقابلتهما في مثل هذه الأقطار البعيدة ، والحوادث التي افضت بها كل منهما الأخرى على هذه الأحاديث نوعاً من الحدة ، حطتهما تنسيان أنهما كانتا على بغض ، وحل في نفسيهما محل العطف الحقيق ضرب من الوهم الهادىء فتحاضنتا والعبرات في مآقيهما .

ثم بدت منهما ظواهر دلت على الخلاص وتعاطف، فما يكون لهما من مناسبة بين جدران القصور.

تذكرت أنديا العنقاء والوصيفة إرلا، وأهدت فورموزانتا من جلودها الزبابيز، الثمينة. فأهدتها فورموزانتا تلقاء ذلك بعض الجواهر. أمّا الحرب بين الملكين فكانت موضوع الحديث بين النساء. وقد رثيتا لمصير الجنود الذين أجبروا على خوض غمارها، وذهابهم ضحية للغيرات الأميرين، ذلك في حين أن شخصين كريمين قد يفتديان ما بينهما من دماء في أقل من ساعة، من غير أن تسقط رأس واحدة. ولكن مدار الحديث كان عن ذلك الأجنبي الذي قهر الأسود، وأهدى أثمن الجواهر في الكون، وكتب القصائد الغرامية، ثم ارتد أنفس الرجال وأشهاهم، لأنه آمن وصدق بما نقل إليه طائر أسود.

قالت أنديا: «إنه أخي العزيز».

صاحت فورموزانتا: «إنه حبيبي، ولا أهلك في إنك رأيته! ألا يزال هنا؟ إنه لن يغادرك يا ابنة العم فجأة كما غادر ملك الصين، إذ إنه يعلم أنه أخوك».

«أرأيته إياك!» «نعم: أمضى أربعة أيام كاملة معي. عجباً يا ابنة العم! ما أشد لوعي على أخي لأن قولاً مريضاً قلب عقله رأساً على عقب. إنه يطوف العالم هائماً بغير غاية. تخيلي عقيم ذهنه فقد رفض مقابلة أجمل وأفتن امرأة في استوشيا، ثم رحل بعد أن ترك لها كتاباً أدخل في نفسها اليأس وتوجه لزيارة السيريين».

صاحت فورموزانتا مهللة: «أهكذا يا إلهي، رفض آخر في سبيلي! إن حظي لمن السعادة بحيث يكون دائماً فوق آمالي، كذلك سوء حظي فقد فاق كل أوهامي وخلوفي. أعطني هذا الكتاب الساحر، فسوف أرحل في أثره وكلي ثقة به. وداعاً يا إبنة العم. أمازان بين السحرين وساحر وألحق به».

اعتقدت أنديا أن إبنة عمها لا تزال في اضطراب أشد من اضطراب أخيها. ولما كانت قد وعت بنفسها نتائج ذلك الوباء المعدي، وأنها بذاتها قد تركت مباهج بابل وعظمتها من أجل ملك استوشيا، وأن القضاء دائماً يتمخض عن هذه الخاتمات التي هي من أثر الحب، أحست بكرب فورموزانتا وغمها، فتمنت لها رحلة سعيدة، ووعدتها بأن تدافع عنها لدى أخيها إذا أسعدها الحظ برؤيته مرة ثانية.

# الفصل السادس

## فورموزانا تتابع رحلتها

غادرت أميرة بابل والعنقاء إسقوتيا ، وسرعان ما وصلا امبراطورية السمريين ، وتدعى الآن روسيا . وهي في الواقع دولة يقل عدد سكانها عن إسقوتيا ، إلاّ أن رقعتها تفوق هذه اتساعاً وامتداداً .

دخلت الأميرة مدينة عظيمة بعد سفر أيام قلائل ، تلك المدينة التي عمل دائماً على ترقيتها وتفضيلها فيما بعد ذلك أمرتها المالكة . ووقع في ذلك الحين أن كانت الامبراطورة تتجوّل في ممتلكاتها عند الحدود الأوربية الآسيوية ، تتفقد أحوال رعيتها بنفسها ، وتعالج منازعاتهم ومشاحناتهم بتسويتها بحكمتها وعدل أحكامها .

حينما علم حاكم المدينة الأعلى بقدوم السيدة البابلية والعنقاء ، لم يتوان لحظة واحدة في أن يقوم لهما بكل ما كان في مراسم دولته من وسائل التشريف والتكريم ، مثلما كان أنّ الامبراطورة ، وهي أكثر أباطرة العالم كرماً وأدباً ، ستشرح وتبتهج عندما تعلم ، أنه استقبل بالعظمة والإكبار سيّدة شريفة مبجّلة ، ما كانت لتستقبل بأقل من ذلك لو أن الإمبراطورة نفسها كانت في المدينة .

أضيفت الأميرة في القصر وأقيمت لها واجبات الضيافة بكثير من الأبهة والبهاء ، وكان الحاكم السمري وهو فيلسوف طبيعي عظيم ، يتنهز الفرص التي تأوي فيها الأميرة للراحة ، ليحادث العنقاء ويملي نفسه بمرافقته . أخبره العنقاء أنه زار بلاد السمريين خلال إحدى رحلاته . ثم قال : كيف تحدث هذه التغييرات في مثل هذا الوقت القصير ؟ فلما كنت هنا منذ ثلاثمئة سنة ، لم ألحظ غير الطبيعة الجامدة بكل ما فيها ، أمّا الآن فأدرك أنّ هنا فنّا وصناعة ورفة وعظمة .

قال السمّري : « بدأ هذا الانقلاب الضخم رجل واحد ، والآن توجهه الى طريق الكمال امرأة واحدة ، هي سيدة تعظم في تشريعاتها إيزيس المصرية ، أو سيريس اليونانية . وكان معظم المخترعين للأسف وسوء الحظ من ضعيفي الإدراك خاملي العقول ، فكانوا يلجئون الى الاستبداد ، فيصبح فهمهم وإدراكهم للممالك التي يحكمونها متعذراً عسيراً .

فقد كان ينظر كل منهم الى جنسه على أنهم البشر المختارون على وجه الأرض ، وأن واجبهم أن يناصبوا الآخرين العداء . كونوا معاهد ، وأدخلوا عادات ، وأسسوا معتقدات استأثروا بها لأنفسهم . إن المصريين الذين بلغت شهرتهم ذلك القدر البالغ من العظمة بتلك الآكام المتراصة من الأحجار المدعوة الاهرام ، قد حقروا أنفسهم بخرافاتهم الدينية الهمجية ، فاحتقروا كل الأمم الأخرى على أنهم أنجاس ملوّثون . ورفضوا أي نوع من الاحتكاك بهم او معاشرتهم ، وليس من المصريين ، غير أولئك المتصلين بالبلاط والذين هم يعلمون بأخلاقهم عن حماقات الدهماء ، مَنْ يقبل ان يأكل في صحن استعمله اجنبي . وكذلك كان كهنتهم قساة صغناء وافعالهم مناقضة للعقل . إذ أنه من الأفضل والحالة هذه ألاّ توجد قوانين بالمرة ، وان نتبع تلك الإحساسات التي ثبتتها في قلوبنا الطبيعية من خير وشر ، على أن تخضع الرعية لمثل هذه النظامات الجائرة » .

« أما امبراطورتنا فاتخذت نظاماً يخالف ذلك النظام تماماً ، واعتبرت انه لزام على كل ممتلكاتها التي تتواجد مع جميع الأصقاع الواقعة بين المدارين ، وعلى أن يكون اتباع هذه القواعد مع جميع الذين يقطنون تلك الأصقاع ، لزام وفرض . وكان أول قانون ، بل القانون الجوهري من قوانينها ، هو التسمح الشامل مع جميع الأديان وانزال العقاب الصارم جزاء أي خطأ يرتكب . وأدركت بعبقريتها الفائقة أنه مهما اختلفت أساليب العبادة الدينية فالفضيلة واحدة في كل مكان . وبهذا المبدأ وحّدت بين همومها وبين جميع أمم الأرض ، ولن يمضي وقت طويل حتى يعتبر السمريين أن الاسكندناويين والصينيين اخوانهم في البشرية . ولم تكتف بهذا بل صممت أن تنشيء هذا التسمح العظيم الذي هو أهد رباط للصلات الاجتماعية ، مع من يجاورها من الأمم ، فأضفى عليها لهذا لقب « أم الشعب » ولو انها استمرت على هذا ، إذن لأضفى عليها لقب المنعمة على الجنس البشري » .

« كان الرجال قبل هذا الزمان إذا آلموا في أنفسهم قوة وجبروتاً ، هبطوا بفيالقهم وجيوشهم على الممالك الأخرى ، يخربونها وينهبون ما فيها ويشربون من دماء الأطفال الذين هم في الواقع منحدرون وراثة من آبائهم وأجدادهم . ومما يؤسف له شديد الأسف ان هؤلاء القتلة كانوا يلقبون أبطالاً ، كما تعتبر سرقاتهم من الأعمال العظيمة الباهرة . لكن انتحت امبراطورتنا الى العظمة وسيلة تخالف تلك الوسائل تماماً ، فأرسلت جيوشها ليكونوا رسل السلام ، لا لتحول بين الرجال وبين التخريب والهدم ، بل لتجبرهم على أن يحب كل منهم صاحبه وان يكون عوناً له . وكان شعارها دائماً نشر لواء الأمن والاطمئنان العام » .

فقل العنقاء بكل ما جمع من هذا الرجل النبيل ، فقال إنه بالرغم من أنه عاش في هذه

الدنيا سبعة وعشرين ألف سنة وستة أشهر ، لم ير لهذا مثيلاً . ثم استنبأ بعد ذلك عن صديقه أمازان واستفسر عن أخباره ، فروى عنه السحريين أخباراً تشابه تلك التي تحدثها الأميرة من الصينيين والاسقوتيين ، فقد كانت خطة أمازان الدائمة أن يفر من أي بلاط يزوره في اللحظة التي يبدو على أية سيدة أنها شاهدته ورغبت في أن تأتلف به . فأخبر العنقاء فورموزانتا في الحال بهذا المثال الحي من اخلاص أمازان ، وهو اخلاص زاد من دهشته ، إذ انه لم يتصور أن أميرته تمت به أصلاً .

توجه أمازان الى اسكندناوه ، حيث مر من مناظر لا زالت تثير في نفسه الدهشة والعجب . شاهد في تلك المملكة ، الحرية والملكية تعيشان جنباً الى جنب ، وتلك حال لا يخالها تشاكل ما عليه الممالك الأخرى ، فهناك يشارك فلاحو الأرض ، النبلاء وكبار الأعيان في التشريع . لكن مما زاد في دهشته أنه رأى في مكان آخر ما يفوق هذا غرابة وبُعداً عن كل مألوف : أمير تلحظ فيه الشباب الفذ والعدل والاستقامة ، وقد اكتسب سلطته الملكية بتقربه الى شعبه والتوفيق لذلك بكل طريق مستطاع .

ثم إنه شاهد خلال رحلته فيلسوفاً على عرش سرمانيا ، كان الأجدر به أن يسمى ملك الفوضى ، لأنه كان يرأس مئة ألف من سكان المملوك . كان صوت أحدهم يكفي بأن يلغي ما سعى عليه الجميع . إن الصعوبة التي لاقاها إيلوس في أن يلزم الرياح العاتية حدودها الطبيعية ، لم تكن لتقرن بالصعوبة التي يلاقيها هذا الملك في التوفيق بين نفوس رعيته المشوشة المتنافرة . وكان ايلوس هذا وبإن صفينة ماهر محاطة بأعاصير أبدية ، إلا إنها لم تغرق ، لأنه كان ربّاناً ماهراً .

إخترق أمازان تلك الممالك المتباينة المختلفة تمام الاختلاف عن بلاده ، إلا أنه أعرض عن كل ما أظهر النساء نحوه من الحب والتودد ، بالرغم من القلق الدائم الذي كان يساور نفسه من معانقة فورموزانتا لملك مصر ، مصمماً أن يضع لها مثالاً رائعاً للاخلاص الفريد .

أما الأميرة فكانت تتبعه دائماً عن قرب ، ونادراً ما تخلفت عن تأثره يوماً واحداً أو يومين ، ذلك من غير أن يكلف أحدهما أو يفقد الآخر دقيقة واحدة في اقتفاء أثر صاحبه .

جاب أمازان قارة المانيا الفسيحة ، حيث لحظ هناك وقد ملك عليه العجب كل شعوره وإحساساته ، ذلك التقدم الذي أنتجه العقل والفلسفة في الغرب ، حتى أن أمراءها كانوا فطنين أذكياء حتى لقد أصبحوا قادة الفكر والحرية . ولم يعتمدوا في تعليمهم على أناس يرغبون في أن يخدعوهم ، أو هم بأنفسهم مخدوعين ، وبهذه الوسيلة شيروا على معرفة الآداب البشرية واحتقار الخرافات .

فقد أبعدوا عن دولهم تلك العادة التي لا معنى لها ، والتي أنهكت وأفقرت البلاد الجنوبية ، والتي كان من مقتضاها أن يدفن في سجون كبيرة مظلمة ، عدد من الأناس لانهاية له من كلا الجنسين ، وقد فصلوا عن بعضهم البعض فصلاً أبديًا ، وأقسموا على أن لا يتواصلوا بصورة ما . وساعد هذا الجنون على تخريب الأرض وتحويلها بلقعاً يباباً بطريقة تقصر عنها أشدّ الحروب وأعتاها .

وعلى العكس من تلك النظامات الطبيعية ، المنافية لقوانين الطبيعة ونفع المجتمع أصبح امراء الغرب هم المحسنون على ابناء جلدتهم فأبطلوا شروراً مضرة ، هدّامة منبوذة ، وعلى الجملة أقدم الرجال في تلك الأصقاع النسيجة على تحكيم عقولهم ، بينما لا تزال العقيدة الراسخة بين الناس في كل مكان آخر ، انهم لن يحكموا إلاّ بالقياس على جهلهم .

# الفصل السابع

## زيارة أمازان للبلد الأبيض

وصل أمازان بالمانيا بعد جولته في ألمانيا ، ولقد خفف كثيراً من هواجسه الدائمة ما لحظه من شبه واهن بين أهلها ، ومواطنيه الكنجيين السمداء . لحظ هناك الأمن والحرية والمساواة مع التسمح الديني . أمّا نساؤها فمن اللواتي لا يبالين الحب ، فلم تبد له أيهنّ شيئاً من العواطف ، ذلك الشيء الذي لم يصادفه من قبل ، بيد أن الحقيقة ، أنه لو أظهر ميلاً للتعرف بهنّ لما تمنعن على الرغم أنه لم يكن ليشعر نحوهنّ بأدنى ميل . فإن أفكاره كانت بعيدة عن غزو قلوبهنّ ، وكادت تلحق به فورموزانتا في هذه الأمة البليدة الجامدة ، لو لم يرحل قبل وصولها بلحظات .

منح أمازان البتائيين يمدحون جزيرة ما تدعى البلد الأبيض ، فدفعه حب الاستطلاع أن يبحر وخراتيته على سفينة اليها ، فساقهم الى هنالك ريح شرقية لطيفة في ساعات قليلة ، وقد كانت هذه البلاد شهرة مدنية صور والاطلنطيس .

تبعته فورموزانتا الفاتنة الى ضفاف الغوجلا والقستولا والإلب والوزر كما لو كانت تقتفي الأثر ، ولم تتأخر عن لحاقه يوماً أو يومين ، حتى وصلت سريعاً الى مصب الرين حيث يلتقي فالله في المحيط الالماني .

وهناك علمت أن حبيبها قد أبحر توًّا الى البلد الأبيض ، فتذكرت أنها رأت السفينة التي أبحر بها فلم تتمالك نفسها وأرسلت صيحات الفرح التي أثارت كثيراً من دهشة النساء البتائيات ، غير متصورات أن يكون هناك صغير متمتعاً لمثل هذا الطرب العظيم كذلك شاهدن العناء ، لكن بقليل من الانتباه ، حتى قدرن ثمن ريشه بأنه لا يبلغ من القيمة مبلغ ريش بطهم وطيورهم المائية الأخرى .

واستأجرت أميرة بابل سفينتين تنقلانها وكل حاشيتها الى تلك الجزيرة السعيدة التي عرف تحوي بعد قليل ، موضع رغباتها الوحيد ، وجوهر حياتها وإلهه حبها .

هبت ريح عاتية من الغرب في اللحظة التي رمى فيها امازان المخاص على ساحل البلد الأبيض الذي يكتنفه البحر ، كما عانت سفن الأميرة البابلية في اللحظة التي تأهبت فيها للابحار ،

فاستولى عليها حزن عميق ، فتوجهت الى غرفتها وعزمت على البقاء هناك حتى تهدأ الرياح ، إلا انها استمرت على عنفها ثمانية أيام متوالية . وقد استخدمت الأميرة خلالها وصيفتها إرلا في قراءة قصص خرافية لتسليتها ، وهذه القصص لم يكتبها البنافيون في الواقع، لكنهم لما انهم ذوي صلة تجارية بالعالم ، فقد تاجروا كذلك في العقل كما يتاجرون في سلع البلاد الأخرى، واشترت الأميرة من بائع الكتب « مارك ميشيل راي » كل الروايات التي كتبها الاوزونيون والولشيون والتي نصت الحكمة بأن يحظر بيعها لتلك الأمم حرصاً على إغناء حيرانهم البنافيين وتوقعت الأميرة ان تجد في هذه الروايات شيئاً من الشبه بمغامراتها ، فيخفف ذلك بعض همومها وأهجانها . فكانت وصيفة الشرف تقرأ والعنقاء ينتقد ويبدي ملاحظاته ، ولما لم تجد الأميرة أقل شبه بين ما جاء في رواية « فتاة الريف السعيدة » او رواية « سوزا » او رواية « تالسية » وبين مغامراتها ، كانت تستوقف القارىء في كل لحظة مستفسرة عن حال الريح .

# الفصل الثامن

## أمازان يغادر البلد الأبيض

ركب أمازان عربته يجرها خراتيته الست ميمماً شطر عاصمة البلد الأبيض وقد انصبت كل افكاره خلال ذلك الى عروسته الأميرة ، بيد انه لحظ على مسافة قريبة عربة قد إنطمرت في حفرة صغيرة ، وراح الخدم يطلبون النجدة من كل مكان بينما جلس صاحب العربة في مقعده يدخن غليونه بهدوء عظيم من غير ان يظهر عليه اي ملل او ضجر ، وكان اسمه لورد « وَتْ ـ ذِنْ » في اللغة التي ترجمت منها هذه المذكرات وترجمته « ثم ماذا » .

فزع أمازان لمساعدته ، فأعاد العربة بمفرده الى وضعها الصحيح ، ذلك بأن قوته مذهلة بقوة بقية الرجال ، كانت خارقة فذة . لم يلق لورد « وَتْ ـ ذِنْ » اليه بالاً ، غير انه قال « رجل قوي الاصلاب وحق الرب » وعندئذ حضر بعض الجيران فلما لم يجدوا داعٍ لحضورهم طغى عليهم انفعال شديد فأخذوا يسبون الاجنبي ودعوه بالكلب الغريب ، وتحدوه المبارزة والملاكمة .

أمسك أمازان في كل يد بأربعة منهم ودفعهم عنه عشرون خطوة ، فلما رأى الآخرون ذلك ، رفعوا قبعاتهم واحنوا أمامه باحترام عظيم ، وطلبوا منه أن يقبل تكريمهم له بنخب يشربه معهم . فكلفهم ذلك الاحتفاء مبلغاً من المال لم يدر بخلدهم مثله . وحينذاك نظر اليه لورد « وت ـ ذن » بعين الاعتبار والاجلال ودعاه لتناول الغداء معه في منزله الريفي الذي يبعد نحواً من ثلاثة أميال ، فلما قبلت دعوته ، ركب مع أمازان عربته تاركاً العربة المحطمة

وبعد ربع ساعة نظر لورد « وَتْ ـ ذِنْ » الى أمازان وقال « كيف حالك ( وهي عبارة في الواقع لا تنقل للذهن أي معنى ) لديك ستة خراتيت بديعة » . ثم استمر يدخن غليونه.

أخبره الرحالة بأن خراتيته كانوا دائماً في خدمته ، وقد أحضرهم من بلاد الكنجيين ، وبذلك اختلق سبباً ليطلعه على حقيقة أمره مع اميرة بابل ، وقبلها المشئومة الفرعون دمر فلم يحر الآخر أي جواب ، غير مبال إن كان هناك في العالم مثل هؤلاء ، كذلك مصر وأميرة بابل.

صمت اللورد ربع ساعة أخرى ثم سأل صاحبه مرة ثانية « كيف حالك » وهل عند الكنجيين أي نوع من الشواء الجيد ؟

رد أمازان بأدبه المعتاد قائلاً إنهم لا يأكلون إخوانهم على شطآن الكنج . ثم شرح له ذلك المذهب الذي سمي بعد ذلك بقرون كثيرة بالفلسفة الفيثاغورية ، وأما الورد فأخذه النوم في تلك الأثناء ولم يستيقظ إلاّ وهو في منزله .

وكان متزوجاً من فتاة صغيرة جميلة ، أضفت الطبيعة عليها نفساً فيها من الحيوية ودقة الاحساس ، بقدر ما كان في زوجها من الفسح والبغضاء . وقد حضر في ذلك اليوم لتناول الغداء معها بعض الأصدقاء الذين تلحظ فيهم اخلاقاً وطباعاً مشابهة ، ذلك بأن تلك البلاد ظلت في حكم الأجانب دائماً ، فأدخلت الأسر التي وفدت مع الأمراء الغزاة عاداتها وتقاليدها المختلفة ، فكان في هذه الجماعة فئة لهم مشارب مستحبة ، وأخرى فاتنة العبقرية ، وقلائل استعمقوا في الدرس .

ولم يكن لسيدة المنزل هيئاً من ذلك التكلف الثقيل والتواضع المصطنع الذي كان وصمة في جبين نساء البلاد ، فانها لم تكن تتحقق بنظرة احتقار او صمت متكلف ، ضعف خيالها وافتقارها ، او بتلك الحيرة الوضيعة عندما تفتقد المرأة هيئاً تتحدث فيه . فلم تكن هناك من إمرأة مثلها تستميل السمع بحديثها .

قابلت أمازان بكياسة وادب كانا وفق طبيعتها تماماً ، فمال هذا الأجنبي ، والموازنة الاختيارية التي لم تستطع الافلاع عنها بينه وبين زوجها القبيح ، لم تزد من سعادتها او قناعتها ورضاها شيئاً .

وعند الطعام ، أجلست السيدة أمازان الى جانبها واخذت تقدم اليه صنوفاً من «المبارة» فأخبرها بأن الكنجيين لا يتغذون مطلقاً بشيء تلقى من الآلهة هبة الحياة السماوية . وكانت حوادث حياته الأولى واحوال الكنجيين وتقدم الفنون والدين موضوع المحادثة العلمية المستطاب طوال وقت الطعام الذي استمر حتى المساء ، حيث كان لورد « وت — فذ » لا يفعل شيئاً اللهمّ إلاّ جذب الزجاجة اليه وطلب الشواء .

بعد الغداء ، والسيدة تصب لهم الشاي ، وما زالت تفسح عينيها بالنظر الى الأجنبي ، مزق حديثاً طويلاً مع أحد اعضاء البرلمان ، وكلٌّ يعلم انه حتى في ذاك الحين كان هناك برلمان يدعى « ويتناجيموت » او جمعية العقلاء ، واستفهم امازان عن المعاهد والقوانين والعادات والآداب وفوات الجند والفنون التي طفرت بالبلاد الى ذلك القدر البالغ من العظمة ، فردّ عليه عضو البرلمان قائلاً .

« إننا ظللنا عراة لوقت طويل برغم أن إقليمنا ليس حاراً . كذلك استعبدنا الناس

حضروا من بلاد « زحل » القديمة التي يرويها التيبر ، الا ان الأذى الذي ألحقه بعضنا ببعض ، فاق كثيراً كل ما قاسيناه من غزاتنا الاولين .

إن عصور التهتك والرذيلة عقبت عليها عصور من الهمجية والاضطراب . إن في بلادنا من الاضطراب والقلق ما يفوق اضطراب ذلك المحيط الذي يكتنفنا ، فقد ضرجتها وخضبتها بالدماء خلافاتنا الحزبية ، وسقط كثير من الرؤوس المتوجة بطريقة تاسية ، كما قضى اكثر من مئة أمير من اصحاب الدم الملكي حياتهم على المقصلة ، بينما كانت تنتزع قلوب اشياعهم من صدورهم وتلقى في وجوههم ، وعلى الجملة فإنه من اختصاص البلاد ان يكتب تاريخ جزيرتنا نظراً لان هذه الشخصية هي التي فصلت في كل قضايانا الهامة .

ومن اجل ان تكمل تلك الاهوال ، لم يمض غير قليل حتى ظهر رجال يلبسون سوداً سوداً . وآخرون يلبسون قمصاناً بيضاً فوق اردينهم ، فاستبدوا واستأثروا ، غير متسمين ، ونجحوا في إشراك الأمة في جنونهم ، ومن ثم انقسمت بلادنا حزبين : القتلة والمقتولين ، والسفاحين والمسفوحة دماؤهم ، والنهاب والعبيد . كل ذلك باسم الله وفي سبيل الوصول الى الله .

من ذا الذي كان يتصور ان تنبت من خلال تلك الهوة الفظيعة وعماء الانقسام والنزاع والقسوة ، والجهل والتعصب ، حكومة يحق ان يقال الآن إنها أبرع الحكومات في العالم وأكملها . ذلك ما حدث . فعلى هذه الامة الحربية التجارية الذكية المستنيرة ، يقوم امير ذو ثراء وشرف قادر كل القدرة على الخير ، عاجز كل العجز عن الشر ، ذلك بأن النبلاء من ناحية وممثلي الشعب من أخرى ، يشاركونه التشريع .

وقد رأينا انه بحكم قدر مقدر من الاحداث ، والحروب الاهلية والاستبداد والشقاء ، قد خربت البلاد عند ما جنح ملوكنا الى التفرد بالسلطة الاختيارية الاستبدادية ، بقدر ما ساد بيننا الأمن والثراء والسعادة الكلية عند ما اكتفى الأمير بسلطة محدودة . واختل النظام عند ما كنا نتشاحن ونتناقش في الأشياء والأسرار الخفية ، لكن تلك الفوضى قد انتهت عندما عاد الينا جزء من النهاب جعلنا نحتقر هذه الأشياء . والآن تنشر اساطيلنا الظافرة أعلامنا على جميع البحار ، وأمنت القراصنة أرواحنا وأموالنا ، فلا يمكن لقاضٍ ما ان يفسرها بطريقة استبدادية ، ولا يجوز له ان يتخذ قراراً بدون الأسباب الداعية له ، وقد نصب قاضياً كما لو انه كان قاتلاً ، اذا هو حكم على شخص بالاعدام من غير إعلان القرائن والملابسات التي تثبت إدانته والقانون الذي أصدر حكمه بمقتضاه .

كنا في الواقع على الدوام منقسمين حزبين ، يكتب كل منهما ضد الآخر ويدس له ،

إلاّ أنهما يتحدان إذا دعت الضرورة الى التسلح دفاعاً عن الوطن او الحرية ، وان يسمح أيهما بأي تعدٍّ على أمانة القوانين المقدسة . فهما في تكارههما أشبه بالمحبين الغيورين اللذين يعشقان نفس المرأة وفي نفس كل منهما الحسد والبغض نحو الآخر .

ومن منابع عبقريتنا السامية التي بها أوضحنا ودعمنا حقوق الانسان الطبيعية ، ذهبنا بالعلوم الى ذروة الكمال التي يمكن ان يبلغ اليها الانسان . فالمصريون الذين تظاهروا بتبريزهم في الميكانيكا ، والهنديون الذين يعتقدون بأنهم من عظام الفلاسفة ، والبابليون الذين يفتخرون بأنهم رصدوا النجوم على تمادي ثلاثين الفاً واربعمائة سنة ، والاغريقيون الذين كتبوا كثيراً وقالوا قليلاً ، كل اولئك لا يعرفون في الحقيقة شيئاً إذا قُرنوا بأضعف علمائنا الذين درسوا اكتشافات اساتذتنا . وقد اختبرنا من أسرار الطبيعة في خلال مئة سنة ، ما لم يستطع النوع البشري الحصول على مثله في مئة عصر .

هذا بلاغ كامل عن حالتنا الحاضرة ، فلم أخف عنك لا المحسن ولا القبيح ، لا معراتنا ولا أمجادنا ، ولم أبالغ في شيء .

غير أمازان من هذا الحديث رغبة ملحة في ان يتفقه في تلك العلوم السامية التي تكلم عنها صديقه . ولولا هيامه بأميرة بابل ، وواجبه نحو أمه التي هجرها ، وحبه لوطنه ، تلك الاشياء التي تملكت كل قلبه الكريم ، لأصبح سروره عظيماً لو انه مكث بقية حياته في البلد الأبيض . ولكن قبله ملك مصر المشئومة لأميرته لم تكن لتزايل في عقله فراغاً يؤهل به لدرس العلوم الصريحة المبهمة : قال « أعترف بأني قطعت على نفسي عهداً وثيقاً بأن أجوب العالم ، وأهرب من نفسي » .

تكلم أمازان بأسلوب لطيف ، وكان صوته ساحراً فتاناً ، كما كان كل سلوكه نبيلاً يستميل الانتباه ، حتى ان سيدة المنزل لم تتمكن من مقاومة رغبتها في أن تسعد منه بحديث خاص بدورها . فأرسلت إليه رسالة غرام صغيرة تعبر بأجمل المعاني عن رغبتها تلك ، فكان لأمازان من الشجاعة ما مكّنه من مقاومة اغراء الجنس اللطيف مرة أخرى ، واتباعاً لعادته ، كتب للسيدة رداً كله الاحترام ، مبيناً عن تقديسه لاسمها ، والعهد الوثيق الذي أخذه على نفسه ليُعلّم اميرة بابل كيف تقهر عواطفها كما يقهر هو عواطفه . وبعد ذلك جهز حراقته ورحل الى باتافيا تاركاً الجماعة في انذهال وتعجب من أمره ، والسيدة في دهشة عميقة . ومن فرط اضطرابها سقط منها خطاب أمازان ، فقرأه لورد « وُتْ ذِنْ » في الصباح .

قال هازاً اكتافه : « ما أثقل وأسخف ما في هذا » ثم بادر بالخروج لصيد الثعلب مستصحباً جماعة من جيرانه السُّكارى .

كان أمازان قد ابحر ومعه رسماً جغرافيًّا أهداه اليه الرجل المثقف الذي تحدث اليه في منزل لورد «وت ـ ذن» وقد ملكته دهشة عظيمة لما رأى أكبر جزء من الأرض مرسوماً على قطعة صغيرة من الورق .

حملقت عيناه وجالت خيالاته في هذا الرسم الصغير ، فرأى الرين ، والدانوب والب إلتيرول وتعينها بأسمائها المختلفة ، وكل البلاد التي كان عليه أن يجتازها ، وبالأخص حدق في رسم بلاد الكنعانيين وبابل التي رأى فيها عزيزته الأميرة ، كما حدق في البصرة ، التي قبلت الأميرة فيها ملك مصر تلك القبلة الشنعاء ، فبكى وانحدر الدمع من عينيه لتلك الذكرى التعيسة ، وقد سلم بما قال رجال البلد الأبيض ، أولئك الذين أهدوه العالم مصغراً ، بعد ان حقق فعلاً أن سكان التامير كانوا أفضل الف مرة من أولاء الذين يقطنون ضفاف النيل او الفرات او الكنج .

# الفصل التاسع

## مغامرة تعيسة في بلاد الغال

ظل أمازان على اخلاصه المتين لأميرة بابل طوال رحلته ، وخلال كل المقاطعات التي جابها ، ولو أنه كان دائم الحقد على فرعون مصر . وصل هذا المثل الحي على ثبات العزم الى عاصمة بلاد الغال ، وكانت المدينة كغيرها تخضع دواليك للهمجية والحمق والجهل والبؤس ، وكان أول اسم أطلق عليها هو « فذر ووحل » ثم صرف عليها بعد ذلك اسم إيزيس لأن عبادة إيزيس كانت قد وصلت الى هناك . وتألف أول مجلس هيوخ لها من جماعة من الحجارة وقد مكثت أمداً طويلاً راقدة تحت العبودية خاضعة لقتلة أبطال الجبال السبعة . وبعد ذلك بعصور استوطن رقعتها الصغيرة أبطال من اللصوص هبطوا عليها من أقاصي ضفاف الرين . وأما الزمن الذي من شأنه أن يغير كل شيء ، فقد استحدث منها مدينة نصفها جميل بهي والآخر مضحك همجي بعض الشيء — وكذلك كان طابع قاطنيها — . وكان يقطن تلك المدينة ما يربو على مئة الف نسمة على الأقل ، انصرفوا جميعاً الى اللهو والتشاحن ، على أن هؤلاء المتعطلين هم الذين كانوا يحكمون أذواقهم في الفنون التي يبتدعها غيرهم كما أنهم كانوا يجهلون كل ما يحدث في البلاط على الرغم من أنهم لا يبعدون عنه أكثر من أربعة أميال كانت عندهم بمثابة ستة آلاف ميل على الأقل . فقد كان للحفلات السارة والتفاهات والمرح ، الاعتبار

الفرد في حياتهم، حتى لقد أصبحوا يحكمون كالأطفال الذين تسلطوا عليهم بالدُّمى حتى يمتنع بكاؤهم . ولو أنهم تأملوا في الفظائع التي خَرِبت بلادهم منذ قرنين مضيا أو ذكروا تلك العصور المرعبة التي قتل فيها نصف الأمة النصف الآخر استجابة لخانات الجدل والسفسطة ، قالوا في بساطة إن هذا لم يكن عملاً عكماً ؛ ومن ثمت اندفعوا تترًا مجددين ألعابهم وضحكهم مرددين الأنغام .

وبقدر ما كان المتعطلون متأدبين دمثين لطفاء ، لوحظت فروق كبيرة هائلة بينهم وبين أولئك الذين شغلتهم الأعمال .

كان من بين رجال الأعمال ، أركا دمغهم البعض ، عصبة من الجامدين ذوي المزاج السوداوي ، أخلاقهم مزيج من السخافة والتوم ، ويكفي مرآهم أن يشيع اليؤس والشقاء ، ولو أنهم أولوا شيئاً من السلطان ، إذن لقلبوا العالم رأساً على عقب . إلا أن أمة المتعطلين استطاعت بالفناء وبالرقص أن تجبرهم على الانزواء في كهوفهم المظلمة كما تسوق الطيور المغردة تلك الخفافيش الناعقة الى جحورها وخرائبها .

كان حفظة التقاليد الهمجية القديمة ، تلك التي صرخت منها الطبيعة فزعة مروعة ، فئة من أصحاب الأملاك ، لم يأتوا بشيء البتة إلا مأثوراتهم التي أكلها الدود . فانهم اذا ما استكشفوا عادة حمقاء أو مكروهة ، اتخذوا منها قانوناً مقدساً . ومن هذا العرف الخبيث الذي حدّ من جرأتهم على التفكير بأنفسهم ، عمدوا الى استجماع معرفتهم من حطام تلك الأيام التي لم يكن يفكر فيها من أحد ، فكان ذلك سبباً في أن تعيش بقايا من خلائق عصفت في عاصفة اللهو والسرور . ومن ثمت لم يكن هناك أي تناسب بين الجرائم والعقوبات . فكان ينزل بالمتهم ما يوازي الف ميتة ، لحمله على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها .

وكان الشاب يعاقب على الطيش وتجاوز المألوف ، بنفس القسوة التي يعاقب بها القاتل العادي أو قاتل الأب . فاحتج المتعطلون بشدة على هذه القيود ، غير أنهم في اليوم التالي لم يفكروا في ذلك مطلقاً ، بل أخذوا يفكرون باخلاص في ألهيات جديدة .

عهد هؤلاء الناس جيلاً بأكمله يتوارى ، بلغت فيه الفنون درجة من الكمال فاقت كثيراً أكبر الآمال المتوثبة الثائرة المزاج . وقد عاد الاجانب الى هناك كما كان الاسرياليل ، ليفتتنوا بالآثار الهندسية العظيمة وأعاجيب فلاحة البساتين ، والمجهود العظيم الذي بذل في النحت والرسم ، كما فتنتهم قطع موسيقية كانت تصل الى القلب من غير أن تخدش الآذان .

ولو أننا تحدثنا عن الشعر الحقيقي ، ذلك الشعر المؤتلف الطبيعي ، الذي يخاطب القلب تماماً كما يخاطب العقل ، أمكن أن نقول بأنه لم يكن معروفاً لدى هذه الأمة قبل هذا العصر

السعيد. وقد كشفت أنواع جديدة من البلاغة عن مقامات عظيمة هائلة وذخرت المسارح على الأخص بالتحف التي لم تدانها أمة أخرى ، وعلى الجملة انتشر الذوق السليم في كل مهنة حتى لقد ظهر بين الدروديين كتّاب عظام .

إنّ كثيراً من أشجار الغار التي فرّعت وامتدت الى السماء ، سرطان ماذوت في أرض مُجهدة. فلم يبق منها غير عدد قليل ، حال لون أوراقها وتولى خضرتها الاصفرار . على أن هذا الفساد أو الانحلال الذي اتاها ، لم يكن له من سبب اللهمّ إلاّ سهولة امتنباتها ، والجهل الذي حال دون إنتاج الطيبات وامتلاء المبرّزين واكتظاظهم بما أقدم ، والجنوح الى مالا يغني من جوع . كما أنّ الخيلاء والغرور قد حميا من الفنون ما أعاد عصور الهمجيّة . وكانت هذه الخيلاء ، التي اضطهدت الرجال ذوي العبقرية والمزايا الحقيقية ، سبباً في أن يخرجوا من أوطانهم مشردين . إنّ الشفافير المؤذية ، قد طردت النحل المنتج .

فلما بقي من الفنون الطيبة أثر ، وقلما عاش شيء من العبقرية الصحيحة . أمّا . النزعات العقلية فحصرت في التفكير فيما هو صواب أم خطأ مقيساً ذلك كله على تصورات عصر بائد . وفسد الأمر ، حتى تطاول الطلاء الذي يطلي لوحة الاعلان فني ينقد أعمال كبار المصورين ، والمأفون الذي يقف ليتشف المداد السائل أمام رئيس يوقع في أوراقه ، نتاج أعاظم الكتّاب .

إنّ الجهل وفساد الذوق لهما أيضاً طلاؤهما . فالشيء الواحد يتكرّر في مئة مجلّد تحت عناوين مختلفة . وأصبح كل عمل أدبي إمّا قاموساً وإمّا نشرة .

ولقد اعتادت صحيفة « درودية » أن تنشر مرتين في كل أسبوع وقائع أمة غير معروفة منتها الشياطين ، وتتكلم في معجزات سماوية وقعت في أكواخ يسكنها نحاذون من الرجال والنساء . وظهر من منبوذي الدّرودين من احتمل بالسواد ، وفيهم استعداد لأن يمرّنوا غيطاً أو جوعاً ، ومصوا يعبرون عن آلامهم في مئات من المكتوبات المختلفة ، غاكين من أنهم لم يصبحوا بعد قادرين على مخادعة النوع البشري ، لأن هذا الامتياز قد أضفي على بعض من الماعز جللت بأثواب رمادية . كما ان بعض كبرائهم قد استخدموا في تحبير قذوف امتازت بالنيل من الأعراض

كان أعازان على تمام الجهل بهذا ، ولو أنه أخبر به ، لما نظر إليه إلاّ بقليل من الانتباه ، حيث لم يشغل كل أفكاره غير أميرة بابل ، وملك مصر وذلك العبد الوثيق الذي لا يمكن أن تنتهك له حرمة . وهو أن يحتقر كل ما يتقرّب إليه به النساء من أنواع التدلل والاغواء ، في أي مملكة يسوقه إليها اليأس .

كان الرعاع الجهلاء ، وقد فاق فضولهم كل حدود الطبيعة والعقل ، يحتشدون لوقت طويل

حول خرائبه. « أمّا النساء اللبيبات فكنّ يدنين أبواب مخدعه عنوةً ليتأملن هيكله ».

أبدى أمازان بعض الرغبة في أن يزور البلاط ، لكن أخبره بعض المتطلين الذين كانوا يذهبون الى هنالك من وقت لآخر، بأن هذه العادة أصبحت خارجة تماماً على آداب السلوك ، وأنّ الأحوال قد تغيرت تغيراً كبيراً ، وأنّ جميع الملاهي انحصرت في المدينة . ثم دعوه لتناول العشاء مع سيدة طبّقت فطنتها ومواهبها آفاق الأقاليم الأجنبية، وقد زارت هذه السيدة كل البلاد التي جابها أمازان . وأمّا هذه السيدة فسرّت أمازان سروراً عظيماً كما اغتبط بالحفاوة التي لاقاها في منزلها حيث شهد حربة مكفولة بالوقار وسروراً بلا جلبة ، وسكوناً بلا غضاضة، وفراهة بلا زهو . وفي اليوم التالي تناول غداءه مع جماعة أقل بهجة، غير أنها كانت أكثر تعطفاً للهو ، وكلما زاد رضاه عن مضيفيه زوّدهم رضاه به . فوجد أن نفسه قد انحلت كالنباتات العطرية ، التي تذوب هيئاً فشيئاً عند درجة حرارة معتدلة ، فتنبعث منها الروائح الزكية .

وذهب معهم أمازان بعد الغداء الى احدى أماكن اللهو العامة ، وكان فتّاناً ساحراً يخلب الألباب، إلاّ أنه كان متهماً رغم ذلك من الدرويين . ذلك بأنه كان يحجب عنهم معظم مستمعيهم ، وكان ذلك مثاراً لحقدهم وبغضهم . وأما العرض فكان مزيجاً من أشعار مستحبة الى أغانجدّابة مشجية، الى رقصات باهرة تعبر عن خلجات النفس وتكشف عن مفاتنها وإلى غير ذلك مما يخلب العينين خداعاً . ولم يكن هذا النوع من اللهو الذي كان يحوي كثيراً من المناظر والأشكال معروفاً إلاّ باسم أجنبي فكان يدعى بالأوبرا ، وهو إسم دلّ أوّلاً في لغة العمل على معاني العناية والاكتساب والانتاج والجهد والبذل . سحر هذا العرض أمازان وفتنه كما اجتذبته فتاة مغنية بصوتها وما كان يبدو عليها من دلال . فقدم له رفاقه تلك الفتاة العبقرية ، فأهداها ملء قبضته من نفيس الجوهر ، فكان من عدّة افتتانها وعظيم شكرها أن أبت أن تفارقه بقية يومها ، فتناول معها ومع رفاقها طعام العشاء وكان مستطاباً مستحبّاً ، فسلبته الخمر يقظته فنام . . . . فما أوهن الطبع البشري !

وصلت أميرة بابل في تلك الأثناء ، ومعها إيرلا والعنقاء والمشي فارس كنحي مشتاقين خرائبهم ، ومكثوا وقتاً غير قصير خارج أبواب المدينة قبل ان تفتح لهم ، وما إن وطأت أقدامهم أرض المدينة حتى سألت الأميرة ، هلاّ يزال أذكى وأجمل وأشجع وأوفى الرجال بالمدينة ؟ فانتهى الحرّاس على الفور إلى أنها انما تعني أمازان، فأرشدوها الى فندقه .

كم كان خفقان قلبها عظيماً ! ذلك الخفقان الذي هو دليل الحب . وخمر نفسها فرح يجل عنه الوصف ، لأنها سوف ترى مرّة أخرى في حبيبها مثال الشباب على القوم ، ولن

يمنعها مانع من أن تدخل عليه حجرته ، فرأت الستائر مرفوعة وشاهدت أمازان القاتن نائماً وقد أنهكته الخمر .

تلقاء ذلك عبرت فورموزانتا عن حزنها وخيبتها بصراخ عظيم دوت به أرجاء الفندق وأغمي عليها بين يدي إيرلا . وعلما استعادت يقظتها خرجت من تلك الغرفة المحقوتة يتصرها حزن عميق جعله الغضب .

صرخت الأميرة القانتة وقد غمرها سيل من الدمع : إيه أيتها السماء العادلة ! عجباً يا أورمزد الجبار ! لمن وعن جانبي تلك الخيانة ؟ أهكذا تمكن من أن يعبد أميرات كثيرات ثم يهجرني لرفقة بعض اللاهين من أهل الغال ! لن أصبر على هذه الاهانة .

ثم قالت : لن أراه بعد اليوم ما دام ينبض لي عرق ، ولترحل هذه اللحظة ولتجهز الحراتيت .

ناهدها العنقاء أن تبقى على الأقل حتى يستيقظ أمازان عسى أن يكلمه .

قالت الأميرة : أنه لا يستحق ذلك ، إنك لتثير غضبي وتتحداني بقسوة ، فربما فلن أني التي أرغب في نومه واني أسعى الى التفاهم معه ، فإن كنت حقيقة تمكن لي حبًّا ، فلا تضف هذا الضيم إلى ما لحقني من إهانة .

ما كان العنقاء أن يعصاها ، وهو يدين لها قبل كل شيء بحياته ، وحينئذ رحلت الأميرة بحافيتها قالت إيرلا : الى أين أنت ذاهبة ؟

أجابت الأميرة : لا أدري ، فسنتبع أول طريق يصادفنا ما دمت سأفر من أمازان الى الأبد . ثم إني راضية .

أما العنقاء وكان أحكم من فورموزانتا لأنه كان متجرداً من أية شهوة ، فأخذ يطيب نفسها وهم في الطريق وذلك بأسلوب محبب جذاب قائلاً إنه من القسوة أن يعاقب إنسان بسبب خطأ ارتكبه غيره ، وأن أمازان ولا شك قدم لها دلائل تكفي لاثبات اخلاصه ووفائه ، ولهذا فمن الواجب عليها أن تغفر له لحظة واحدة لنبي نفسه فيها وهو مع جمعية عاقة . كما أنه أدخل في روعها أن هذا هو الوقت الوحيد الذي تحتاج فيه الى عناية أورمزد ، وأن تتزود منه بالحب الدائم والفضيلة للمستقبل ليس إلاّ . وان الرغبة في التكفير عن خطئه بهذه الوسيلة سوف تجعله يتسامح بنفسه ، وان هذا هو الطريق الوحيد الذي تزيد به من سعادتها ، وأن كثيراً من عظام الأميرات قد غضضن الطرف عن مثل هذه الأغلاط ، وأنه بعد كل هذا لا يوجد من سبب لذلك الحزن . وكان العنقاء ذا قدرة فائقة في فن الاغراء ، حتى أنه جعلها أميل الى الهدوء والاستسلام ، فبدأت تشعر بحزن عميق على تسرعها في الرحيل وخيل اليها

أن خراتيتها تجد في السير وتسرع ، لكنها لم تجرأ على العودة . وكان ما شجر من التضارب بين رغبتها في الصفح ورغبتها في اظهار غضبها ، وبين حبيبها وارضاء كبريائها عظيماً ، ومع ذلك تابعت خراتيتها السير واخترقت العالم وفقاً لنزوة والدها .

أخبر أمازان عند ما استيقظ بوصول الأميرة ، ثم رحلتها ثانية هي والعنقاء ، كما أخبر بالغضب والاضطراب الذي بدا عليها ، وبالقسم بأنها لن تصفح عنه أبد الدهر .

قال أمازان : « اذن ، ليس من سبيل إلاّ أن أتبعها ، وأقتل نفسي عند قدميها » .

احتج رفاقه المرحين اللاهين على هذا القرار الخطير ، وقالوا بأنه يستحسن أن يبقى معهم فليس من شيء يضارع حياتهم السعيدة التي يقضونها بين رحاب الفنون والمسرات الدمثة اللطيفة ، معقبين على ذلك بأن كثيراً من الأجانب ، وحتى من الملوك ، من يفضلون هذه الراحة الفاتنة المستحبة للنفس على بلادهم وعروشهم . ثم ان عربته علاوة على ذلك بها عطب ويجري العمل بأخرى على أحدث طراز ، وان أفضل حائك في المدينة قد جهز له اثني عشر كسوة تطابق آخر ما ابتدع من أساليب التهندم ، وأن أكثر النساء دلالاً وجمالاً وأعظمهن اعتباراً في الهيئة الاجتماعية واللائي تهدهد منازلهن أفتن المناظر التمثيلية ، قد عينت كل منهن يوماً تقيم له فيه حفلاً يجمع بين المتعة والمسرة واللهو . وأما فتاة الأوبرا فكانت في تلك الأثناء تشرب « الشكولاتة » ضاحكة منشدة مرنية نحو أمازان الجميل بعجب وافتتان ، حتى لقد خيل اليه بأنها ليست بأحلم من إوزة حمقاء .

إن الاخلاص والولاء والحمية وأيضاً العظمة والشجاعة ، كانت أخص عناصر أخلاق هذا الأمير العظيم ، وقد روى لاصدقائه بجمل صباحاته وتماسائه التي ألمت به ، وأعلمهم بأنه من أبناء عمومة تلك الأميرة وأفضى اليهم بسر القبلة التي جادت بها على ملك مصر ، فقالوا بأنها خوصلات صغيرة غالباً ما يتغاضى عنها بين الأقارب ، والاّ مرت حياة الانسان في صعوبة مستمرة .

غير أنه لا يمكن لشيء أن يزعزع ما صمم عليه من ملاحقة فورموزانتا . لكن لما كانت عربته على غير استعداد ، فانه أجبر على البقاء هنالك ثلاثة أيام بين المتعطلين الذين ظلوا عاكفين على ملذاتهم . وأخيراً استأذن منهم ، مودعاً معانقاً ، مهدياً اليهم بعضاً من جواهره عظيمة القيمة ، موصياً اياهم بالسعي دائماً وراء تفاهاتهم المستمرة ومرورهم الدائم ، اذا كان ذلك يزيد من سعادتهم وحبورهم . ثم قال « إن الألمان هم رؤوس أوربا المفكرة ، وان رجال البلاد البيض لجديرون ليكونوا رجالاً بمعنى تلك الكلمة ، وأما من في بلاد الغال فأطفال ، وأنا أحب أن ألهو مع الأطفال » .

# الفصل العاشر

## أمازان وفورموزانتا يتفاهمان

لم يجد المرشدون أدنى صعوبة في اتباع الطريق الذي سلكته الأميرة ، فلم يكن مثار حديث الناس غيرها وغير طائرها الكبير ، ذلك بأن الأهلين قد غمرهم العجاب شامل بها . كذلك ما زالت هواطل الأنوار والدردوج والجارون والخير وند تدوي بضجيج عظيم من الاستحسان .

لما بلغ أمازان سفح جبال البرنيس أجبره دروديتو المملكة وحكامها أن يرقص بالدف ، رضي أم أبى . وعند ما اجتاز جبال البرنيس لم يجد حيثاً غير المرح والتهو والسرور ، فلو سمع هنا أو هناك فلاح يغني فالنغم مقبض كئيب ، وكان المواطنون يتخايلون في مشيتهم ويتهادون بوقار كبير ويتعلون بعض الخرز وفي مناطقهم خناجر . وكان الناس يلبسون السواد ويبدو عليهم الحزن . واذا سأل خادم من خدام أمازان أحد العابرين سؤالاً لما أجيب إلاَّ بالاشارات ، واذا دخلوا فندقاً أخبرهم صاحبه بكل اختصار بأنه لا يوجد بالمنزل شيء ، ولكن طلبتهم يمكن أن يعثروا عليها على بعد أميال قليلة .

واذا سئل هؤلاء المتصدون بالصمت : هل شاهدوا أميرة بابل الفريدة الفاتنة وهي قد مرت بهم ، أجابوا باختصار أقل من المعتاد قائلين :

« نعم ، رأيناها ، إلاَّ أنها ليست على هذا القدر من الجمال ، فليس من جبلات إلاَّ وهُنَّ صفر ملوَّحات ، وهي تكشف عن صفر كأنه رغام ناصع البياض ، وهذا أبعث الأشياء على الاشمئاز ، وقلما يعرف في إقليمنا » .

تقدم أمازان نحو المقاطعة التي يرويها نهر بتيس ، وهذه المملكة هي التي اكتشفها الصوريون منذ اثني عشرة الف سنة تقريباً ، وذلك في الزمن الذي اكتشفوا فيه جزيرة أطلنطا الكبيرة التي غمرتها المياه بعد ذلك بقرون عديدة . زرع الصوريون بتيكا التي لم يفلحها أهلها مطلقاً ، وذلك لفكرة التي كانت تخامرهم بأنها ليست مكانهم وموطنهم ليتدخلوا في أمورها ، وأنهم لو زرعوها لهبط عليهم جيرانهم الغالبون ، فيحصدون ما زرعوا . وقد أحضر

السوريون معهم بعض الفلسطينيين أو اليهود الذين جابوا منذ ذاك الحين كل إقليم يمكن أن يكسب فيه المال ، فتملك الفلسطينيون برباهم التاجر الذي بلغ خمسين في المئة جل ثروات البلاد ، مما جعل سكان بتيكا يأخذونهم على أنهم من السحرة ، كما أن أولئك الذين كانوا يتهمون بالسحر حينذاك ، حُرقوا بغير شفقة ولا رحمة .

ألقت أميرة بابل رحالها في مدينة كانت تدعى في ذاك الحين اشبيليه ، وعزمت أن تبحر في نهر بتيس لتعود الى بابل عن طريق صور ، فترى مرة ثانية والدها الملك بيلوس وتنسى إن أمكن حبيبها الخداع الغدار أو تطلب منه على الأقل الزواج . أرسلت الى فلسطينيين كانا يديران كل أشغال البلاط هناك ليزوداها بسفن ثلاث ، فأنجز الصناع معهم الاتفاقات الضرورية واتفق على الأجر بعد قليل من النقاش .

كانت صاحبة الفندق متعبدة كبيرة ، أمّا زوجها الذي لم يكن أقل منها تديناً فكان مفتقداً من أعضاء محاكم التفتيش . ولذلك فإنه لم يخش في أن يخبرهم أن بفندقه ساحرة وفلسطينيين تعاهدوا مع الشيطان متنكراً في شكل طائر كبير له منقار ذهبي .

لما علم المفتشون بأن السيدة تملك كمية كبيرة من الجواهر أيقنوا بلا جدل أنها من الساحرات ، فانتظروا حتى يخيم الظلام ليسجنوا المئتي فارس والخراتيت ، حيث أنهم جاءوا في مظاهر فسيحة . ذلك بأن المفتشين كانوا أدنياء جبناء .

وأسروا أميرة بابل وإرلا بعد أن أقاموا صدوداً ومتاريس عظيمة خلف الأبواب ، غير أنهم لم يتمكنوا من القبض على العنقاء الذي طار بسرعة فائقة وهو لا يدلك في أنه سوف يقابل أمازان على الطريق بين بلاد الغال واشبيليه ، فالتقى به عند حدود بتيكا وأخبره بالكارثة التي ألمت بالأميرة .

حسر الغضب أمازان عن الكلام ، وصلع نفسه بدرع من الفولاذ مرصع بالذهب ، ورمح طوله اثنى عشر قدماً ، وبمرافقين ، وسيف يدعى «الراعد» من شأنه أن يزق كل مزق بضربة واحدة كل ما يصادفه من الأشجار أو الحجارة أو الدروديين . ثم غطى رأسه الجميل بخوذة من الذهب يظللها ريش النعام والبلشون . وهذه هي البزة الحربية القديمة لآل مأجوج أعطتها له أخته ألديا عند سياحته في بلاد أسقوثيا . وامتطى جواده الفليلون ظهور خراتيتهم

فلما أمازان بهذه العبارات الحزينة وهو يحتضن عنقاءه العزيز : «أراني مُداناً . فلو أني لم أتناول غذائي مع تلك الفتاة العبقرية في الأوبرا ، في مدينة المتعطلين ، لما وقعت أميرة بابل في هذا المأزق المرعب . فهيا بنا إذن نطير الى المفتشين» . فهبط مدينة اشبيليه ، وكان يحرس أبواب المدينة التي سجن فيها المئتي فارس والمئتي خرتيت خمس عشرة مئة من الحراس

الاسبان ، ولم يسمعوا لهم بأي شيء من الطعام . وفي ذلك الوقت كانت جميع الاستعدادات قد أنجزت لقتل الأميرة ووصيفتها إرلا والسير فين الفلسطينيين .

وكان كبير المفتشين قد جلس فعلاً على المنصة في محكمته المقدسة يحيط به ملازموه من صغار المفتشين . وقد تجمع عدد غفير من الاشبيليين مكتوفي الأيدي صامتين ، عند ما قدمت الأميرة وإرلا والفلسطينيين وأيديهم موثوقة الى ظهورهم لابسين ثياب الاعدام .

دخل العنقاء السجن من كوّة ، وبدأ الكنعانيون يكسرون الأبواب من الداخل ، بينما حاصرها أمازان الذي لا يقهر من الخارج ، وهجموا جميعاً الى الأمام مسلحين وهم ممتطين خرافيتهم وعلى رأسهم أمازان ، فلم يجدوا صعوبة ما في قهر الحراس أو المفتشين ، فلقد كان كل خرافيت يخرق بقرنه إثني عشر دفعة واحدة ، وأمازان المرعد يحرق كل من يصادفه تحريقاً .

وأخذ أمازان يطوق المفتش الأكبر من فوق منصته وقذف به على الحرفة التي كانت قد أعدت على بعد أربعين خطوة تقريباً ، كما ألقى عليها جميع الأعضاء الآخرين الواحد أثر الآخر . ثم ألقى بنفسه عند قدمي فورموزانتا : فقالت : « يا للعجب ، كم أنت فاتن محبوب ، وكم كنت أعبدك وأهيم بك وأتعشقك ، لو لم تخني بصحبة معنية الأوبرا » .

وبينما كان أمازان يسوي ما بينه وبين الأميرة من سوء التفاهم ، وبينما كان رفاقه الكنعانيين يلقون بالمفتشين على الحرفة التي بلغ لهيبها السماء ، اذ به يبصر جيفاً يقوده ملك ممتطٍ من فوق رأسه تاج ، ميمماً نحوهم في عربة يجرها ثمانية بغال طهمت بالجمال ، وتبعه مئة عربة أخرى ، كما كان في صحبتهم رجال ارتسم في وجوههم العبوس وقد امتطوا جياداً كريمة ، ومن وراء هؤلاء جميعاً يمشي جمع من الناس في هدوء ، وقد عولجت شعورهم بالدهون .

جمع أمازان رجاله الكنعانيين من حوله في المال وتقدم نحو الملك شاهراً حربته ، فلما أدرك الملك أمازان ، ترجل عن عربته الحربية وخلع تاجه ثم عانق ركاب أمازان قائلاً : « يا من أرسلته الآلهة ، أنت المنتقم للنوع البشري ، أنت مخلص بلادي . كان هؤلاء الذين طهرت منهم الأرض أسيادي . فكنت مجبوراً على الخضوع الى قوتهم الاجرامية ، ولو انقض من حولي رجالي لو أني رغبت فقط أن أخفف من جرائمهم الفظيعة . إني لأتنفس منذ هذه اللحظة ، وأسود ، وإني لمدين لك بهذا » .

ثم قبل يد فورموزانتا باحترام كبير ، وتوسل إليها أن تركب عربته وصعدا أمازان وإرلا والعنقاء .

وتبعت فرق الخرافيت ملك بتيكا الى قصره ، أمّا السير فيان الفلسطينيان اللذان كانا

ما زالا مطروحين خوفاً وفزعاً ، فقد رفعا رأسيهما .

كان من مقتضيات الوقار الذي ينبغي أن يضفي على ملك يحكم شعباً ، من أخص صفاته الفقر والقلة ، أن تسير بغاله بخطىً وئيدة ، فاتسع بذلك مجال الوقت لأمازان وفورموزانتا أن يرويا له كل مخاطراتهما ، وكذلك تحدث الى العنقاء ذقتنه وكثيراً ما كان يعانقه . وأحيط الملك علماً وأدرك بسهولة كيف يجب أن يعتبر أناس الغرب همجيين وحشيين ، وهم يأكلون لحيوانات ولا يفهمون لغتها ، وأن الكنجيين وحدهم هم الذين حفظوا وصانوا طبيعة الانسان الأول إلا أنه وافق على الأخص على أن أكثر البشريين همجية هم المفتشون الذين طهر أمازان الأرض من شرورهم ، وكان دائماً يشكر أمازان ويباركه . والآن نسيت فورموزانتا الفاتنة ما حدث في بلاد الغال تمام النسيان ، ولم يعد يملأ روحها غير شجاعة وجرأة بطلها الذي بذل حياتها وحفظها . وحينئذ تذوقت أمازان طعم السعادة ونشوة الفرح وأسكره الحب العظيم ، لما وقف على حقيقة معانقة فورموزانتا البريئة لملك مصر ولما أخبر ببعث العنقاء .

ثم تناولوا غذاءهم في القصر ، الا أن الطعام كان عديم المذاق رديئاً لأن طباة بتبكا كانوا أوردا طباة أوربا ، فنصح أمازان الملك بأن يرسل في طلب بعض الطباة من بلاد الغال . وفي أثناء الطعام عزفت فرقة الموسيقى الملكية ذلك اللحن الشهير الذي سمي منذ ذلك الحين « مباذل أسمانيا » وبعد الغداء مضوا يتكلمون في المسائل العملية الهامة .

استفسر الملك من أمازان الجميل وفورموزانتا الفاتنة والعنقاء الرشيق عما ينتوون ؟ فأجاب أمازان بأنه سوف يعود الى بابل حيث أنه وارثها المنتظر ، ثم يطالب من عمه بيلوس يد ابنة عمه فورموزانتا الفريدة التي لا تبارى .

وقالت الأميرة : « إن ما عزمت عليه بكل تأكيد هو أن لا انفصل أبداً عن ابن عمي ، لكني أظنه يوافقني على أن أعود أولاً لأبي ، فانه لم يسمح لي الا بهجرة قصيرة وها أننا قد طفت العالم هائمة » .

وقال العنقاء : « أما أنا فسأتبع الى أي مكان ، هذان الحبيبان الكريمان العاطفيان »

قال ملك بتبكا : « انكم جميعاً على حق ، لكن عودتكم الى بابل ليست من السهولة بحيث تتصورون ، إن أخبار تلك المملكة تصلني كل يوم ، بواسطة السفن الصورية ، والمالبين الفلسطينيين الذين يتصلون بجميع أمم الأرض ، بأن جميع الناس يحملون سلاحهم ميممين شطر الفرات والنيل . وقد أعلن ملك إسقوليا حق وراثة زوجته على رأس ثلاثمائة الف فارس كما خرب ملكا مصر والهند شواطىء دجلة والفرات ومع كل منهم ثلاثمائة الف رجل أخذاً بثأرهما من الملك بيلوس جزاء الاستيلاء عرشها . وأما ملك الحبشة فغزا مصر

وتوبها بجيش عدته ثلاثمئة الف رجل ، وذلك في غيبة ملكها . وأما ملك بابل فليس لديه سوى ما يقدر بستمئة الف رجل للدفاع عن نفسه .

ثم استطرد الملك قائلاً إنه يعترف بأنه لما سمع بهذه الجيوش التي تدفقت من الشرق وعلم بعظمتها وفخامتها ثم قارنها بجنده العشرين الفاً أو الثلاثين الفاً الذين يدق عليه تغذيتهم ويصعب كساؤهم ، تصور أن نصف كرة الأرض الشرقي إنما وجد قبل نصفها الغربي وانه يخيل اليه أن الغربيين انما وثبوا فجأة بالامس من جوف الماء والهمجية .

قال أمازان : « ان المحدثين يا مولاي غالباً ما يتفوقون على اولئك الذين بدأوا الشوط أولاً ، ويُظن عندنا أن الانسان إنما خلق بادىء ذي بدء في الهند ، ولكني لست على يقين من ذلك » .

ثم وجه ملك بتيكا كلامه الى العنقاء سائلاً : « وماذا تظن في ذلك » .

قال العنقاء : « مولاي : إني لصغير السن جداً حتى الآن لأعرف شيئاً عن القدم ، فقد عشت فقط حوالي سبعة وعشرين ألف سنة ، غير أن والدي الذي لبث في الدنيا خمسة أضعاف هذا السن أخبرني بأنه علم من والده أن البلاد الشرقية كانت دائماً أكثر سكاناً وثروة من البلاد الاخرى ، كما علم أيضاً من أسلافه بأن توالد جميع الحيوانات إنما بدأ على ضفاف الكنج . أما أنا فما داخلني غرور جعلني أعتقد بهذه الفكرة ، ولا يمكن أن أصدق بأن أعالب البلاد البيض وثيران جبال الألب وذئاب الثلج قد تناسلت من حيوانات بلادي ، كما لا أعتقد أن أشجار التنوب والبلوط في بلادك قد تولدت من شجر السكاكو أو النخيل الذي بالهند .

قال الملك : « ولكن من أين انحدرنا إذن ؟ » :

قال العنقاء : « لا أعرف ، إنما كل ما أريده أن أعرف هو متى يصلح الأمر ما بين أميرة بابل الثالثة وعزيزي أمازان » .

قال الملك : « كثيراً ما تساءلت ، أمن الممكن أن يقهر بخرائيته المئتين جيوشاً كثيرة تبلغ عدة كل منها ثلاثمئة ألف رجل » ؟

قال أمازان : « ولم لا » ؟ وعندئذ أخذ ملك بتيكا يقرقه هذا السؤال : — « لم لا » — إلا انه كان يتصور بأن الرفعة والسناء وحدها غير كافيين للاستقواء على جيوش لا حصر لها .

فقال : « أنصحك بأن تتوجه الى ملك الحبشة ، قال لي صلة بهذا الأمير الأسود عن طريق عملائي الفلسطينيين وسأزودك بخطاب توصية اليه ، وحيث انه في عداء مع ملك مصر فانه

سيهبط كثيراً بمحالفتك التي ستزيده قوة . وأستطيع ان أساعدك بألفي سياف شجعان، ويجب عليك أن تعتمد على نفسك فتستخدم كثيراً من الرجال الذين استوطنوا سفح البرنيس ويدعون الفسقون . فما عليك الا أن ترسل أحد معاديك متطيباً خرتيتاً وتزوده بقليل من الجواهر حتى يفرك كل فسقوني قصره وأعني سومعته التي ورثها عن أبيه ليكون في خدمتك ، فانهم أعداء أقوياء أمناء . وبينما أنت تنتظر وصولهم صنقيم لك المهرجانات ولعد السفن . فاني أعجز عن أن أؤدي اليك حق الشكران على الخدمات التي أديتها الي » .

ولقد أحس أمازان بنشوة السعادة لما إستعاد فورموزانتا وأنس بحديثها في هدوء وشعر بفتنة الحب الصافي ، تلك الأشياء التي تعدل في قوتها ، قوة الشهوة المشبوبة .

وسرعان ما وصلت جيوش الفسقون الفخورة المرحة وهم يرقصون على ألغام الدفوف . وكانت جيوش بتيكا الباسلة قد استعدت ، فعانق الملك العجوز الملوح اللون الحبيبين وزود السفن بكميات كبيرة من الأسلحة والفراش والصناديق الضخمة ، والأغطية ، والملابس السود بالبصل والدجاج ، والأغنام والدقيق وخاصة الروم . وتمنى لهم سفراً سعيداً وحياً ثابتاً وانتصارات متعددة .

لم تكن حينذاك قرطاجة الفخورة ذات قوة بحرية ، ولم يكن يقطنها غير بعض التوميديين الذين اتخذوا من تجفيف الأسماك على أشعة الشمس حرفة لهم . وكانوا يجوبون الشاطئ من بيزاقيتة وسورتة والدلتان الخصيبة التي قامت عندها مدينة قورينة ومدينة خرسونيز العظيمة .

وصلوا أخيراً تجاه المصب الأول لنهر النيل المقدس ، وكانت تستقبل فعلاً جميع سفن الأمم التجارية عند نهاية هذه الأرض الخصيبة في ميناء كانوبوس ، ولم يعلم أحد إن كان الإله سهيل قد أسس هذه الميناء أم كان السكان هم الذين صنعوا هذا الاله ، أم كان النجم سهيل قد أضفى اسمه على المدينة ، أم كانت المدينة هي التي خلعت هذا الاسم على النجم ؟ وكل ما كان معروفاً عن ذلك هو أن المدينة والنجم كلاهما قديم جداً وهذا كل ما يمكن أن يعرف عن أصل الأشياء مهما كانت طبيعتها .

رأى ملك الحبشة في هذه البقعة من الأرض — بعد أن أخضع مصر — أمازان القاهر وفورموزانتا المعبودة ينزلان الى البر ، فقام في نفسه اعتقاد بأن أحدهما هو إله الحرب والآخر إله الجمال . فقدم اليه أمازان كتاب التوصية الذي كان يحمله من ملك اسبانيا . وفي الحال قام ملك الحبشة بتكريمهما وذلك بأن أقام لهما مهرجانات ضخمة كان لا بد منها وفقاً لعادات عصور البطولة .

ثم تشاوروا في الطريقة التي يهيئان بها الحملة الحربية لاخضاع جيوش ملك مصر الثلاثمئة الف ومثلهم لكل من أمبراطور الهند وحاكم الاسقوثيين الأكبر الذين كانوا يحاصرون مدينة بابل العظيمة الفخورة المليئة بالمهمات .

حينئذ قال المثني إسباني الذين أحضرهم معه أمازان بألاّ هأد لهم بملك الحبشة وفكه لحصار بابل ، بل يكفي عندهم أن أمرهم ملكهم بالتوجه لانقاذها وأنهم قادرون كل المقدرة على القيام بهذه الحملة .

وقال الفسقونيون بأنهم كثيراً ما قاموا بمثل هذه المهمات من قبل وأنهم بقدومهم لسوف يقهرون المصريين والهنديين والاسقوثيين وانهم لن يتحركوا إذا لم يوضع الاسبانيون في حرس المؤخرة .

لم يسع المثني كنجي إلاّ أن يتضاحكوا من ادعاءات محالفيهم ، وأصرّوا على أنهم بمئة حرتيت يمكنهم أن يفتتوا ويبيدوا كل ملوك الارض . وعلى أثر ذلك هدأتهم فورموزانتا الجميلة بحكمتها وعظتها الساحرة الفاتنة ، وقدم أمازان للملك الأسود الخ ده الكفسم وخرائيته ورجاله الاسبان والفسقونيين وطائره الجميل .

كان كل شيء على تمام الاهبة للسير من طريق تمفيس ، فهليو بوليس تجهز وأرتميس وصور وأدفين ، لمهاجمة الملوك الثلاثة وتتبع هذه الحرب الخ ... التي ان قرنت بها أي حرب قامت بها البشرية ، لما كانت بالقياس عليها إلاّ تقاقات .

ردّدت الصهيرة بألسنتها المثوية تلك الانتصارات التي حازها أمازان على الملوك الثلاثة برجاله الاسبان والفسقون والخرائيت ، ورد فورموزانتا الفاتنة الى أبيها ، وأعاد بجاديتها من قبضة ملك مصر ، وأعلن خان استوثيا الأعظم نفسه أميراً تابعاً له ومعه زواجه من الأميرة ألديا . وأمّا أمازان القاهر الكريم فأعلن بأنه ولي عهد مملكة بابل ، وبهذه المدينة يحتفي به النصر ومعه العنقاء بحضور مئة ملك من أتباعه . وكان الاحتفال بزواجه أضخم وأفخم من الاحتفال الذي أقامه للملك بلوس من قبل ، وكان مما قدم على المائدة العجل آبيس مشويًا ، كما كان ملك مصر وملك الهند ساقيا العروسين . وكفى أن هذا العرس قد أشاد به خمسمئة شاعر من شعراء بابل العظام .